الرقم التسلسلي:.....

رقم التسجيل: D20/11500/ 6492

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي و البحث العلمي

المركز الجامعي سي الحواس – بريكة

معهد الآداب و اللغات

قسم اللغة و الأدب العربي

أطروحة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه في الطور الثالث – ل.م.د –

ميدان: اللغة والأدب العربي

شعبة : **دراسات أدبيّة** تخصص : **أدب عربي**

أسئِلة الذّات والهويّة في الرّواية العربيّة(أولاد الغيتو اسمي آدم) لإلياس خوري–أُنموذجا–

إعداد الطالب(ة):

أسماء جعيل

إشراف الأستاذ(ة):

د. فاطمة الزّهراء عطِيّة

السنة الجامعية: 2023/2022

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي و البحث العلمي

المركز الجامعي سي الحواس – بريكة

معهد الآداب و اللغات

قسم اللغة و الأدب العربي

أطروحة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه في الطور الثالث – ل.م.د –

ميدان: اللغة والأدب العربي

شعبة : **دراسات أدبيّة** تخصص : **أدب عربي**

أسئِلة الذّات والهويّة في الرّواية العربيّة(أولاد الغيتو اسمي آدم) لإلياس خوري–أُنموذجا–

إعداد الطالب(ة):

أسماء جعيل

إشراف الأستاذ(ة):

د. فاطِمة الزّهراء عطِيّة

لجنة المناقشة

الرقم	الاسم و اللقب	الرتبة	الجامعة	الصفة
01	السّعيد ضيف اللّه	أستاذ التّعليم العالي	المركز الجامعي بريكة	رئيسًا
02	فاطمة الزّهراء عطيّة	أستاذ محاضر-أ-	المركز الجامعي بريكة	مُشْرِفا ومُقَرّرا
03	كوسة علّاوة	أستاذ محاضر-أ-	المركز الجامعي بريكة	مُمْتَحِنا
04	نصيرة شينة	أستاذ محاضر-أ-	المركز الجامعي بريكة	مُمتحِنا
05	محمّد عبد الهادي	أستاذ التّعليم العالي	جامعة الجزائر2 أبو القاسم سعد اللّه	مُمْتحِنا

06	فاطمة دخيّة	أستاذ التّعليم العالي	جامعة محمّد خيضر بسكرة	مُمْتَحِنا

السنة الجامعية: 2023/2022

الشّـــــــكر

نتقدّم بالشّكر الجزيل...

لكلّ من ساهم معنا وساعدنا..

ولو بالكلمة الطّيّبة...

فالكلمة الطّيّبة صدقة...

والصّدقة جارية مَجْرَى الدَّمِ بالعروق...

فشُكرًا لكُم...

.....

الإهـــــــــــــداء

للوطن الّذي بات حُلما يُراودنا...

وللذّات الجريحة المُقيّدة الزّمان والمكان....

للرّوح الّتي التبستنا فصِرنا أُناسا نرى بقلوبنا...

لنا نحن...

وللجميع...

ولكلّ الأرواح الطّاهرة.....

ولتلك الأرض المُقدّسة....

فلسطين...

نُهديك سلامنا... وأرواحنا...

أجل كتبناك فلسطين.....

وطن الشّهادة...

وشجرة الزّيتون....

وقصيدة لا تنتهي حتّى وإنْ جفّت أقلامنا...

كتبناك بدمائنا....

وطنا ولحنا وأرضا ونقشناك رُسوما على هاماتنا...

هكذا نفنى كحقائق زائلة...

لكن تبقى هُويّتنا العربيّة راسخة لا تمحيها ضمائرْ...

مقدمة

تُعبّر الرّواية المعاصرة عن مكنونات الذّات الإنسانيّة في تأمُّلات الواقع، بعينٍ ثاقِبةٍ واعيةٍ تُشاهد مُشكلات الذّات وتساؤلاتها، وكلّ ما يتعلّق بها من انكسارات وشتاتٍ، وضِمن هذا الأُفُق، مثّلت الذّات بذلك التّمزّق والتّيه إشكالاتها في المُتون الرّوائيّة العربيّة المُعاصرة.

في مُقابل مشاكل الذّات ونِزاعاتها، تَبْرُز حقيقة الهويّة والانتماء بالنّسبة لها، نتيجة شُعورها الحادّ بفُقدان خُصوصيّتها في علاقتها الجدليّة مع الآخر.

فتداخلت بذلك، الذّات والهوية في الحقل النّقدي باعتبار المتلقي شريكا فعّالا في إنتاج النّصّ الأدبي، ولمّا كان الكاتب منتجا فعالا يشارك المتلقي نصّه فقد تتبّع أحداث راهنه المتأزّم بصراعات الأنا والآخر، محاولا الإحاطة كتعبير عن التزامه بقضاياه ومشاكله الّتي تنضوي تحت مبدأ فقدان الذّات والهُويّة والبحث عنهما، بدافع إحالة القرّاء للصّورة الحاضرة للإنسان العربي ضمن مُحيطه، وما تُعانيه هذه الأنا العربيّة جرّاء سطوة وسُلطة الآخر عليها.

لعلّ النّصوص الإبداعية العربيّة تفتح آفاقا جديدة للقُرّاء من عِدة نواحي كالكشف عن خلفيّات الآخر وسياساته الهَادِمة للذّات العربيّة، الّتي اقْتصر حُضورها على الغِياب، كما أتاحت للمُبدع العربي عدّة سُبلٍ للبحث عن أسباب أزمات الذّات العربيّة الضّائعة، غرض التّوصّل لحلول تزيح أخطار ظاهرة انكسار الذّات والهُويّة.

من شأن هذا الفعل، أن يُسهم في تبني الكاتب العربي لقضايا واقعه، الّتي تكشف عن حقيقة المُعاناة الفرديّة والجماعيّة.

تبدو رواية (أولاد الغيتو اسمي آدم) حاملة لملامح الذّات العربيّة الغائرة تحت ظِلّ الآخر المُغتصب للأرض والذّات والهُويّة، وضِمن هذا السّياق تنبني أحداث الرّواية الّتي تُفصح عن دلالات الغياب العربي، كصورة الفلسطيني أيّام النّكبة والغيتو.

إذن: هي حِكاية واقعيّة لشعب أسير طُرد من أرضه، وسيق للأسر داخل غيتو مُسيّج وتُركَ لمواجهة مصيره المجهول.

نظرا لحيوية هذا الموضوع المتأرجح بين جدليتين "**الذات والهوية**" ولجدّة هذه الرواية، فقد وقع اختيارنا عليها لنقارب أبعادها الدلالية ونُحلل مكوناتها، ونفكك استراتيجيتها في تشكيل واقع الذّات العربيّة المُشتّتة، فهي انعكاس للذّات الفلسطينيّة المُغيّبة جرّاء عُدوان الآخر الإسرائيلي، ليكون عنوان بحثنا: **"أسئلة الذّات والهُويّة في الرّواية العربيّة (أولاد الغيتو اسمي آدم لإلياس خوري) أنموذجا".**

تأسيسا على هذه الطرح، فقد تولدت لدينا أسئلة تمكنا من خلالها الإحاطة بجميع جوانب الموضوع؛ ولعل أهم هذه الأسئلة:

- ماذا نعني بأسئلة الذّات والهُوية؟
- كيف للأنا العربيّة المُهَشَّمة الوقوف مع آخرها المركزي؟
- هل أجاد الكاتب العربي تصوير راهن الذّات العربيّة المُنكسرة من خلال نُصوصه الإبداعيّة؟
- وهل وُفّق إلياس خوري في عمليّة تصوير واقع الذّات العربيّة، من خلال روايته أولاد الغيتو اسمي آدم؟

قُسّمت هذه الدراسة – وفق طبيعتها - إلى مقدّمة وثلاثة فصول وخاتمة، من باب التّوصّل لاستنتاجات جديدة حول موضوعَيْ الذّات والهُويّة

العربيّة، ومدى تأثيرهما على حياة الإنسان العربي ضمن راهنه الكثير التّأزّم، حيث عرضنا في **الفصل الأوّل** الذي حمل عنوان**(الذّات والهُويّة: الماهية والتّمظهُرات في الخطاب الرّوائي العربي)** إلى أغلب مفاهيم الذّات والهُويّة وكلّ ما له علاقة بهما، بُغية التِقاط دلالة المعنى الصّحيحة لكلّ من الذّات والهُويّة، كما حاولنا جاهدين تبيين حقيقة الذّات العربيّة وما تُعانيه من تشظّي الهُويّة تحت سَطْوَةِ الآخر.

بعدها واصلنا عملنا بالانتقال **للفصلين الثّاني والثّالث** مُطبّقين على المُدَوّنة، ففي **الفصل الثّاني** الحامل لعُنوان: (**البحث عن الذّات في رواية أولاد الغيتو اسمي آدم لإلياس خوري)**، تطرّقنا إلى العناصر الآتِي ذِكرُها: تمهيد، صُورة الذّات في الرّواية، الصُّورة الجَسَدِيّة، الصّورة النّفسيّة، الصُّورة الاجتماعيّة، مِحْنَةُ الشّتات، ثنائيّة الأنا والآخر، الأنا عبر ضمائر السّرد، السّرد والذّات، وخاتِمة للفصل.

أمّا بالنّسبة **للفصل الثّالث** فحمل عُنوان: (**الهُويّة في رواية أولاد الغيتو اسمي آدم لإلياس خوري)**، الّذي اندرج تحته العناصر التّالية: تمهيد، تشكّل الهُويّة في الرّواية، الهُويّة الفرديّة، الهُويّة الاجتماعيّة، الهُويّة الوطنيّة، الهُويّة الثّقافيّة، الهُويّة الافتراضيّة، بروز عناصر الهُويّة في الرّواية، اللّغة العربيّة، الدّين، الوطن، توظيف التّراث، السّرد والهُويّة، خاتِمة الفصل.

كما خُتِمَ العمل بخاتمة أَجْملنا فيها كلّ استنتاجاتنا حول الموضوع، الّذي تُفتَحُ آفاق دراسته مُسْتقبلا.

سِرنا في عرض مادة البحث وصياغته وفق جملة من المناهج؛ بدايتها المنهج التاريخي الذي ساعدنا على التبصر بتطور مفاهيم المصطلحات التي اشتغلنا عليها، وللتنظير لتيمتي الذّات والهوية.

كما اعتمدنا المنهج الوصفي وذلك عن طريق وصف المقاطع السردية التي تحمل في ثناياها أسئلة الذات والهوية، مستعينين بآلية التحليل والتبسيط للبنى الفكرية والفنية وتشكلهما داخل الرواية.

وقد ظهرت الحاجة إلى المنهج النفسي هو المنهج الأساسي الذي طبقنا عليه الدراسة التطبيقية على الرواية، وذلك لما يحمله من قابلية الكشف عن قدرة النص الأدبي في التعبير عن المستويات النفسية العميقة لدى الكاتب، كما يقدّم للباحث قدرة الكشف عن الدلالات اللامتناهية للمشاعر والانفعالات البشرية.

إنّ هذا البحث ما كان ليستوي على هذا الشكل لولا اتكاؤه على بعض المصادر والمراجع الأساسية منها: المصدر الرئيس وهو مدوّنة بحثنا: **رواية أولاد الغيتو اسمي آدم**، أما المراجع فأهمها: **حسن حنفي حسنين**: الهويّة (مفاهيم ثقافيّة)، وكتاب: **بيل أشكروفت، بال أهلوايا**: مفارقة الهويّة (إدوارد سعيد)، إلى جانب كتاب: **علي حرب**: خِطاب الهويّة (سيرة فكريّة)، وكتاب **حليم بركات**: الاغتراب في الثّقافة العربيّة (متاهات الإنسان بين الحلم والواقع).

ثمّة مجموعة من الدّوافع أسهمت في عمليّة اختيارنا لموضوعنا، نذكر منها الدّوافع الذّاتيّة الّتي انطلقت منْ:

- ميولنا وشغفنا الزّائد بمعرفة المزيد من المشاكل النّفسيّة؛ بالخصوص ما يتعلّق منها بموضوع الذّات والهُويّة والأنا.

- حبّ الاطّلاع على مواضيع علم النّفس والفلسفة.
- محاولة الغوص في الموضوعات ذات الأبعاد الدّاخليّة النّفسيّة للإنسان.
- إبراز الهُويّة الفلسطينيّة من باب أنّها قضيّة العرب ككل، ولا تقتصر على الفلسطيني فحسب.

أمّا بالنّسبة **للدّوافع الموضوعيّة** فكانت موسومة كالآتي:

- جِدّة الموضوع وحساسيّته كَونه موضوعا ما بعد الحداثي، يَطرح مجموعة من المشاكل الفرديّة والجماعيّة بناءً على مُعاناة الإنسان العربي ضمن راهنه المُتصارع.
- محاولة تصوير الواقع العربي المأزوم ومدى تأثيره على الإنسان العربي.
- الخوض في غمار الموضوع بغرض الإتيان بالجديد حول مسألة الذّات والهُويّة العربيّة.

أمّا بالنّسبة للصّعوبات الّتي واجهتنا أثناء عملنا البحثي عديدة؛ إذْ لا يخلو منها أيّ بحث أكاديمي، فهي بمثابة ملح يُنَكّهُ الدّراسة ويُعطيها انطباعا مُميّزا في ذات الباحث، لذلك أحصَيناها في عِدّة نقاط كالآتي:

- كثرة المراجع الّتي تخلق نوعا من الخلط لدى الباحث، من ناحية انتقاء المراجع المُناسِبة للفصول.
- صعوبة التّحكّم في الموضوع من باب عدد الصّفحات، وكميّة المعلومات الموظّفة داخل الفصول والمباحث.

كانت هذه أهمّ الصعوبات التي اعترضني كباحثة في هذا الموضوع؛ حيث وجدت أنّ لكلّ موضوع سماته الخاصّة به، ومراجعه الّتي ينبني عليها؛ إذْ لا يمكننا الانطلاق من فراغ، لذلك وجب علينا انتقاء المراجع بدقّة كي لا نقع في فخّ التّكرار والإطناب، وهذا عيب الباحث الوحيد.

بعد كلّ ما قُلناه: لمْ يبقَ لنا سوى تقديم الشّكر الجزيل لكلّ من ساهم معنا وساعدنا ولو بالكلمة الطّيبة كأضعف الإيمان، لذلك وجب علينا هنا الوقوف شُكرا وعِرفانا **للأستاذة الدّكتورة الفاضلة: عطيّة فاطمة الزّهراء**، والثّناء على مجهوداتها وسخائها في كافّة الجوانب بالخصوص الجانب العلميّ منها.

الفصل الأوّل: الذّات والهويّة: المَاهِية والتّمَظْهُرات في الخِطاب الرّوائي العربي

الفصل الأوّل: الذّات والهُويّة: الماهية والتّمظهُرات في الخطاب الرّوائي العربي.

تمهيد:

أوّلا: التّأصيل المصطلحي للذّات والهُويّة

ثانيا: أسئلة الذّات وتمثّلاتها في الرّواية العربيّة

ثالثا: أسئلة الهُويّة وتمثّلاتها في الرّواية العربيّة

الفصل الأوّل: الذّات والهويّة: المَاهِية والتَّمَظهُرات في الخِطاب الرّوائي العربي

تمهيد:

تُشكّل الرّواية محطة هامة من محطات الكاتب العربي، فقد سمحت له بالانفتاح أكثر على قضايا راهنه، الّذي صار حلبة للصّراع بين القوى العالميّة على حِساب دول الوطن العربي.

من هنا، تتبدّى أهميّة الرّواية العربيّة المُعاصرة من خلال توفّرها على أهمّ القضايا الشّاغلة لفكر الإنسان العربي، انطلاقا من مُعاناته ضمن واقعه المَأزوم، فهي وسيلة الكاتب الّتي يختزِل من خلالها حقيقة راهنه، الّذي لا يخلو من ملامح الظّلم والعُنف، ناهيك عن المشاكل السّياسيّة والاجتماعيّة والحُروب وغيرها من تَمَظْهُرات الواقع العربي تحت سَطْوَة الآخر.

ممّا لا شكّ فيه، أنَّ قضيّة الذّات والهُويّة اكتَسَحت السّاحة الأدبيّة العربيّة، لِما لها من وقْع على حقيقة الحُضور العربي، فهي بذلك نقلٌ لمعاناة الإنسان العربي كفاقد لذاته ومُنكسر للهُويّة.

أوّلا: التّأصيل المصطلحي للذّات والهُويّة

تُعدّ ثُنائيّة الذّات والهُويّة من أهمّ الثّنائيّات، الّتي نالت اهتمام الفلاسفة والدّارسين والباحثين والمُنْشغلين بها، فسُؤال الذّات والهُويّة قديم قِدم الإنسان، وقِدَمَ انشغالاته الحياتيّة المُتنوّعة، ومنْ هُنا احتلّ الموضوعان الصّدارة في كثير المجالات، إذْ وردت لهُما عِدّة تعاريف نورد البعض منها على التّرتيب.

1/ حول الذّات:

1-1/ ماهِيَة الذّات:

قبل التّعرّض إلى أهمّ التّعاريف الّتي تطرّقت لمفهوم الذّات، فإنّ علينا أنْ نتتبّع بداياته في اللّغات الأجنبيّة.

في هذا السّياق، نبدأ بالتُّراث الفرنسي من خلال قواميسه التّاريخيّة، فإذا ما تصَفّحنا قاموس لاروس (Larousse) فإنّنا نجده يُؤكّد أنّ الذّات هي الفرديّة أو الذّاتيّة (Le

الفصل الأوّل: الذّات والهويّة: المَاهِية والتَّمَظهُرات في الخِطاب الرّوائي العربي

(Soi):"La personnalité de chacun"[1]، وتعني الشّخصيّة الفرديّة الّتي يمتلكها الإنسان، ويتميّز بها عن غيره.

أمّا بالنّسبة، لمعناها باللّغة الإنجليزيّة (الذّات/self) كان كالآتي:

"A person's own nature or qualitis"[2]؛ ويُقصد بها، طبيعة الشّخص وصفاته الّتي يختلف بها عن غيره من الأفراد.

وكاستنتاج لتعريف الذّات لُغويّا عند الغرب، نجدها: لا يخرج عن دائرة الصّورة المَعرفيّة للنّفس البشريّة.

أمّا من النّاحية الاصطلاحيّة، فقد اتّخذ مفهوم (الذّات) عند رونيه ديكارت (René Descarte)، معنى الوُجود سواء أكان هذا الوجود مع الذّات (معرفة حقيقة النّفس)، أم كان ضمن المحيط الذّي ينتمي إليه هذا الفرد.

على هذا بنى رونيه ديكارت رؤاه الّتي انطلقت من مبدأ إعمال الفِكر كخادم لجوهر الإنسان الكُلِّي، لذلك فإنّنا: "نُخْطئ سَهْوا كُلّما لمْ نُفكِّر في بعضِ الشّروط اللّازِمة لتحديد مسألة مَا"[3]، وبهذا يكون للتّفكير الدّور الرّئيس في إدراك الحقيقة دون الوقوع في الأخطاء، لذلك عُدّت الذّات جوهر الفرد الفكري.

فإثبات حقيقة الذّات وارتباطها بالفكر، حقيقة داخليّة تبرز الفرد هيئة منظّمة تُحيل مباشرة للوجود الحقيقي للفرد.

وعليه، عُدّت الذّات عين الحقيقة الدّاخليّة الشّاملة لجميع ميكانيزمات النّفس البشريّة من قدرات نفسيّة وإدراكات وشعور ولا شعور، ناهيك عن علاقة هذا الفرد بالآخرين ضمن

---

[1] Pluri dictionnaire Larousse, imprimerie Berger_ Levrault, Nancy, juin 1977, p:1286.

[2] Oxford Basic English Dictionary,oxford university press, third edition, 2006, p:339.

[3] رونيه ديكارت: قواعد لتوجيه الفِكر، ترجمة: سفيان سعد اللّه، دار سراس للنّشر، تونس، دط، 2001م. ص:108.

الفصل الأوّل: الذّات والهويّة: المَاهِية والتَّمَظهُرات في الخِطاب الرّوائي العربي

راهنه، وهذا حسب رأي الفيلسوف كارل روجرز(Carel Rogrez)؛ الّذي رأى أنّ الذّات: "انتماء للجوهر والجماعة البشريّة ضمن محيط مُعيّن"[1].

كما نجد مفهوم الذّات لم يتداول بكثرة عند الفيلسوف سيغموند فرويد(Sigmund Freud)، الّذي اعتبر أنّ الأنا المُرتكز الحقيقي لوُجود الفرد؛ حيث إنّ: وجودها كفيل بإثباته فردا حرّا ضمن إطاره الّذي ينتمي إليه، والمقصود بذلك: الأنا مشرفا على جميع الحركات الإراديّة للفرد؛ إذْ بها تُحفظ الذّات من الانفلات[2].

إمعانا في التّوضيح نرى أنّ: معنى الذّات عند فرويد كان أقلّ قيمة من الأنا؛ إذْ أولاها اهتمامه لاشتمالها جلّ معالم النّضوج والسّيطرة والكمال، عكس الذّات المتأثّرة بسيرورة المحيط.

لمْ تبتعِد الثّقافة العربيّة عن نظيرتها الغربيّة في تحديد مفهوم الذّات، وإذا أرَدْنا أنْ نضبِط مَصطلح الذّات فإنّ المعاجم العربيّة تعود بِنا إلى جُذوره الأولى، فقد ورد في كتاب العين للخليل بن أحمد الفراهيدي (ت170هـ)، ما مفاده أنّ: "ذو اسم ناقص تفسيره: صاحب، كقولك: ذو مال؛ أي صاحبه، والأنثى منه ذات(...) وكذلك قولهم: عرفه من ذات نفسه؛ كأنّه يعني به سريرته المضمرة"[3].

---

[1]Carl.R Rogers Ph.D, Client– Centered Therapy, Constable, London, 1951. P: Outer cover page.

[2]ينظر: سيغموند فرويد: الأنا والهو، ترجمة: محمّد عثمان نجاتي، مكتبة التّحليل النّفسي والعلاج النّفسي، دار الشّروق، بيروت، ط4، 1982م. ص:16.

[3]الخليل بن أحمد الفراهيدي: كتاب العين، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، (مادّة ذو)، منشورات دار الكتب العلميّة، بيروت–لبنان، ط1، 2003م. ج:02، ص:78.

الفصل الأوّل: الذّات والهويّة: المَاهِية والتَّمَظهُرات في الخِطاب الرّوائي العربي

وبالعودة إلى معجم لسان العرب لابن منظور(ت711هـ) نجِد التعريف قد ورد فيه: "ذُو وذَوات: قال اللّيث: ذو اسم ناقص وتفسيره صاحب ذلك وتأنيثه هو: ذات(...) وذاتُ الشَّيْء حقيقته وخاصّته"[1].

أمّا في المَعاجم الحديثة، فنذكر ما ورد في معجم اللّغة العربيّة المعاصرة لأحمد مختار عمر أنّ:" ذات: [مفرد]: ذوات: نفس، جاء ذات الرّجل– جاء الرّئيس ذاتَهُ"[2].

بِناءً على ما سبق ذِكره في جُلّ التّعاريف الفارطة، نجد أنّ الذّات تدُلّ على النّفس من مبدأ الشّيء وحقيقته؛ أي سريرته والمقصود بها جوهر الإنسان الدّاخلي.

أمّا من النّاحية الاصطلاحيّة، فإنّ دراسة الذّات وتجلّياتها ومُنذ عقود طويلة كانت تُعدّ واحدة من الأنشطة الشّاغلة للفكر العربي، وهذا بالفعل يعود للحالات الّتي مرّ بها الواقع العربي من مأساة وحروب، سواء أكانت من النّاحية الفكريّة المعلوماتيّة، أو من نواحٍ سياسيّة واجتماعيّة، ومن ذلك تتجلّى حقيقة الإنسان العربي الّذي قيد تلقائيّا لرحلة البحث عن الذّات، وهذا ما تبنّاه كثير الفلاسفة والمفكّرين العرب، مِنْ أمْثال ابن سينا الّذي يقول: "إنّ لكُلِّ شيء ماهيةً بها ما هُو، وهي حقيقته بل هي ذاته (...) مِثال ذلك الإنسان فإنّه يحتاج أنْ يكون جوهرا"[3].

من ذلك، امتازت النّفس عند ابن سينا بجوهرها الّذي كشف عن معنى الحقيقة الفرديّة؛ أي تلك الذّات الإنسانيّة الحرّة الغامضة.

في حين يرى الفيلسوف العربي الغزالي أنّ النّفس مسؤول رئيس عن الدّواخل الإنسانيّة: "النّفس الإنسانيّة هي كمال أوّل لجسم طبيعي آلي من جهة ما يفعل الأفاعيل بالاختيار

---

[1] ابن منظور أبو الفضل جمال الدّين بن مكرم: لسان العرب، (مادّة ذَوَ)، دار صادر للطّباعة والنّشر، بيروت- لبنان، ط6، 2003م. ج:06، ص:09-11.

[2] أحمد مختار عمر: معجم اللّغة العربيّة المعاصرة، عالم الكتب نشر، توزيع، طباعة، (مادّة ذو)، القاهرة، ط1، 2008م. مج:01، ص:800.

[3] الحسين بن عبد اللّه بن الحسن بن علي بن سينا البلخي: الشّفاء، تحقيق: الأب قنواتي وآخرون، وزارة المعارف العموميّة، المطبعة الأميريّة، القاهرة، دط، 1952م. ص:122–123.

الفصل الأوّل: الذّات والهويّة: المَاهِية والتَّمَظهُرات في الخِطاب الرّوائي العربي

العقلي، والاستنباط بالرّأي"[1]، دون شكّ، نجد أنّ: الذّات لم ترد مفهوما قائما بذاته عند الغزالي؛ بل اقترنت بمصطلح النّفس.

على المنوال نفسه، يُواصل الفلاسفة المحدثون نقاشهم حول مسألة الذّات الإنسانيّة؛ إذْ ربطها الفيلسوف والنّاقد العربي حسن حنفي حسنين بالهُويّة الّتي باتت جدليّة للفكر العربي، فيشير إلى هذا في أن قانون الهويّة يمنع انقسام الذّات على نفسها، الّتي تقود حتما إلى إنكار الوجود الإنساني[2]، نفهم من التّعريف أنّ: الذّات واحدة من عناصر الهُويّة، الّتي تتضافر مع عناصر داخليّة أخرى فيحدث الوجود الفردي؛ أي وعي الحقيقة الذّاتيّة المُثبتة للفرد ضمن راهنه.

كذلك الشّأن بالنّسبة لإدوارد سعيد، الّذي يربط معنى الذّات بالحريّة والانقياد العقلي(الوعي)، كما قام بإسقاط مفهوم الذّات على الإنسان العربي العاري الهويّة، بغرض المكاشفة عن: "جوهر التّحرّر والانعتاق من قيود الآخر، عن طريق إدراك الذّات كشاملة ومُوحّدة بينها والآخر[3]؛ وعلى هذا الأساس، انبنى مفهوم الذّات عند إدوارد سعيد كفلسطيني متعدّد الذّوات، من مُنطلق إدراك كينونة الذّات كي يتحقّق بذلك التّلاحم بين الذّات والآخر، في إطار العلاقات الثّنائيّة الّتي لا يخلو منها الواقع.

على هذا النّحو، نتعرّف على رأي المفكّر علي حرب وطرحه لمفهوم الذّات، الّتي أعطاها معنى النّفس البشريّة انطلاقا من معرفة الذّات بالذّات، فقال: "إنَّ الإنسان هو أيضا ما يعرفه، وما يكونه من الرّؤى والتّصوّرات إنّه نظرته حول نفسه وحول العالم المحيط به"[4].

إذن، حملت الذّات عند الفلاسفة القدماء والمحدثين معانٍ عدّة من بينها: النّفس الإنسانيّة العميقة.

---

[1] أبو حامد الغزالي: معارج القُدس في مدارج معرفة النّفس، مؤسّسة هنداوي، دد، دط، 2019م. ص:21.

[2] ينظر: حسن حنفي حسنين: الهويّة(مفاهيم ثقافيّة)، المجلس الأعلى للثّقافة، القاهرة، ط1، 2012م. ص:09.

[3] ينظر: بيل أشكروفت وبال أهلوايا: مفارقة الهويّة (إدوارد سعيد)، ترجمة: سهيل نجم، دار نينوى للدّراسات والنّشر والتّوزيع، سوريا– دمشق، ط1، 2002م. ص:162.

[4] علي حرب: خِطاب الهويّة (سيرة فكريّة)، الدّار العربيّة للعلوم ناشرون، لبنان، ط2، 2008م. ص:180.

الفصل الأوّل: الذّات والهويّة: المَاهِية والتَّمَظهُرات في الخِطاب الرّوائي العربي

1-2/ ماهِية الآخر:

إنَّ أيّ مصطلح يأخذ في تعريفه شقين؛ شق لغوي وآخر اصطلاحي، ونحن يعنينا مصطلح الآخر، الذي نمضي في تعريفه من خلال تتبُّعِنا لأهمّ بِداياته في المعاجم الأجنبيّة.

من هذا، نبدأ بالقاموس الفرنسي لاروس الّذي أعْطاهُ معنى المُمَيَّز عن الأنا أو كلّ ما ليس أنا، ومنه ورد تعريف (الآخر/L'autre) كالآتي:" Adj et pron.indéf, distinct différent , second. Antérieur(autre part ailleurs) d'autre part en outrede temps à autre parfois"[1]، وهكذا حمل الآخر معنى المُختلف عن الأنا.

أمّا بالنّسبة لمعناه في القواميس الإنجليزيّة (الآخر/ the other)، فكان كالآتي:" Each one another, on the other hand , of all others ; other- others or another other than(...) for the syntax of these, and for the distinction sometimes made between them, see each(...) for the difference between this and on the contrary ; see contrary"[2]؛ وتعني النّقيض والشّيء المُميّز عنّا والمُختلِف.

وكاستنتاج لتعريف الآخر لُغويّا عند الغرب، نجد أنّ: معناه لا يخرج عن معنى المُختلف والنّقيض.

أمّا من النّاحية الاصطلاحيّة، فقد اتّخذ مفهوم (الآخر) عند جان بول سارتر(Jean paul sartre) معنى المُقابِل، لذلك: "كَيْ أَحصُل على حقيقة ما عنّي ينبغي أنْ أمُرَّ عبر الآخر، فالآخر ضروري لوجودي على قدْرِ ضَرورته لأُكَوِّنَ معرفة عن نفسي، وضِمن هذه الشّروط فإنّ اكتشاف ما هو حميم فِيَّ سيَكشِفُني في الوقت نفسه للآخر بِصِفته حُريّة ماثِلة

[1]dictionnaire Larousse de Français, Maury à Malesherbes en mars, 2010.p :31.

[2]H.W. Fowler: Dictionary of Oxford Fowler's modern English USAGE , Oxford University press, 1965. P :424.

الفصل الأوّل: الذّات والهويّة: المَاهِية والتَّمَظهُرات في الخِطاب الرّوائي العربي

قُبالَتِي"[1]، مِن هذا حمل الآخر معنى الشّيء المُقابِل لي الّذي لا يُمكنُني العيش دونه؛ لأنّه ضَروري لِوُجودي وبِه تتحدّد حقيقتي.

ومنه، يرى بول ريكور (Paul ricoeur) أنّ: "الآخر غير الذّات ليسَ هُوَ ذلك المُساوي"[2]، ونفهم من ذلك، أنَّ الآخر هُو الشّخص المُختلف عن الذّات والمُغاير لها.

لذلك، يُعدّ الآخر مُنعكسًا للذّات أَيْ منسوخا عن الحقيقة، وهذا حسب شَبَحيّة جاك دريدا (Jacques Derrida) الحامِلة لأبعاد فلسفيّة المُنطلقة من مبدأ الآخر شبحٌ للذّات.

في مَوضِعٍ آخر، يقول جاك ديريدا إنّ: "مَعِيش الغير لا يَتبيّن لي إلّا مِنْ جِهَةِ أنّهُ مُشار إليه"[3]، ونفهم من ذلك، أنَّ الآخر هُو الخارج عن الذّات والمُشار إليه.

وهكذا، مثّل الآخر حسب المَنظور الغربي معنى المُقابِل والمُشار إليه والمُختلف عن الذّات والمُغَاير.

لمْ تبتعِد الثّقافة العربيّة عن الغربيّة في تحديد مفهوم الآخر، وإذا أرَدْنا أنْ نضبِط مَصطلح الآخر فإنّنا دون مُنازع نلجأ لمَصَبّاتِه الأولى من معاجم عربيّة تعود بِنا لأصله الجِذْري، فقد ورد في معجم لسان العرب ما مفاده أنّ: "معنى آخر شيء غير الأوّل"[4]، هذا ما دلّ عليه الآخر حسب ابن منظور الّذي حَمّلَهُ معنى الغير.

---

[1] جان بول سارتر: الوُجوديّة مَنْزع إنساني، ترجمة: محمّد نجيب عبد المولى وزُهير المدنيني، دار محمّد علي للنّشر، تونس، ط1، 2012م. ص:63.

[2] بول ريكور: الذّات عينها كآخر، ترجمة: جورج زيناتي، المُنظّمة العربيّة للتّرجمة، بيروت– لبنان، ط1، 2005م. ص:555.

[3] جاك ديريدا: الصّوت والظّاهِرة مدخل إلى مسألة العلامة في فينومينولوجيا هوسرل، ترجمة: فتحي إنْقزّو، المركز الثّقافي العربي، الدّار البيضاء– المغرب، ط1، 2005م. ص:74.

[4] ابن منظور أبو الفضل جمال الدّين بن مكرم: لسان العرب، (مادّة أَخَرْ)، ج:04، ص:13 .

الفصل الأوّل: الذّات والهويّة: المَاهِية والتَّمَظهُرات في الخِطاب الرّوائي العربي

أما في المعجم الوسيط فقد حمل الآخر معنى "أحدُ الشَّيئين ويكونان من جِنس واحِدٍ(...) والآخرُ مُقابِلُ الأوّلِ"[1].

أمّا في المَعاجم الحديثة، فنذكر ما ورد في معجم اللّغة العربيّة المعاصرة لأحمد مختار عمر أنّ: "آخَرُ (مفرد): جمع آخَرُونَ (للعاقِلِ)، وأُخَّرُ وأَوَاخِرُ، مُؤنّث أُخْرَى، جمع مُؤَنّث أُخْرَيَات وأُخَرُ: أَحَدُ شيئينِ يكونان من جِنس واحد(...) هُوَ الآخَرُ: هُوَ أيضًا؛ مُخْتَلِفٌ، مُغايِرٌ أو بمعنى غَيْرِهِ"[2].

بِناءً على ما سبق ذِكره في جُلّ التّعاريف المُتَوَصّل إليها، نجد أنّ الآخر يدُلُّ على المُخْتَلِف والمُغاير والمُقابل الخارجي للذّات؛ أيْ المُمَيّز عن الذّات.

أمّا من النّاحية الاصطلاحيّة، فنجد أنّ: الآخر دلّ على المُقابِل والمُغاير، وحسب المُفكّر العربي علي حرب حمل مُصْطلح الآخر معنى الضّدّ، وفي ذلك يقول: "من يُقِرُّ بحقيقة الاختلاف ويَعْترِف بمشروعيّة اختلاف الآخر عنه، يُمكنه أنْ يَتَقبّل هذا الآخر المُخْتلِف"[3]، ومن ذلك يتحدّد معنى الآخر عند علي حرب، الّذي أعطاه دلالة الاختلاف والمُغايرة، فهو ليس الذّات لذلك وجب احترامه وتقبّل اخْتِلافاته.

أمّا بالنّسبة لإدوارد سعيد الّذي يرى أنّ الآخر يُمثّل المُخْتلف والمُجْرِم، انطلاقًا من خلفيّاته المُدركة عنه كَوْنَهُ فلسطيني يُعاني هَمَجِيّة الآخر الإسرائيلي، لذلك: "فالإرهاب رغم بشاعته ورغم ما يُثيره من قلاقِل (...) إنّ الإرهاب يرتبِط ارتباطًا مُباشرًا بالظّروف الجائرة الّتي

---

[1] إبراهيم مصطفى وآخرون: المعجم الوسيط، (مادّة أَخَرْ)، مُجمّع اللّغة العربيّة، القاهرة، ط5، 1432هـ- 2011م. ص:08.

[2] أحمد مختار عمر: معجم اللّغة العربيّة المعاصرة، (مادّة آخِرْ).ص:70.

[3] علي حرب: أسئلة الحقيقة ورهانات الفكر مُقاربات نقديّة وسجاليّة، دار الطّليعة للطّباعة والنّشر، بيروت- لبنان، ط1، 1994م. ص:195.

الفصل الأوّل: الذّات والهويّة: المَاهِية والتَّمَظهُرات في الخِطاب الرّوائي العربي

خَلَقَتها إسرائيل للفلسطينيّين"[1]، نفهم بذلك، أنّ إدوارد سعيد يربط مفهوم الآخر بأعماله الإجراميّة بدءًا من سياسة الإسرائيلي المُطبّقة في حقّ الشّعب الفلسطيني.

ولذلك عرّفَ المُفكّر العربي محمّد عابد الجابري الآخر؛على أنّه: "الخَصْم والعَدوّ"[2]، انطلاقًا من علاقة الغرب بالعرب الّتي مَيّزها العَداءُ والحِقد.

ختاما، حمل مُصطلح الآخر عند الفلاسفة العرب معانٍ عدّة من بينها: الاخْتِلاف والمُغايَرة والعداء وغيرها من المعاني الّتي تُثبتُ تَمَيُّزه عن الذّات.

1-3/ العلاقة بين الذّات والآخر:

تُمثّل الذّات في الرّواية العربيّة حضورا لانكسارات الفرد العربي وانهزاماته النّفسيّة، انطلاقا من حدود الرّاهن الّذي صار المُعيق الوحيد لحرّيّات الذّات العربيّة، إذْ أغرقت مُشاكله الإنسان وجعلته مقيّدا غائب الهُويّة الذاتيّة، لكن ما يثير انتباهنا حقيقة العلاقة بين الذّات والآخر، الّتي شكّلت تساؤلات الذّات العربيّة.

من ذلك، توصّلنا لحقيقة التّغييب الذّاتي المُنبثق عن تصوّرات الآخر للذّات العربيّة، ما دفع بها للتّساؤل والبحث عن حقيقتها كمحاولة لإثبات حضورها؛ إذن هي: "تساؤلات عميقة جدّا، عن الذّات والآخر وعن كونه آخر، وحتّى عن البداية وماذا قبلها؟وعن النّهاية وماذا بعدها؟ التّساؤلات قد تكون قائمة طويلة بلا نهاية، ولكن هذا السّؤال فقط(من أكون؟)"[3].

فالتّساؤل العميق عن حقيقة من أنا؟ من أكون؟ هو في الواقع خطوط تكشف عن زوايا خفيّة لحقيقة ارتباط الذّات(العربيّة)، بذلك الآخر؛ والمعنى المراد بذلك، إيصال فكرة القطيعة المرجعيّة بين التّاريخين والذّاتين المتناقضتين معا.

---

[1] إدوارد سعيد: أوسلو 2(سلام بلا أرض)، دار المُستقبل العربي، القاهرة، دط، 1995م. ص:144.

[2] محمّد عابد الجابري: مسألة الهُويّة العروبة والإسلام...والغرب، مركز دراسات الوحدة العربيّة، بيروت، ط4، 2012م. ص:144.

[3] محمّد هاشم الماحي: كينونة ذات، دار المصورات للنّشر والطّباعة والتّوزيع، الخرطوم- السّودان، ط1، 2017م. ص:21.

الفصل الأوّل: الذّات والهويّة: المَاهِية والتَّمَظهُرات في الخِطاب الرّوائي العربي

فهي الجذرنة* الغائبة والحقيقة المرّة، والواقع الأليم، ومنه نقول: "شكّل الآخر تحدّيا كبيرا للذّات، فقد حاول بشتّى الوسائل أنْ يطمس هويّتها، ويجعل منها تابعا يُسهم في ضمان مصالحه، وقد يأخذ حضور الآخر أشكالا مُختلفة، فقد يحضر بوصفه غازيا أو مبشِّرا أو مستعمرا"[1].

كما يُمثّل حضور الآخر بالنّسبة للذّات العربيّة، انعكاسا لحقيقة العنف والهيمنة في شتّى مناحي الحياة، فهو لا يقتصر على السّلب والنّهب؛ بل يتجاوزه لممارسة أشكال أخرى غريبة توصله لمبتغاه، وهنا تكمن ذاتيّة الآخر المختلف عنّا؛ لكن للخلفيّات الابستيمولوجيّة الدّور الفاعل في عمليّة السّطوة الآخريّة، يقول جورج طرابيشي: "هي إذن دائرة محكمة الإغلاق، وهي تكرّر نفسها أو تعدد حلقاتها إلى ما لا نهاية حيثما وجدت علاقات اضطهاد وسيطرة وعنف، فالحرب رجولة، والسّلام أنوثة، والقوّة رجولة، والضّعف أنوثة"[2].

نفهم من هذا الكلام؛ أنّ: علاقة الذّات بالآخر تبقى علاقة اختلاف في الموازين، كحقيقة الأقوى الجدير بالحُكم الّذي ما ينفكّ أنْ يُصبح مفهوما عاديّا في ذهنيّة العربي، المنقاد قسرا لذلك الأقوى المالك للسّلاح صاحب النّفوذ الدّولي، ما يحيلنا دون تردّد للاستسلام.

ومن المُشاع، عند الغرب أنّ الذّات العربيّة صورة طبق الأصل عن الإرهاب والعنف، الّذي لا يخرج عن دائرة الأحقاد الدّينيّة المبنيّة على إسقاط معالم الهُويّة العربيّة كترسيخ لحضورها التّاريخي، لكن وللأسف نجد الآخر الغربي يلصق بها عددا لا يُحصى من الضّمائر الغائبة بغرض سلب حُضورها وإضعافه الإحكام قبضته عليها.

في هذا السّياق، تقول النّاقدة ماجدة حمّود: "إنّ دراسة هذه الإشكاليّة تُتيح لنا فهم خصوصيّة الأنا الّتي تتشوّه حين تقوم على تعظيم الذّات، وتنطلق من نظرة واحدة إقصائيّة،

---

* الجذرنة: مأخوذة من الجذر؛ أي الأصل.

[1] إبراهيم خليل الشّبلي: الذّات والآخر في الرّواية السّوريّة، دار فضاءات للنّشر والتّوزيع، سوريا، ط1، 2019م. ص:111.

[2] جورج طرابيشي: شرق وغرب رجولة وأنوثة (دراسة في أزمة الجنس والحضارة في الرّواية العربيّة)، دار الطّليعة للطّباعة والنّشر، بيروت– لبنان، ط1، 1977م. ص:06.

الفصل الأوّل: الذّات والهويّة: المَاهِية والتَّمَظهُرات في الخِطاب الرّوائي العربي

تحتقر كلّ من يختلف معها، مِثلما تُتيح لنا فهم خصوصيّة الآخر المختلف، الّذي يبدو ديمقراطيّا في حياته الخاصّة وفي إبداعه الرّوائي، لكنّه في ممارسته السّياسيّة يقهر المختلف عنه، خاصّة العربي المسلم ويصُبّه في قالب واحد(الإرهاب، الكسل، القذارة، اضطهاد المرأة...الخ)"[1].

نفهم من كلّ هذا، أنّ علاقة الذّات بآخرها غير ثابتة، حيث إنها تكشف تصوّرات الذّات الغربيّة لنظيرتها العربيّة المُنطلقة من ثقافة سياسيّة مُتمايزة واتّهامات خطيرة تصُبّ في قالب الإرهاب والعُنف.

وما هذه، إلّا وُجهة نظر مبنيّة على أساس التّفاوت، لكنّها حقيقة الذّات العربيّة مع آخرها الغربي.

من هُنا، يقول عبد اللّه الغذّامي: "يَتَقَبّل الإنسان كلّ ما هُو أجنبي وغرائِبي، إلّا إذا كان إنسانًا آخرا، وهذا هُو ما تفعله لُعبة الهويّات والّتي تُثْبِتُ دوما قُدرتها على تحويل التّعارف إلى تناكر والتّقارب إلى تخالُف"[2].

وهكذا، وُسِمت العلاقة بين الذّات والآخر الّتي اتّخذت من التّنافر المُسْتمرّ سبيلا لها، حيث جعلته شبيها لحدٍّ كبير متاهة الهُويّات محلَّ الصّراع والتّناكُر بدلًا من التّقارُب.

ومنه، يُصبح الإنسان شخصا آخر عاكسا بذلك رفضهُ المُطلق لمتاهة الهُويّات، الّتي عُدّت حمولة من الاختلافات بين الذّات والآخر.

في حِين، يرى حسن شحاتة أنّه: "لا يُمكن اختزال العلاقة مع الغير في علاقة معرفيّة من أيِّ نوع، إنَّ العلاقة مع الغير يُمكن أنْ تكون علاقة قيميّة تحكُمها ضوابط أخلاقيّة

---

[1] ماجدة محمود: إشكاليّة الأنا والآخر (نماذج روائيّة عربيّة)، المجلس الوطني للثّقافة والفنون والآداب، الكويت، دط، 2013م. ص:09.

[2] عبد اللّه الغذّامي: القبيلة والقبائليّة أو هويّات ما بعد الحداثة، المركز الثّقافي العربي، الدّار البيضاء– المغرب، ط2، 2009م. ص:47.

الفصل الأوّل: الذّات والهويّة: المَاهِية والتَّمَظهُرات في الخِطاب الرّوائي العربي

كالأنانيّة، والغيريّة والظُّلم والتّسامح"[1]، نفهم من ذلك، أنّ العلاقة مع الآخر كمُختلف عن الذّات تحكُمها مجموعة من الضّوابط الأخلاقيّة كالأنانيّة والظّلم والتّسامح، وبهذا تتحدّد ملامح علاقة الذّات بالآخر.

تشكّلت علاقة الذّات العربيّة مع الآخر الغربي في ظِلّ الصّراعات الرّاهِنة، الّتي جعلتِ الواقع العربي مليئا بمشاكل الذّات والهُويّة.

بيدَ أنّ الرّوائي العربي لمْ يتوقّف عن عمليّة الكتابة، إذْ وظّف قصصا من أرض الواقع نقلا للحقيقة المزرية، الّتي يعيشها الفرد العربي من تهميش واقتلاع للذّات والهُويّة وقتل واغتصاب للأرض.

هذا ما رَسمته أبعاد العلاقة المُضْطربة بين الذّات والآخر، الّتي لمْ تخرج عن دائرة الصّراع والتّأزّم كواقع الذّات العربيّة مع آخرها المُختلف عنها.

يقول حسن شحاتة إنّ: "الحِوار الّذي نُنْشِدُه يبدأ بحوار نقدي مع الذّات يكون الآخر بِضرب من الحُضور الخفيّ طرفا فيه، ولو على جهة الشّهادة وعلى هذا النّحو يتحوّل الآخر بفعل إرادتي إلى ما يُشبه الحكم بيني وبين ذاتي، يُبيّن لي الحدّ الّذي عِنده يحِقُّ لي أنْ أكون أنا بالذّات دون أنْ أمُسَّ حُدوده، جاعِلا من احترام تلك الحُدود علامة أكيدة على تلاقٍ مُمكن وضَروري، ومِنْ حُسن الطّالع أنّها حُدود كثيرة المنافذ لا تَحول دون أنْ تَخْترِقني حقيقة هذا الآخر كُلّما أُتيح لها ذلك، كما يُطالب هو أيضا أنْ يرضى بأنْ تخترِقه حقيقتي أنا"[2].

وبهذا، يكون قبول الحِوار بين الذّات والآخر شيئًا تتحدّد من خلاله العلاقة بين الطَّرفين، انطلاقا من ثقافة السلام وقبول الآخر واحترامه شرْطَ ألّا يَمَسّ كِلا الطّرفين حُدود الآخر، ومن هُنا يحصُل الاختِراق والتّقييد لحُريّة الآخر.

---

[1] حسن شحاتة: الذّات والآخر في الشّرق والغرب صور ودلالات وإشكاليّات، دار العالم العربي، القاهرة، ط1، 2008م. ص:21.

[2] حسن شحاتة: الذّات والآخر في الشّرق والغرب صور ودلالات وإشكاليّات، ص:176.

الفصل الأوّل: الذّات والهويّة: المَاهِية والتَّمَظهُرات في الخِطاب الرّوائي العربي

يُضيف حسن شحاتة قائلا: "إنّه إذا ما كلّفنا أنفُسنا الجُهد الّذي لا مناصَ منه لمعرفة منْ هُو الآخر وما هي آراؤه أمكَنَ لنا أنْ نتماهى معه، وبالتّالي لنْ نجِد في أنفسنا تلك العُدوانيّة الّتي كان يُمكن أنْ تَجُرَّنا إلى إقْصائه"[1].

بذلك نُفسّر دلالة العلاقة بين الذّات والآخر، الّتي لا بُدّ لها الانطلاق من معرِفة حدوده كآخر؛ ومن هنا، نتجنّب الوُقوع في مشاكل معه وتَقِلُّ نظرتنا العُدوانيّة حِيَالَهُ.

يُضيف حسن شحاتة: "إنَّني أَنْهضُ بوُجود الآخر كَيْ أكون موجودا، وأنتمي إلى حضارة العفو والتّسامُح والمُساواة"[2]، نفهم بذلك أنَّ وُجود الآخر ضَروري بحياتنا، فهو من يُحدّدنا كموجودين على أرض الواقع.

تجلّت حقيقة الآخر انطلاقا من إدراكِ الذّات حَوله، بَيْدَ إنّ الذّات العربيّة تُعاني في صمت من أساليبه العُدوانيّة، ما انعكس بالسّلب على واقعها كحُضور تَشُوبه النَّواقِصُ، ما يُفسّر حقيقة الذّات العربيّة المُصابة بنُكوص الهُويّة.

من هُنا، حملت الرّواية العربيّة أبعادَ الحُضور المُضْطَرب للذّات العربيّة مع آخرها المُحْتلِّ تارة، والمُغتَصِب لملامح رسوخها تارة أخرى.

2- حول الهُويّة:

2-1/ ماهية الهُويّة:

قبل التّطرُّق لتفاصيل تتعلق بالهُويّة علينا أوّلا تتبُّع التّعاريف الوارِدة لها بالقواميس الأجنبيّة، منها ما ورد في القاموس الفرنسي لاروس، فقد حملت معنَيَيْنِ هُما: الانتماء للنّفس والجماعة(L'identitè):" Nf. Caractère de ce qui est identique , caractère permanent et fondamental d'une personne, d'un groupe :crise

[1] المرجع نفسه، الصّفحة نفسها.

[2] المرجع نفسه، ص:182.

الفصل الأوّل: الذّات والهويّة: المَاهِية والتَّمَظهُرات في الخِطاب الرّوائي العربي

d'identité, signalement exact d'une personne :vérifier l'identité de quelqu'un"[1]؛ وتعني مُقوّمات الحُضور الفردي ضمن نطاق الجماعة، الّتي لها العناصر الجِذْريّة نفسها.

أمّا بالنّسبة لمعناها باللّغة الإنجليزيّة (الهُويّة/Identity) فقد جاء فيه:" Identity the extended use of identity as a reflexive verb in the sense of to associate oneself"[2]؛ وتعني ارتِباط المرء بنفسه؛ أي الانتماء للذّات الفرديّة والجماعيّة، كما تحمل معنى الجوهر الإنساني.

حملت الهُويّة في القواميس الغربيّة معنى الانتماء للجوهر الذّاتي والجماعة، الّتي لها مقوّمات الحُضور الواقِعي نفسه.

أمّا من النّاحية الاصطلاحيّة فكان لها عديد المعاني كالوجود وإدراك النّفس الجوهريّة والانتماء للجماعة والمُحيط، وغيرها من المعاني الدّالّة على الانتماء.

ومنه، تُعدّ الهويّة من المفاهيم الزّئبقيّة التّعريف، أُعطِيَت لها ميزة الما بعد حداثيّة على الرّغم من تواجدها ضمن الخارطة المفاهيميّة الفلسفيّة القديمة، وعلى الرّغم من بساطة هذا المفهوم في ظاهره إلّا أنّه مفهوم صعب ومُعَقّد؛ وذلك لأنّه بالغ التّنوّع في دلالاته واصطلاحاته.[3]

من هذا المنطلق، يرى أرسطو (Aristote) أنّ معنى الهُويّة الوجود، حيث إنّ: "النّفس هي ضَرب من الكمال، وصورة لِما هُوَ بالقُوّة مُسْتعِدّ لقبول طبيعة مُعيّنة"[4]، ونفهم بذلك أنّ الهُويّة يُعنى بها النّفس ذات الدّلالات الدّاخليّة العميقة.

---

[1]dictionnaire Larousse de Français, Maury à Malesherbes en mars, 2010.p :211.

[2]H.W. Fowler: Dictionary of Oxford Fowler's modern English USAGE , Oxford University press, 1965. P :260.

[3]ينظر: إليكس ميكشيللي: الهويّة، ترجمة: علي وطفة، دار الوسيم للخدمات الطّباعيّة، دمشق، ط1، 1993م. ص:07.

[4]أرسطو: النّفس لأرسطو طاليس، ترجمة: أحمد فؤاد الأهواني، المركز القومي للتّرجمة، القاهرة، ط2، 2015م. ص:90.

الفصل الأوّل: الذّات والهويّة: المَاهِية والتَّمَظهُرات في الخِطاب الرّوائي العربي

هذا، ما ذهب إليه الفيلسوف سقراط (Sokrate)، حينما قال: "ابصري نفسك"[1]؛ أي اعرفي حقيقتك الّتي قصد بها الهُويّة الإنسانيّة.

كما لا نغفل عن رأي إيريك إيريكسون (Erik.H.Erikson)، الرّائد في موضوع أزمات الهُويّة حيث قال: "الهُويّة أنْ تكون موجودا"[2]، والمقصود بذلك الانتماء للجماعة ضِمن نطاق مُحيط مُعيّن.

حملت الهُويّة عند إيريكسون دلالات الحُضور ضمن الجماعة، فهي بالأساس عمليّة اجتماعيّة نفسيّة مُعقّدة؛ أي هي الخُضوع للرّاهن كون الإنسان فرد من المُجتمع.

على هذه الفكرة، يرى بول ريكور (Poul Ricoeur) أنّ الهويّة تعني العينيّة؛ أي الأنا الذّاتيّة، الّتي يعبّر عنها بأُفهوم العين الذّاتيّة، أو العينيّة، والظّاهر أنّ: الهويّة هي العينيّة وليست الذّاتيّة[3]؛ والمراد بالعينيّة هنا الأنا الدّاخليّة، وما تشتمل عليه من عناصر رسوخيّة.

يُحيلنا الحديث أعلاه إلى العودة لإيريكسون الّذي يُوضّح دلالات الشّعور بالهويّة الّتي تُفقد دون وجود آخر يشاركنا المكان، قائلا إنّ: "الشّعور السّليم بالهويّة التّعبير عن الإحساس بالمشاركة، الإحساس بالشّعور بالتّجذّر"[4]، من ذلك نفهم أنّ، الإحساس بالمُشاركة مع الآخر نابع من شعورنا بالانتماء له وللمكان من ناحية الرّسوخ، وهنا تكون الهُويّة حاضرة مع الفرد.

---

[1] جان فرانسوا ماركيه: مرايا الهويّة(الأدب المسكون بالفلسفة)، ترجمة: كميل داغر، المنظّمة العربيّة للتّرجمة، بيروت، ط1، 2005م. ص:15. نقلا عن:

Jacques lacan, Le stade du miroir comme formateur de la fonction du je, p:93-100.

[2] Erik H. Erikson's, Edentity Youth and Crisis, printed in the United states, America, 1968. P :24.

[3] ينظر: بول ريكور: الذّات عينها كآخر، ص:253.

[4] بيتر كوزن: البحث عن الهويّة وتشتّتها (الهويّة وتشتّتها في حياة إيريك إيريكسون وأعماله)، ترجمة: سامر جميل رضوان، دار الكتاب الجامعي، العين- دولة الإمارات العربيّة المتّحدة، ط1، 2010م. ص:10.

الفصل الأوّل: الذّات والهويّة: المَاهِية والتَّمَظهُرات في الخِطاب الرّوائي العربي

حوصلة لما جاء في التّعريف الاصطلاحي للهويّة من منظور غربي، نراها تعني؛ الأنا الدّاخليّة بما تشتمل عليه من عناصر تُثبت حضور الفرد مع ذاته وغيره، كما تدلّ على النّفس والإحساس بالانتماء من منطلق الحقيقة.

نَصِل الآن، إلى التّعرّف عن الهويّة في الدّراسات العربيّة إذْ وَرَدَت عِدّة تعاريف لها، نُورِد بعضا منها:

يُشير مُصطلح (الهُويّة) المَأخوذ من الفعل الثّلاثي (هَوى) "بالفتح، يَهْوِي هَوِيًّا وهُوِيًّا وانْهَوَى: سقط من فوق إلى أسفل، وأَهْواهُ هُو. يُقال: أَهْوَيْتُه إذا أَلْقَيْتُهُ من فوق"[1]، فمعنى الهويّة يتمحور حول السّقوط من مكان أعلى إلى أسفل.

وقد أشار الفيروز آبادي (ت 817هـ) إلى المعنى نفسه، فقال: "الهُوَّةُ، كقُوَّةٍ: ما انْهَبَطَ من الأرض، أو الوَهْدَ: الغامضة منها(...) وَهَوَيانًا من عُلوٍّ إلى أسفل"[2].

عِلاوة على هذا، فالمُتَتَبّع لمسار لفظ الهويّة في المعاجم العربيّة، يَلْحَظُ أنّها صارت مُرادفة للهَوَى والتّعلُّق بالشَّيء، إذْ يقول ابن منظور في موضِعٍ آخر من معجمه: "وَالْهَوَىْ مقصور: هَوَىْ النَّفْس(...) قال اللُّغَوِيّون الهَوَى مَحَبَّةُ الإنسان الشّيء وغلبته على قلبه (...) وهذا الشّيء أَهْوَى إلَيَّ مِنْ كذا أَيْ أَحَبُّ إلَيَّ"[3].

وإلى هذا المعنى أيضًا، ذَهب أصْحاب المعجم الوسيط عندما قالوا: "حقيقة الشّيء أو الشّخص الّتي تُمَيّزُه عن غيره"[4].

---

[1] ابن منظور: لسان العرب، (مادّة هَوَى)، ج15، ص:115.

[2] مجد الدّين محمّد بن يعقوب الفيروز آبادي: القاموس المُحيط، تحقيق: أنس محمّد الشّامي وزكريا جابر أحمد، (مادّة هَوَوَ)، دار الحديث، القاهرة، دط، 1429هـ-2008م. ص:1718.

[3] ابن منظور: لسان العرب، (مادّة هَوَى).ص: 115-116.

[4] إبراهيم مصطفى وآخرون: المعجم الوسيط، (مادّة هَوِيَ).ص:1040.

الفصل الأوّل: الذّات والهويّة: المَاهِية والتَّمَظهُرات في الخِطاب الرّوائي العربي

وجاء تعريفها في المعجم المعاصر "هَوِ [مفرد]: مؤنّث هُويّة صفة مشبّهة تدُلُّ على الثّبوت من هَوِيَ"[1]، وكتعقيب على ذلك فإنّ معنى الهُويّة يدلّ على الثّبوتيّة؛ أي الرّسوخ مع الذّات والغير ضمن محيط.

وهكذا، نَنْتهي من الحديث عن مفهوم الهويّة أنَّ اشتقاقاتُها كثيرة وفيما رأيْنا أنّها تُؤدّي مفاد مَحَبّةِ الإنسان الشّيء وغَلَبَتُهُ على قلبِهِ، أو حقيقة الشّيء أو الشّخص الّتي تُمَيّزُه عن غيره.

على هذا المنوال، نضيف معنى الهويّة بناء على ما جاء به، معجم علم النّفس والتّحليل النّفسي، الّذي يرى أنّ: "الهُويّة هي وحدة الأنا (الذّات) وأساسها، فهُويّة الأنا Ego Identity؛ تعني ذلك الإحساس بأنّي أنا هو أنا في كافّة الأحوال والأزمنة وهي في الآن نفسه ما تتميّز الأنا عن غيرها من الأنوات، فالهُويّة كمبدأ فلسفي تُعبّر عن ضرورة منطقيّة بعينها تؤكّد أنّ الموجود هو ذاته دوما لا يلتبس به ما ليس منه فهو عين ذاته(...) فالشّخص هُوَ هُوَ"[2]. والمعنى المراد بالهويّة هو الأنا الذّاتيّة كوحدة استعلائيّة للأنا نُدرك بواسطتها الحقيقة، ومن هذا المنطلق نستطيع أن نرى في حقيقة الشّيء.

يُسْتخلص ممّا تقدّم، أنّ التّعريف اللّغوي للهويّة لمْ يَخرج عن معاني الجذرنة، كما أنّها تُعبّر عن حقيقة الذّات الإنسانيّة كحضور ذاتي وراهني.

أمّا من النّاحية الاصطلاحيّة، فحملت الهويّة المعاني الآتية: إثبات الذّات والانتماء للأصل، والحضور مع الغير داخل حيّز مكاني معيّن، ونحن بذلك لا نُنكر جهود الفلاسفة والمفكّرين في وقت خلى؛ بل نأخذ جهودهم بعين الاعتبار، على ذلك يقول ابن سينا: "تأمّل أيّها العاقل أنّك اليوم في نفسك هو الّذي كان موجودا جميع عمرك (...) فإنّ جوهر النّفس غائب عن الحواس والأوهام فمن تحقّق عنده هذا البرهان وتصوّره في نفسه تصوّرا حقيقيّا

---

[1] أحمد مختار عمر: معجم اللّغة العربيّة المعاصرة، ص:2379.

[2] فرج عبد القادر طه وآخرون: معجم علم النّفس والتّحليل النّفسي، دار النّهضة العربيّة للطّباعة والنّشر، بيروت، ط1، دت. ص:479.

الفصل الأوّل: الذّات والهويّة: المَاهِية والتَّمَظهُرات في الخِطاب الرّوائي العربي

فقد أدرك ما غاب عن غيره"[1]، لذلك فإنّ الهُويّة عند ابن سينا هو الفرد المُدرِك لنفسه، بهذا تكون النّفس أساسا في بناء حقيقة الإنسان من ناحية إثبات حُضوره الواقعي.

نواصل حلقة التعريفات لمصطلح الهوية، فقد ورد عن الفيلسوف والمفكّر العربي صلاح فليفل الجابري أنّ: الهُويّة تُثبت من خلال وجود الذّات؛ حيث يقول: "يجبُ التّنويه بأنّ ديكارت يُثبت وجود النّفس من خلال فعل من أفعالها"[2]، واضح ممّا تقدّم أنّ: حقيقة النّفس البشريّة(الأنا)، لا تتحقّق بمعزل عن الفرد عينه كإثبات لحضورها، وبهذا الصّدد نجد أنّ فيلسوفنا العربي قد استمدّ رؤياه بناء على الفكر الغربي؛ حيث تبنّى آراء وأفكار الكوجيتو ديكارت، من ذلك كانت الهويّة عند الجابري عبارة عن إدراكاتنا لحقيقتنا الذّاتيّة.

على هذه الشّاكلة، يرى فتحي المسكيني أنّ الهُويّة ما هي إلّا كسر لأفق توقّع الآخر؛ حيث إنّها تحمل في داخلها ضربات موجعة له، وهذه الضّربات لها علاقة بالتّاريخ والأصالة، لذلك قال: "ليس ثمّة هُويّة صامتة، كلّ هويّة هي رغبة مريعة في الكلام عن النّفس، لكنّ النّفس ليست دائما أفضل ما لدينا، ولذلك تمتلك جميع الهويّات قدرة داخليّة على الإساءة؛ نعني كميّة اللاهوتية أو عدم الهويّة الّذي تنطوي عليه سلفا، عدم الهويّة يعني كلّ إمكانيّات الآخر الّتي فينا"[3].

يتّضح من ذلك، أنّ النّفس هي المعنى المراد من الهويّة؛ إذْ لا تنطلق الهويّة من فراغ؛ بل ترتكز على الذّات الواعية، ثّم تكون الهُويّة وفقا لمبدأ حضور الذّات، وبذلك عُدّت الهُويّة عند فتحي المسكيني بمثابة صورة النّفس داخل المرآة، وهذا بالطّبع ما يُفسّر وجود الهويّة الفرديّة ضمن حدود الآخر.

---

[1] الحسين بن عبد اللّه بن الحسن بن علي بن سينا البلخي: رسالة في معرفة النّفس النّاطقة وأحوالها، وكالة الصّحافة العربيّة ناشرون، مصر، دط، 2019م. ص:07-08.

[2] صلاح فليفل الجابري: فلسفة العقل(التّكامل العلمي والميتافيزيقي)، دار الفارابي للنّشر والتّوزيع، بيروت- لبنان، ط1، 2012م. ص:15.

[3] فتحي المسكيني: الهجرة إلى الإنسانيّة، منشورات ضفاف، بيروت، ط1، 2016م. ص:23.

الفصل الأوّل: الذّات والهويّة: المَاهِية والتَّمَظهُرات في الخِطاب الرّوائي العربي

يُضِيف المسكيني تعقيبا آخر، فيقول: "نحن لا نشعر بهويّتنا إلّا بقدر ما نرى أنفسنا، يعني ليس لنا من هُويّة إلّا بقدر ما نرى وجوهنا، إنّ هُويّتنا هي وهجيتنا"[1]، ومنه، فالهُويّة عند فتحي المسكيني مرآة للذّات وصورة مُلتقطة للنّفس الأصليّة في ظلّ العلاقة مع الغير(الآخر)، كما تعني: "الانتماء الجِذري إلى النّوع الإنساني ممّا يجعله مسؤولا مسؤوليّة فضيعة عن مصيره"[2].

وهكذا، كانت الهويّة عند فتحي المسكيني تعبيرا عن الإنتماء الجذري، والشّعور بها يوحي بإدراكنا لحقيقتنا الأصليّة.

من ذلك، توصّل فتحي المسكيني إلى نتيجة مفادها أنّ الفلاسفة العرب القُدامى حصروا الهويّة في معنى النّفس الإنسانيّة، فهي حقيقة وجود الفرد: "انزلاق العرب المعاصرين في استخدام لفظة هُويّة من معناها الأنطولوجي لدى الكِندي أو الفارابي أو ابن سينا أو ابن رشد، إلى دلالتها الأنثروبولوجيّة والثّقافيّة الرّاهنة هو ليس خطأ اصطلاحيّا أو استعمالا اعتباطيّا؛ بل هو يستجيب إلى نفس الدّاعي"[3].

على هذا النّحو، لا يخرج مفهوم الهُويّة عن حدودها المفاهيميّة الأولى كمبدأ ثابت؛ حيث نجد أنّ: جلّ الفلاسفة والمفكّرين العرب وغيرهم من اتّخذوا من النّفس، أو الذّات، أو الأنا، حقيقة لوجود جذرنة للهويّة.

من هذا المنطلق، يرى إدوارد سعيد كمفكّر وناقد عربي مُتعدّد الهُويّات(فلسطيني/أمريكي)، أنّ معنى الهويّة لا ينطلق من فراغ؛ بل هو اليقين بوجود الذّات الحرّة الفرديّة، ومن هنا تكون الهويّة ماثلة وحاضرة للرّاهن المتقلّب، ويشير إلى هذا بقوله: "قلق الهويّة نحو الهُجنة الثّقافيّة.. والهويّة؟ قلتُ، فقال: دفاع عن الذّات... إنّ الهويّة بنت

---

[1] المرجع نفسه، ص:24.

[2] فتحي المسكيني: الهويّة والحريّة نحو أنوار جديدة، جداول للنّشر والتّوزيع، بيروت– لبنان، ط1، 2011م. ص:10.

[3] فتحي المسكيني:الهُويّة والزّمان(تأويلات فينومينولوجيّة لمسألة النّحن)، دار الطّليعة للطّباعة والنّشر، بيروت، ط1، 2001م. ص:11.

الفصل الأوّل: الذّات والهويّة: المَاهِية والتَّمَظهُرات في الخِطاب الرّوائي العربي

الولادة، لكنّها في النّهاية إبداع صاحبها، لا وراثة ماض، أنا المتعدّد..في داخلي خارجي المتجدّد، لكنّني أنتمي لسؤال الضّحيّة(...) فاحمل بلادك أنّى ذهبتَ"[1].

حيث نرى؛ أنّ التّشبّث بالهوية كروح للجَذرنة وإثباتاتها عند إدوارد سعيد، الّذي يُضيف على ما قاله عن فلسطين كهُويّة غائبة: "لفقدان فلسطين، كما لفلسطين نفسها،(...) وإن كان لفلسطين بالنّسبة للفلسطينيّين وجود داخلي راسخ، فذلك بسبب شعورهم منذ مولدهم بمولد تاريخهم فيها"[2].

من هذه الزّاوية، يتحدّد معنى الهُويّة عند إدوارد سعيد الّذي ربطها بقداسة الأرض والمكان، ومن هنا انطلق من ناحية الوصول لجوهر المعرفة(الذّات الأصليّة)؛ أي الانتماء للوطن الحقيقي، الّذي منه تُدرك الهُويّة حقيقة ثابتة راسخة: "مرّت فترة هي العقد المباشر بعد عام 1948م، حين كان الفلسطينيّون صامتين ومجهولين جوهريّا؛ أي أنّهم كانوا مُحطّمين تماما بخسارة مجتمعهم ودمارهم حتّى أنّهم كانوا في حالة من الفراغ تقريبا"[3]؛ ويقصد إدوارد سعيد بمعنى الجوهر(الأنا الفلسطينيّة)، لذلك عبّر عنها بالغياب القسري، فالشّعب الفلسطيني مجهول الهُويّة.

كما يرى محمّد عابد الجابري أنّ: الهُويّة تأصيل للعروبة والإسلام في شكل ثنائي ترابطي، وبهذا جعل معنى الهويّة لصيقا بالجذرنة العربيّة/الإسلاميّة، يقول: "فالثّنائيّة إذًا لم تكن ثنائيّة على صعيد الهُويّة؛ بل كانت على مستوى الأداة الّتي ينبغي تحريكها للدّفاع عن الهويّة وحمايتها"[4].

---

[1] صوريّة مكاحليّة: قلق الهُويّة في خطاب إدوارد سعيد– خارج المكان وتأمّلات حول المنفى، مجلّة آفاق علميّة، جامعة العربي التّبسّي، تبسّة، الجزائر، 2019م. ع:01، م:11، ص:530.

[2] إدوارد سعيد: الإسلام والغرب، دار كنعان للدّراسات والنّشر والخدمات الإعلاميّة، دب، ط1، 2014م. ص:53-54.

[3] إدوارد سعيد: القلم والسّيف، ترجمة: توفيق الأسدي، دار كنعان للدّراسات والنّشر، دمشق، ط1، 1998م. ص:22.

[4] محمّد عابد الجابري: مسألة الهُويّة العروبة والإسلام...والغرب، ص:43.

بهذا المعنى؛ حملت الهويّة معنى الجذرنة أو الجوهريّة، فمحمّد عابد الجابري أراد مُكاشفة حقيقة الهوية العربيّة الغائبة، وعليه فإنّ: "الشّبع من الذّات الحاجة إلى تأكيد الذّات والدّخول في التّاريخ من جهة، والشّعور بالقصور الذّاتي والعجز التّاريخي من جهة أخرى"[1].

ففي حديث الجابري مسح للغبار حول معنى الهُويّة؛ حيث جرّدها من ثوبها الانقسامي بين الحضور والغياب.

ومن ذلك يُضيف: "حقيقة افتقار الذّات العربيّة إلى الاستقلال التّاريخي، ونحن عندما نقول الذّات العربيّة نقصد الفكر العربي والوعي الّذي يُؤسّس هذا الفكر، وافتقار الفكر العربي إلى الاستقلال التّاريخي"[2]، ومنه عُدّ التّاريخ بصمة الهُويّة العربيّة، وهذا بالتّحديد ما أراده الجابري إثبات الذّات العربيّة بمعزل عن التباساتها بالآخر.

2-2/ عناصر الهُويّة:

تَتبني الهويّة على مكوّنات جوهريّة، بدافع ترسيخ الذّات مع نفسها وغيرها ضمن حدود وطن معترف به دُوليّا، وبهذا تتمظهر صورة الإنسان مع آخر يبخسه أحقيّة المشاركة والحضور، والملاحظ من ذلك كلّه أنّ للرّاهن الدّور الفاعل في ترسيخها أو نفيها، ومنه برزت عديد العناصر (كاللّغة، الدّين، الأرض) مُرْتَكَزات للحضور، ومن هنا تتشكّل الهُويّة وتمتاز عن غيرها من الهُويّات الأخرى.

-أ- اللّغة:

تُعد اللّغة مكوّنا أساسيا في بنية الهُويّة، حيث تعكس انتماء الإنسان لمحيطه، يقول مختار الغوث: "اللّغة هُويّة"[3]، يُفهم من ذلك أنّ الهُويّة لا تتحقّق إلّا بواسطة اللّغة، كعنصر ترسيخ يُفصح عن انتماءات الأفراد.

---

[1] المرجع نفسه، ص:63.

[2] محمّد عابد الجابري: إشكاليّة الفكر العربي المعاصر، مركز دراسات الوحدة العربيّة، بيروت- لبنان، ط2، 1990م. ص:57.

[3] مختار الغوث: الحرب الباردة على الكينونة العربيّة(1)، صوفيا للطّباعة، الكويت، ط2، 2021م. ص:15.

الفصل الأوّل: الذّات والهويّة: المَاهِية والتَّمَظهُرات في الخِطاب الرّوائي العربي

على ذلك، تكون اللغة بمثابة التّرسيخ للهُويّة منذ القديم؛ إذْ تُفصح عن معالم ثقافيّة حضاريّة ترتكز على التّاريخ كمكوّن ترسيخي، حيث لا تتحدّد إلّا عن طريق تضافر العناصر الّتي تسمح لها بالتّداول والاستمرار، فهي: "جزء من صناعة الهويّات"[1].

وعلى هذا الفهم، تتّضح تلك العلاقة بين تراكمات الهويّة الّتي لا تتجلّى حاضرة إلّا حينما تُصاحبها اللّغة كمُثبت حقيقيّ لها.

من هذا المنطلق، فإنّ للّغة العربيّة خصوصيّة تُثبتُ حضور الهويّة، مُفصحة بذلك عن حقيقة الرّسوخ: "فاللّغة منظورا إليها من زاوية الهويّة ليست مجرّد أداة تواصليّة محايدة وسلبيّة؛ بل هي كائن إيجابي وفاعل في إعادة إنتاج ذات الهُويّة"[2]، على هذا الأساس استطاعت اللّغة العربيّة توثيق تاريخ الأمّة وما تتبنى عليه من أقوال وأفعال(عادات وتقاليد)، الّتي قدّمت للهُويّة العربيّة ميزة سرد الواقع عبر مراحل الزّمن.

هكذا، نجد أنفسنا إزاء جدليّة يصعب حلّها أو الفصل فيها، انطلاقا من: "علاقة اللّغة بالهُويّة– علاقة معقّدة – وبالغة الحساسيّة، ويكمن جانب من حساسيّة هذه العلاقة في شكلها النّظري؛ فاللّغة ليست معادلا تماما لجنس الهُويّة ولا تستقلّ عنها؛ بل هي جزء منها وأهمّ مكوّناتها الدّيناميّة"[3].

فإذا ركّزنا في العلاقة بين اللّغة والهويّة لوجدناها تمتاز بالتّعقيد، كون اللّغة عبارة عن عنصر يندرج ضمنها، من بادئ: "اللّغة منظورا إليها من زاوية الهُويّة، ليست مجرّد أداة تواصليّة محايدة وسلبيّة؛ بل هي كائن إيجابي وفاعل في إعادة إنتاج ذات الهويّة"[4].

---

[1] رمزي منير بعلبكي وآخرون: اللّغة والهُويّة في الوطن العربي: إشكاليّات تاريخيّة وثقافيّة وسياسيّة، المركز العربي للأبحاث ودراسة السّياسات، بيروت، ط1، 2013م. ص:13.

[2] بسّام بركة وآخرون: اللّغة والهُويّة في الوطن (إشكاليّات التّعليم والتّرجمة والمصطلح)، المركز العربي للأبحاث ودراسات السّياسات، بيروت، ط1، 2013م. ص:31.

[3] رمزي منير بعلبكي وآخرون: اللّغة والهُويّة في الوطن العربي: إشكاليّات تاريخيّة وثقافيّة وسياسيّة، ص:52.

[4] المرجع نفسه، الصّفحة نفسها.

الفصل الأوّل: الذّات والهويّة: المَاهِية والتَّمَظهُرات في الخِطاب الرّوائي العربي

ولعلّ تبنّي فكرة اللّغة وسيلة تواصل بين الأفراد ضمن محيط الجماعة لا يكفي؛ إذْ نجدها مُجاوزة لحدود التّواصل إلى أبعد من ذلك، فانصبّ اهتمامها على إحياء الهُويّة وإخراجها من حيّز الاندثار.

في ذلك، يقول النّاقد عبد السّلام المسدّي: "إذا خطر لك أنْ تبحث عن موضوع من مواضيع الجدل والمخاصمة ظلّ حاضرا في كلّ منعطفات الحضارة العربيّة الإسلاميّة، أو عن قضيّة هي من أشدّ القضايا احتدادا وأقواها تأليبا واحتشادا، فاعلم أنّه موضوع اللّغة العربيّة في مدى صلاحها أو بقائها أو امتلاكها لأسباب المناعة الّتي تقيها ذهاب الرّسم وشبح الاندثار؛ وهذا يعني أنّ للّغة العربيّة عند أهاليها وأكثر؛ لأنّ حماية اللّغة في تاريخنا لم يكن يقلّ شأنا عن حماية الأرض (...) وعن حماية الذّات الجماعيّة حتّى أوشكت اللّغة أنْ تتماهى والهُويّة"[1].

كلّ هذا الكلام، يدلّ على أنّ اللّغة العربيّة موضوع شائك وبالغ الأهميّة؛ إذْ لا يقلّ شأنا عن المواضيع الرّاهنيّة المثيرة للجدال(كحماية الأرض، والرّسوخ، والهويّة...)؛ فبالتّالي: أصبحت اللّغة العربيّة مماثلة للهويّة ومن أهمّ عناصرها الثّبوتيّة.

وبعد، إذا أمعنّا النّظر في هذه القضيّة لاستطعنا إدراك أنّ: "اللّغة الّتي هي الأداة الأولى والأهمّ في عمليّات التّواصل والاندماج داخل المجتمع، هي الأداة الأساس لتحديد الهويّة والتّعرّف على الذّات"[2]، وعليه نستطيع تحديد أهميّة اللّغة بالنّسبة للهُويّة؛ إذْ عُدّت بمثابة الأداة الّتي لا تتحدّد إلّا بواسطتها.

---

[1] عبد السّلام المسدّي: الهويّة العربيّة والأمن اللّغوي(دراسة وتوثيق)، المركز العربي للأبحاث ودراسات السّياسة، بيروت، ط1، 2014م. ص:25.

[2] بسّام بركة وآخرون: اللّغة والهُويّة في الوطن (إشكاليّات التّعليم والتّرجمة والمصطلح)، ص:31.

الفصل الأوّل: الذّات والهويّة: المَاهِية والتَّمَظهُرات في الخِطاب الرّوائي العربي

كلّ هذه الدّلالات تُثبتُ مكانة اللّغة العربيّة، الّتي كادت أنْ تكون هي المقوّم الأساس للهُويّة، وهذا ما حمله السّرد العربي على مرّ الزّمن، حيث: "تكمن أهميّة المحاولات التّأسيسيّة للسّرد العربي الحديث في قدرته على تطويع اللّغة وترويضها وتكييفها مع لغة الحياة"[1].

وفي ذلك، يقول النّاقد عبد اللّه الغذّامي: "في اللّغة كما هي الهويّة العربيّة الأكثر واقعيّة ودلالة، واللّغة عند العرب عامل جمع وتوحيد"[2]، واضح من هذا القول، إنّ اللّغة العربيّة الدّليل الوحيد على إثبات الهُويّة العربيّة وتمييزها عن غيرها من الهُويّات الأخرى؛ إذن هي عامل توحيد الإنسان العربي.

من هنا، تتّضح مكانة اللّغة؛ إذْ لا تعدو أنْ تكون ترسيخا للحياة عبر بلاغتها السّرديّة، ومثل هذه الحقيقة مُعترف بها، لذلك: "بدأ المثقّف سواء أكان مفكّرا أمْ روائيّا (...) يرفض قمع إرادة التّغيير وعرقلة أيّ محاولة لاختراق الحواجز العقائديّة والعرقيّة الّتي تُقيمها الأنا؛ لأنّ الذّات الخائفة من الامّحاء، تزداد تقوقعا على نفسها ورفضا للآخر، لكنّ المثقّف الحقيقي يتجاوز هذه الرّؤية المغلقة، ويبتعد عن التّعامل مع مكوّنات هويّته القوميّة بصفتها جوهرا ما ورائيّا"[3].

نفهم من ذلك؛ أنّ على المثقّف العربي الحفاظ على مقوّماته الجذريّة كترسيخ للهويّة، شرط ألّا ينغلق على ذاته فيسقط في تكراريّة النّصّ؛ أي أن يُصبح نصّه الإبداعي اجترارا للثّقافة المحليّة لا غير، لذلك وجب عليه الاحتفاظ بمقوّماته الثّبوتيّة، دون الانحياز والانغلاق على ذاته؛ حيث إنّ العمليّة الإبداعيّة تتطلّب الانفتاح على الآخر قصد المثاقفة.

---

[1] عبد المجيد الحسيب: الرّواية العربيّة الجديدة وإشكاليّة اللّغة، عالم الكتب الحديث للنّشر والتّوزيع، إربد– الأردن، ط1، 2014م. ص:23.

[2] عبد اللّه الغذّامي: القبيلة والقبائليّة أو هويّات ما بعد الحداثة، ص:62.

[3] ماجدة حمّود: إشكاليّة الأنا والآخر (نماذج روائيّة عربيّة)، ص:16.

الفصل الأوّل: الذّات والهويّة: المَاهِية والتَّمَظهُرات في الخِطاب الرّوائي العربي

فبالنّظر، إلى ما تحمله اللّغة العربيّة من مكانة تأصيليّة، نلتمس هفوات المُثقّف العربي الّذي انزاح كليّا عن الاهتمام بها من بادرة مواكبة التّطوّر العالمي، حيث إنّ لغة الأقوى من تُمارس.

فالإنسان العربي كما نعلم ابن القبيلة مهما حدث تبقى لغته قِواما لحضوره، لذلك عُدّت اللّغة التّمثيل الرّئيس للهُويّة.

-ب- الدّين:

الدّين هو القانون الأعلى الّذي يُحدّد القواعد الأساسيّة لِتَشكّل دولة ما، يعْتبره الأفراد داخل هذه الدّولة مرجِعيّتهم وخلفيّتهم الّتي يتّكِئون عليها، فبالدّين تَنْتَظِم المُجتمعات وتسير وفق قواعده.

ونحن، كمسلمين انطلقنا من مبدأ التّشبّث بمعالم ديننا الحنيف كترسيخ لهويّتنا، وهذه مسألة شائكة يتخبّط فيها العالم العربي لحدّ السّاعة؛ حيث: "إنّ الدّين ككلّ يأتي ليكون أساسا للهُويّة الشّاملة للأمم الإسلاميّة، حيث يجمعهم الدّين وقت الإحساس بالتّحدّي، وفي زمن الشّدّة يُصبح الدّين الإسلامي عامل توحيد وهويّة رمزيّة ومعنويّة توحّد الكلّ"[1].

ممّا ينبغي الإشارة إليه، أنّ الدّين قضيّة المسلمين ككلّ؛ حيث لا يخرج من دائرة ترسيخ الهُويّة العربيّة الإسلاميّة، لذلك لا يمكننا الفصل بين الدّين الإسلامي كعامل لتوحيد الجماعات المسلمة والهُويّة، الّتي باتت تتمظهر في أجزاء تكاد تكون مكمّلة للأخرى.

يبدو جليّا أنّ هذه الحقيقة ثابتة، فهي ماثلة في كلّ زمان ومكان وقابلة للطّرح، وفي ذلك يقول حسن حنفي: "يؤدّي فقدان الهُويّة والتّوحّد مع النّفس (...) إلى أشكال عديدة من الاغتراب الدّيني"[2].

---

[1] عبد اللّه الغذّامي: القبيلة والقبائليّة أو هويّات ما بعد الحداثة، ص:62-63.

[2] حسن حنفي حسنين: الهويّة (مفاهيم ثقافيّة)، المجلس الأعلى للثّقافة، مصر- القاهرة، ط1، 2012م. ص:41.

الفصل الأوّل: الذّات والهويّة: المَاهِية والتَّمَظهُرات في الخِطاب الرّوائي العربي

إذن، نتبيّن من خلال النّصّ أنّ غياب الهُويّة يقود الإنسان حتما لظاهرة الاغتراب مع الدّين، وهذا راجع لتشتّت الفرد بين بحثه عن ذاته وهويّته، وبين دينه الّذي أصبح غريبا عنه.

على ذلك يقول محمّد عابد الجابري إنّ: "التّقابل بين العروبة والإسلام، الّذي أخذ يتبلور من خلال هذين الموقفين لم يكن تقابلا ماهويّا، فلم يكن الاختيار المطروح أن نختار العروبة، أو أن نختار الإسلام؛ بل كان: أيّ الآخرين؛ يجب أن نُقاوم أوّلا؛ وبالتّالي أيّ السّلاحين يجب أن نُحرّك في البداية سلاح العروبة أم سلاح الإسلام؟"[1].

لنا أن نرى، في هذا الطّرح ممايزة بين العروبة والإسلام؛ إذْ لا يمكننا الفصل أو السّبق بينهما، فكلاهما أسلحة إثبات للهُويّة، منه يضيف محمّد عابد الجابري: "إنّ مسألة العلاقة بين الدّين والدّولة يجب أنْ تُعالج على ضوء المعطيات الواقعيّة الخاصّة بكلّ بلد عربي على حدة"[2].

نعم، إنّها مسألة المُزاوجة بين الدّين والدّولة كحقيقة تُرسّخُ للهُويّة العربيّة، لكن حينما تختلط الوقائع داخل كلّ بلد عربي، يُصاب الفرد العربي بنوع من الاغتراب الدّيني، وهذا هو راهن العربي، منه: "لا بدّ من الانطلاق إذن من الحقيقة الواقعيّة الرّاهنة، وهي أنّ الوطن العربي ليس الآن بلدا واحدا، ليس مجتمعا واحدا (...) يجب أنْ ننظر إلى هذه المسألة على ضوء واقع كلّ بلد عربي على حدة، يجب أنْ نتجنّب تعميم المشاكل القطريّة تعميما يجعل منها مشاكل قوميّة ويجعل من الدّعوة إلى الوحدة العربيّة دعوة إلى نقل المشاكل من إطار الخاصّ إلى إطار العامّ"[3].

---

[1] محمّد عابد الجابري، مسألة الهُويّة العروبة والإسلام...والغرب، ص:42.

[2] محمّد عابد الجابري: الدّين والدّولة وتطبيق الشّريعة، مركز دراسات الوحدة العربيّة، بيروت– لبنان، ط1، 1996م. ص:98.

[3] محمّد عابد الجابري: الدّين والدّولة وتطبيق الشّريعة، ص:99.

الفصل الأوّل: الذّات والهويّة: المَاهِية والتَّمَظهُرات في الخِطاب الرّوائي العربي

تلك هي حقيقة الرّاهن العربي الّذي لا يخلو من الانقسامات الدّاخليّة والخارجيّة؛ حيث باتَ أَمْرُ الوحدة العربيّة يصعب تحقيقه وإنْ تحقّق يبقى مجرّد نقل للمشاكل من نطاقها الضّيّق إلى الأوسع.

والمثقّف العربي كغيره من المتأثّرين بتيّار الحضارة الغربيّة؛ تجِده منساقا وراءها متناسيا هُويّته ودينه ولغته، ومن ذلك يقول حسن حنفي: "الغرب مصدر العلم ونموذج الحداثة، وكان كذلك منذ فجر النّهضة العربيّة الحديثة، وكان وراء التّحديث في عصر إسماعيل* حتّى (مستقبل ثقافة مصر) لطه حسين فنشأ ردّ فعل عليه في التّمسّك بالهويّة، وظهر نموذج التّواصل مع الماضي بدلا من الانقطاع عنه كما فعل الغرب، وكتب توفيق الحكيم (عصفور من الشّرق)، وكتب محمّد الغزالي(ظلام من الغرب)"[1].

وبهذا تتّضح أبعاد تشبّث فئة من الكتّاب العرب بهويّتهم، الّتي أضحت في اندثار جرّاء المدّ الغربي، الّذي دفع بالعقول العربيّة الحياد عن أصلها.

هذا ما أفْصح عنه مصطفى الحسن الّذي رأى، أنّ: "الدّين في تصوّر المُهْتمّين بدراسة الظّاهرة الدّينيّة ينشأ من تلبية الإنسان لحاجاته الرّوحيّة في البحث عن معنى لهذا الوُجود، فيَبْني تصوّره الاعتقادي ثمّ يُعمّم هذا التّصوّر بدعوته إلى عقيدته، ثمّ يُنشئ الطّقوس الدّينيّة للاتّصال بالعالم الغيبي، وبهذا يتشكّل الدّين الجماعي، وكلّ هذا من إنشاء الإنسان"[2].

نفهم من ذلك، أنّ الدّين يتشكّل بدافع ذاتي محض، انطلاقا من تصوّرات يبنيها الإنسان لسدّ حاجاته الرّوحيّة بغرض البحث عن دلالات الوُجود.

يُضيف مصطفى الحسن، قائلا: "ما الحاجة إلى دراسة الظّاهرة الدّينيّة، إذا كان الدّين يُنتِجه الإنسان في محاولته تفسير الحقيقة، ممّا يعني أنّ الدّين ليس إلّا تصوّر الإنسان

---

*إسماعيل: يُقصد به الخِديوي إسماعيل باشا.

[1] حسن حنفي حسنين: الهويّة (مفاهيم ثقافيّة)، ص:33.

[2] مصطفى الحسن: الدّين والنّصّ والحقيقة قراءة تحليليّة في فكر محمّد أركون، الشّبكة العربيّة للأبحاث والنّشر، بيروت–لبنان، ط1، 2012م. ص:111.

الفصل الأوّل: الذّات والهويّة: المَاهِية والتَّمَظهُرات في الخِطاب الرّوائي العربي

للحقيقة؟ الجواب أنّ ذلك نابع من ملاحظة ارتباط الإنسان بالدّين عبر التّاريخ، فلم توجد لحظة تاريخيّة استطاع الإنسان أنْ يعيش فيها من دون دين، وظلّ الدّين صامدا حتّى في أقْسى الظّروف الّتي تعرّض لها، إضافة إلى كونه مُكوّنا رئيسيّا من مُكوّنات الثّقافة في كلّ العُصور"[1].

وهكذا، كان للدّين بُعدا تاريخيّا ساهم في تَوثيق العلاقة بينه والإنسان عبر مراحل الأزمِنة المُختَلِفة، هذا ما أعطاه ميزة الصّمود والثّبات برغم الظّروف المَعيشيّة القاسية، بهذا صار مُكوّنا رئيساً للثّقافة الجماعيّة في كلّ العُصور.

منْ ذلك، نرى أنّ الدّين أحد مقوّمات الحُضور الفردي والجماعي للإنسان ضمن مُحيط خاصٍّ، ونسْتَوْضِحُ ذلك من خلال تبنّي الكُتّاب لقضيّة الدّين ودلالاته بغرض إثبات حُضورهم.

-ج- الأرض:

تكشِف الأرض بما تحمله من دلالات للرّسوخ داخل المكان طبيعة العلاقة الثّنائيّة القائمة بين الإنسان والمُحيط، حيث تُحيلنا مباشرة لمسألة الانتماء للوطن، فالأرض تمظهرٌ رئيسٌ للهُويّة بالاستناد من مبدأ الإنسان لا ينطلق من فراغ.

من هنا، كان للأرض الدّور الحقيقي في تحديد معالم الهُويّة والتّجذّر، من معطى التّعمّق الجِذري: "فالأرض انعكاس هويّة الإنسان"[2]؛ ويفصح ذلك على أنّها أصل الانتماء للذّات والجماعة.

لكنّ، حقيقة تأصيل المكان منحت للهُويّة ارتكازيّة مُعمّقة، تستند في ظاهرها وباطنها على التّاريخ الّذي يُبرزها سيرورة حقيقيّة مُثبتة، على هذا الأساس يرى إدوارد سعيد أنّ:

---

[1] المرجع نفسه، ص:111-112.

[2] ريم العبيدلي: رمزيّة الأرض والهويّة، الوطن صوت المواطن العربي، نشر المقال في:2017/11/19م، على الرابط: https://www.al-watan.com

تم الاطلاع عليه يوم:2022/10/16م. على السّاعة: 15:11.

الفصل الأوّل: الذّات والهويّة: المَاهِية والتَّمَظهُرات في الخِطاب الرّوائي العربي

"المنفى هو أحد أكثر الأقدار مدعاة للكآبة، وفي أزمنة ما قبل العصر الحديث كان الابتعاد عقابا مُرعبا بصفة خاصّة؛ لأنّه لمْ يكُن يعني فقط أعواما يعيشها الإنسان تائها بدون هدف بعيدا عن الأُسرة والأماكن المألوفة؛ بل يعني أيضا أن يكون أشبه بمنبوذ دائم لا يشعر أبدا كأنّه بين أهله وخِلّانه لا يتّفق البتّة مع مُحيطه"[1].

تتحدّد صورة المكان لتُزيح اللّبس عن الهُويّة من مُنطلق الحضور والأُلفة؛ إذْ نرى أنّ الإنسان المُبْعد عن أرضه فاقد لذاته، فهو كالتّائه المتشظّي الّذي يعيش حالة اغتراب مستمرّة.

وهكذا، يتحوّل المكان عند الإنسان مِن المركَزيّة إلى دلالات الانتماء، في هذا المعنى يتحدّث عبد اللّه الغذّامي الّذي يعطي للدّين الإسلامي والمكان الأولويّة في ترسيخ الحُضور الفردي والجماعي للإنسان؛ حيث يقول إنّ: "الإسلام دين ومعنى كما أنّ القبيلة قيمة ثقافيّة واجتماعيّة"[2].

نفهم من ذلك، أنّ للدّين علاقة وثيقة بالأرض من ناحية التّمركُز داخل حيّز المكان، بدافع تثبيت الحُضور الفردي والجماعي لفئة مُعيّنة من البشر، هذا ما يجعل من القبيلة تنْظيما اجتماعيّا بأبعاد ثقافيّة واجتماعيّة مَحْضة، انطلاقا من مبدأ الارتكاز على الأرض الّتي لا تخْرُج عن إطار ترسيخ الذّات الفرديّة والجماعيّة عبر الأزمنة المُختلفة.

من هذا المنطلق، نرى أنّ الدّين وسيلة لتثبيت الهُويّة الّتي لا تخرج عن حيّز إثبات الحُضور الذّاتي والجماعي، وفيه يقول أبو عبد اللّه محمّد بن سعيد رسلان إنّ: "حُبَّ الوطن غريزة إنسانيّة، وكلُّ سويٍّ من البشر يُحِبُّ وطنه وينتمي إليه، ويُدافع عنه ومنْ لم يجِد في

---

[1] محمّد الشّحّات: سرديّات المنفى الرّواية العربيّة بعد عام 1967، أزمنة للنّشر والتّوزيع، عمان– الأردن، ط1، 2006م. ص:09.

[2] عبد اللّه الغذّامي: القبيلة والقبائليّة أو هويّات ما بعد الحداثة، ص:73.

الفصل الأوّل: الذّات والهويّة: المَاهِية والتَّمَظهُرات في الخِطاب الرّوائي العربي

نفسِه.. ومنْ لم يجدْ في قلبه.. مَنْ لم يجِد في ضميره وعَقْلِهِ حُبَّ وطنِه؛ فهُوَ شاذٌّ عنِ الإنسانيّة، مُنْحَرِفٌ عن الفِطرة السّوِيّة"[1].

تتجلّى علاقة الإنسان بالأرض من خلال تعلّقه بالوطن، الّذي يُوليه حُبّا من نوعٍ خاصّ بدلالة ترسيخ انتمائه، لذلك عُدَّ كلّ إنسان لا يُحبّ وطنه شاذًّا وخارِجا عن حُدود الإنسانيّة ومُنْحَرِفا عن الفِطرة السَّوِيّة.

هذا ما، جعل للمكان دلالة تتجلّى في التّمثيل الرّسوخي؛ إذْ أعطى للهُويّة علامة امتلاء ثبوتيّة تُحيل مباشرة للجِذريّة والتّمركز، في ذلك يقول يوسف القرضاوي: "إنّ ارتباط الإنسان بوطنه قويّ عميق، ولذا كان انتزاعه منه وإخراجه قسرا أشبه بنزع الظّفر من اللّحم، وهو أمر مُجرّم في كلّ الشّرائع والقوانين"[2].

كلّ هذا، يدلّ على حقيقة ارتباط الإنسان بأرضه مُسْتَقَرًّا ينتمي إليه، أمّا مسألة إخراجه القسري من الأرض فهو محرّم؛ إذْ يقود للاغتراب والوقوع في المشاكل.

الواقع أنّ، ديناميّة العيش وحدها من تفرض على الإنسان البقاء أو المغادرة، فالمكان مرتبط بكلّ شيء بالحقيقة وبالزّمان وبالذّكريات وبالهويّة، على ذلك يقول محمّد عابد الجابري: "إنّ البِنية المعرفيّة الخاصّة بالمرجعيّة التّراثيّة يجعلها العرب مفهوما ينتمي إلى الماضي أكثر من انتمائه لحاضر الإسلام في أيّ عصر من عصوره، تقدّم الأمور بصورة توحي بأنّ مفهوم المسلمين قد حلّ محلّ مفهوم العرب، قد تجاوزه واحتواه ليصبح وحده الحقيقة الحاضرة حضورا أبديّا، ذلك أنّ العرب باعتناقهم الإسلام يكونون قد عادوا إلى أصلهم..إلى جدّهم إبراهيم الّذي سمّاهم مسلمين"[3].

نفهم من ذلك؛ أنّ العودة للإسلام تعني العودة للأصل، كإدراك حقيقة الوجود والانتماء مهما تعدّدت الأزمنة.

---

[1] أبو عبد اللّه محمّد بن سعيد رسلان: مُتطلّبات الولاء والانتماء للوطن، ابن شهوان، دد، دط، دت. ص:10.

[2] يوسف القرضاوي: الوطن والمواطنة في ضوء الأصول العقديّة والمقاصد الشّرعيّة، دد، دط، دت. ص:08.

[3] محمّد عابد الجابري: مسألة الهُويّة العروبة والإسلام...والغرب، ص:29.

ومن ثمّة، تنفتح دلالة المكان فتُفصح عن طبيعة الانتماء الدّيني للإنسان وارتباطه الوثيق بالهُويّة، والعودة للأصل كمبدأ لتأصيل الحضور العربي.

2-3/ أنواع الهُويّة:

عُدّت الهُويّة مرتكزا للرّسوخ الفردي والجماعي للإنسان، إذْ أعطته شعورا بالانتماء والتّجذّر القومي، من ذلك انقسمت الهويّة لعدّة أنواع تشمل: القبيلة، القوميّة، العرقيّة، والإثنيّة كمحدّدات انتمائيّة لا غير.

1-2-3- الهُويّة القوميّة:

تُعدّ الهُويّة القوميّة ترسيخا للرّوابط الإنسانيّة، من بادِئ الانتماء للجماعة الّتي تُمَثِّلُنا ونَتشابه معها في بعضِ مُقَوّمات الهُويّة.

ومنه، حملت الهُويّة القوميّة عديد العناصر الرّابطة بين الأفراد، ضمن الجماعة البشريّة الواحِدة، إذْ: "تقوم على التّاريخ المُشترك والسُّلالة وأنْظِمة الاعتقاد والمُمارسات، واللّغة والدّين في حال ربط هذه الصّفات ربْطا رسْمِيّا بدولة قوميّة"[1]، ونفهم بذلك أنّ للتّاريخ والدّين واللّغة دورا رئيسا في تشكيل دوائر الانتماء لجماعة بشريّة مُعيّنة.

مِنْ ذلك، يقول عبد اللّه الغذّامي: "تأتي الهُويّات كمصدر لصِناعة الانتماء الفردي والجمعي"[2]، فمن هنا، شكّلت الهُويّات حُدود الانتماء الفردي والجَمعي، حيث عُدّت مصدرا لصِناعة اللُّحْمة بين أبناء القوميّة الواحِدة.

لذلك، عُدَّت القوميّة تَرْسيخا للرّابط العربي كأبناء جنس واحد، فالعرب منذ أفول التّاريخ تجمعهم هُويّة واحدة.

---

[1] عبد اللّه الغذّامي: القبيلة والقبائليّة أو هويّات ما بعد الحداثة، ص:53.

[2] المرجع نفسه، ص:55.

الفصل الأوّل: الذّات والهويّة: المَاهِية والتَّمَظهُرات في الخِطاب الرّوائي العربي

من هذا المنطلق، تتّضح ملامح القوميّة الّتي لا تعدو أن تكون: مفهوما تقدّميّا تنضوي تحته الدّيمقراطيّة كرابطة تجمع وتُوحّد المجتمع، بعيدا عن الانقسامات والتّشقّقات الهامشيّة[1]، من هنا تتكشّف دلالات الرّوابط القوميّة الّتي تدعو في ظاهرها إلى توحيد الأفراد داخل المجتمع، مُنافية بذلك الانقسامات الفئويّة النّاتجة عن الاختلاف العرقي.

من ذلك، انقسمت الهُويّة وتنوّعت حسب توجّهات الأفراد داخل المُجتمع الواحد، ومنه يرى علي خليفة أنّ: الهُويّة على مُستوى الفرد مجموع العناصر الّتي تُشكّل خُصوصيّة الفرد وتُميّزه عن غيره، وهي تتضمّن أوجُها وانتماءات متعدّدة، مثل: (العمر، والجنس أو النّوع الاجتماعي، والخلفيّة الطّبقيّة، والدّين، والثّقافة، والانتماء الوطني، واللّغة)[2]، ومنه، حدّدت خُصوصيّة الفرد امتيازاته عن غيره من الأفراد، حيث رسمت أبعاد انتمائه للجماعة.

بناءً على ذلك، حُدّد المجتمع العربي كهويّة واحدة منقسمة لعديد الهُويّات، على الرّغم من المصدر الوحيد والمُتمثّل في الهُويّة العربيّة المشتركة، وبالتالي، شكّل العرب أمّة مُجزّأة بهويّة واحدة[3].

فمهما اختلفت الأُمّة العربيّة والانتماءات القوميّة، إلّا أنّ الهُويّة العربيّة تبقى عينها، رغم الانقسامات المُجتمعيّة.

وما يُحيّرنا، كعرب هو التّساؤل عن هُويّتنا القوميّة، الّتي شابتها ثقوب الانقسامات الانتمائيّة، حيث إنّ: "السّؤال عن الهُويّة العربيّة يبقى مركزيّا في الفكر القومي العربي"[4]، ونفهم من ذلك، أنّ واقع الهُويّة العربيّة يزداد سوءا جرّاء الانقسامات الانتمائيّة، وهذا ما يُحدث تمزّقات في الهُويّة الأصليّة، وبالتّالي، تنهار الجذريّة القوميّة.

---

[1] ينظر: أحمد بعلبكي وآخرون: الهويّة وقضاياها في الوعي العربي المعاصر، مركز دراسات الوحدة العربيّة، بيروت–لبنان، ط1، 2013م. ص:90.

[2] ينظر: مجد الدّين خمش: المواطنة والهُويّة الوطنيّة في الأردن والوطن العربي، الآن ناشرون وموزّعون، دد، ط1، 2019م. ص:51.

[3] ينظر: أحمد بعلبكي وآخرون: الهويّة وقضاياها في الوعي العربي المعاصر، ص:58.

[4] المرجع نفسه، ص:15.

الفصل الأوّل: الذّات والهويّة: المَاهِية والتَّمَظهُرات في الخِطاب الرّوائي العربي

كما نلاحظ، أنّ: الأمّة العربيّة تقوم على مبدأ التّعدّديّة القوميّة، وفي هذا يُوضّح عفيف البوني: "لا شكّ في أنّ التّردّي الحاصل في الواقع العربي الرّاهن قد أفرز موجة من التّشكيك في النّفس؛ أعني التّشكيك في وُجود هُويّة قوميّة عربيّة واحدة، يشترك فيها سكّان الوطن العربي المُجزّأ، وحتّى الّذين سلّموا بضرورة الوحدة العربيّة السّياسيّة (بعد تجاهل طويل لم يكن مُبرّرا، وبعد عداء كان مُستحكما)، حتّى هؤلاء لم يُسلّموا- إلى الآن- بوحدة الهُويّة العربيّة"[1].

تُفصح القوميّة العربيّة عن ذلك النّتوء الحاصل داخل الرّاهن العربي، فقد صَوّرت لنا انطباعا ظاهرا لفقدان الهُويّة القوميّة العربيّة.

لذلك، اقترنت الهُويّة القوميّة العربيّة بالشّعور بالانتماء للأمّة؛ لأنّ "القوميّة العربيّة حقيقة نابعة من أعماق الذّات العربيّة، ومن تفكير كلّ عربي وشعوره أينما كان منزله، وهي تعبير عن شخصيّة الأمّة العربيّة في أمانيها وحاجاتها ومصالحها، وما هو قائم بين أبناء العروبة من أواصر التّاريخ والتّراث الثّقافي واللّغة الواحدة والمصير المشترك"[2].

يبدو أنّ، القوميّة العربيّة نابعة من الذّات كالشّعور بالانتماء، فهي رابط يجمع بين أبناء العروبة المُشتركين في التّاريخ والتّراث الثّقافي واللّغة والمصير الواحد.

في مقابل ذلك، تظهر أمامنا قضيّة انفكاك الأمّة العربيّة لأسباب سياسيّة، وهذا "ما نلمسه في ظلّ الانحسار السّياسي للمدّ القومي"[3]، وجاء هذا القول كتوضيح للحالة المُزرية الّتي مثّلت حصارا على الهُويّة القوميّة العربيّة؛ إذْ بات تحقيقها أمرا مُستحيلا.

---

[1] المرجع نفسه، ص:21.

[2] صالح خليل أبو أصبع: مرآة الزّمن قراءات في الثّقافة والأدب، دار البركة للنّشر والتّوزيع، الأردن، ط1، 2012م. ص:293.

[3] أحمد بعلبكي وآخرون: الهويّة وقضاياها في الوعي العربي المعاصر، ص:21-22.

وعليه، فإنّ: مسألة هُويّتنا القوميّة محلّ طعن وتشكيك في ظلّ الهزيمة والتّشتّت والتّردّي[1]، من ذلك كلّه تتفصّل الحقيقة الجذريّة الّتي صارت محلّ تشكيك، جرّاء التّشظّي والتّراجع القومي كهُويّة حاضرة التّاريخ والشّعب.

وعن، هُويّتنا القوميّة كعرب يُمكننا الإضافة، حيث إنّنا: "لم نُحقّق كرامتنا كأمّة، لأنّنا لم نصنع وحدتنا القوميّة، وهمّشنا هُويّتنا العربيّة"[2]، ويتبيّن هنا، أنّ الفرد العربي وحده المسؤول عن تغييب هويّته العربيّة؛ إذْ إنّه لمْ يُحافظ على وحدة أمّته العربيّة، وانساق خلف تداعيات الغرب وسياساته الهادِمة.

وهكذا، غابت الوحدة العربيّة والهُويّة القوميّة، وتفتّتت الأمّة العربيّة الواحدة بسبب المدّ الغربي والمشاكل العرقيّة والطّائفيّة.

2-2-3- الهُويّة العِرقيّة:

عُدّت العِرقيّة تشكيلا للانتماء الجماعي، جاءت نتيجة للانشقاقات الفِئَوِيّة ضمن نِطاق الدّولة، انطلاقا من اللّون والمُعتقد وغيرها من مُكوّنات الهُويّة الفرديّة والجماعيّة.

حملت العِرقيّة دلالات الانتماء للجماعة، فهي تتكوّن من "التّاريخ المُشترك، وسُلالة النّسب، وأنظمة الاعتقاد والمُمارسات، واللّغة والدّين وكلّ ما هُو مُشْتَرَكات ثقافيّة"[3]، نفهم بذلك أنّ العِرقيّة مجموعة من العناصر تُحَدَّدُ بواسِطتها انتماءات الأفراد للجماعة، من ناحية التّاريخ المُشترك والنّسب والاعتقاد واللّغة والدّين وكلّ ما يُشَكّل ملامح الهُويّة الثّقافيّة.

لذلك شكّلت الهُويّة العربيّة جِدالا عالميّا واسع النّطاق، ويعود ذلك لحجم الأضرار الّتي خلّفها الرّاهن العربي المُتمخّض عن أزمات ثبوتيّة، تكشف عن انشطار المجتمع العربي.

---

[1] ينظر: المرجع نفسه، ص:22.

[2] المرجع نفسه، الصّفحة نفسها.

[3] عبد اللّه الغذّامي: القبيلة والقبائليّة أو هويّات ما بعد الحداثة،ص:53.

الفصل الأوّل: الذّات والهويّة: المَاهِية والتَّمَظهُرات في الخِطاب الرّوائي العربي

على ذلك، نُفسّر قضيّة تعدّد الهُويّات داخل المُجتمع الواحد رغم الاشتراك في هُويّة واحدة ومنه كانت العرقيّة: العنصريّة أو الجنس كتفريق وتمييز بين البشر من حيث الأعراق أو العناصر، أو الأديان، أو الألوان[1].

انقسم المجتمع العربي وفقا لمعطيات خاصّة كمحدّدات للهُويّة العربيّة، الّتي انضوت تحتها عديدُ المجموعاتِ العرقيّة المُنطلقة من فكرة التّمييز بين البشر، من ناحية الجنس والنّوع والدّين واللّون.

كفصل بين الأفراد المنتمين للنّوع البشري الواحد أو الفئة المُجتمعيّة الخاصّة، انطلاقا من فرز عشوائي لا محلّ له من الصّحة؛ حيث إنّه يزيد من فجوات الهُويّة الّتي صارت مِزْقا جِذريّا ومُشكلا خطيرا يطال الانتماء والوحدة العربيّة.

ومنه، نلاحظ أنّ الدّول العربيّة تُعاني بصدق من مشاكل الهُويّة: "في الدّول والأوطان الّتي تضمّ أكثر من دين وعِرق ومذهب، يكون هناك تنافس وصراع داخلي لدى الفرد، أو الجماعة بين الانتماء الدّيني والانتماء الوطني"[2].

بطبيعة الحال، تتجلّى انكسارات الهُويّة في الدّول المُختلطة الأديان والأعراق، وهذا راجع في الأساس لميولات الأفراد والجماعات الانتمائيّة؛ إذْ ينحاز كلّ واحد لدينه وعرقه مُتناسين بذلك الهُويّة الأصليّة والانتماء الجِذري الواحد.

إمعانا في التّوضيح، نجد أنّ واقع الإنسان المسؤول الرّئيس عن عمليّة الانتماءات العرقيّة، ومنه تتبدّى حقيقة الهُويّة الّتي لا تتحقّق إلّا بإدراكنا لوجودنا ضمن حيّز المكان والجماعة، فالهُويّة ثابتة على الرّغم من فجواتها، والواقع أنّ: "هُويّات الجماعة الّتي نتقاسمها تُغذّي إحساسنا الفردي بماهيّتنا، ولكن يُمكن لها أيضا أن تكتمه، كما يمكن ترسيخ الهُويّة الفرديّة جزئيّا حسب المنزلة في علاقتها بالآخرين الّذين ينتمون إلى هُويّة المجموعة نفسها"[3].

---

[1] ينظر: أحمد بعلبكي وآخرون: الهويّة وقضاياها في الوعي العربي المعاصر، ص:51.

[2] ميلاد حنّا: قبول الآخر (فكر واقتناع وممارسة)، دار الشّروق للطّباعة والنّشر، القاهرة، ط1، 1998م. ص:27.

[3] جون جوزيف: اللّغة والهويّة(قوميّة، إثنيّة، دينيّة)، ص:10.

وبهذا، تكون الهُويّة الجماعيّة شاملة للهُويّات الفرديّة في إطار وطن؛ إذْ تقوم بعمليّة التّرسيخ الهُويّاتي.

لذلك، حلّ محلّ الهُويّة العربيّة الواحدة المُشتركة بين جميع العرب، الجِنسيّة كمُصطلح مُستحدث غربي كجدار فاصل للوحدة العربيّة، وعليه نجد أكثر من عشرين جنسيّة تقف حائلا بينها ووحدة الهُويّة[1].

وهكذا، فُقدت الهُويّة العربيّة جرّاء عامل الانقسام الجِذري؛ إذْ ارتبط حقيقةً بالانتماء للجماعة العرقيّة مُحافظة على السّلالة البشريّة ضمن المحيط القُطري الواحد.[2]

من الواضح، أنّ حقيقة الانتماء للفئة العرقيّة المُعيّنة منطلقة من فكرة الحفاظ على السّلالة والعادات من الاندثار، لكنّ كثرة الانشطارات تخلق انكسارا في الهُويّة الأصليّة.

3-2-3- الهُويّة الإثنيّة:

حَملت الإثنيّة سِمات الانتماء للجماعة، وهي لفظة قديمة العهد شاع استخدامها منذ العُصور الوسطى دلالة على فئة البشر اللّامُنتمين للدّينين اليهودي والمسيحي.

لذلك، عُدّت الإثنيّة لفظا "أصْبح يُسْتعمل للدّلالة على جماعة بشريّة يشترك أفرادها في العادات والتّقاليد واللّغة والدّين وأيّ سمات أُخرى مُميّزة كالأصل"[3].

مِنْ هُنا، يتّضِحُ أنّ الإثنيّة حُمولة من المُحَدِّدات الانتمائيّة الّتي تُميّز فئة بشريّة عن أُخرى، حيث يشْترك أفرادها في الأصل والدّين واللّغة والعادات والتّقاليد وغيرها من ملامح الهُويّة الإثنيّة.

---

[1] ينظر: أحمد بعلبكي وآخرون: الهويّة وقضاياها في الوعي العربي المعاصر، ص:52.

[2] ينظر: أحمد وهبان: الصّراعات العرقيّة واستقرار العالم المعاصر، مصر، ط2، دت. ص:110.

[3] محمّد عاشور مهدي: التّعدّديّة الإثنيّة إدارة الصّراعات واستراتيجيّات التّسوية، المركز العِلمي للدّراسات السّياسيّة، عمان، دط، 2002م. ص:26-27.

الفصل الأوّل: الذّات والهويّة: المَاهِية والتَّمَظهُرات في الخِطاب الرّوائي العربي

لذلك عُدّ الدّين من أهمّ القضايا الرّاهِنة، فقد فتح أقواسا على حقيقة الهُويّة العربيّة المُنشطرة جرّاء عامل الفئات والأقليّات العرقيّة، وهذا ما يُشير إلى زعزعة المركز الأصلي الّذي شابته تعدّديّة هُويّاتيّة، عكست تمزّقات الوحدة العربيّة.

وجرت العادة أن نتحدّث عن مشاكل الهُويّة، الّتي باتت تتطلب منّا الوقوف عندها وإيجاد حلول جذريّة للحدّ من مشاكلها، لكنّنا وللأسف نصطدم بتعدّد للهُويّة داخل الرّقعة الجغرافيّة الواحدة.

وهكذا، تُصبح الهُويّة الحقيقيّة غائبة؛ إذْ حلّ محلّها التّنوّع كالإثنيّة والطّائفيّة وغيرها، ومنه يُشير مفهوم الإثنيّة إلى "مجموعة من الأفراد تجمعهم ثقافة وعادات مُشتركة تُميّزهم عن غيرهم من البشر"[1].

ولا شكّ أنّ للخلفيّة التّاريخيّة الدّور الأساس في عمليّات التّشظّي؛ إذْ لا تخلو هُويّة رئيسة من مطبّات الأقليّات.

على ذلك، نُميّز آثار الأضرار النّاجمة عن الأقليّات العرقيّة ومدى تأثيرها على وحدة الوطن الهُويّة ككل، منه: "تُؤدّي المشاركة السّياسيّة دورا مُهمّا في نتائج عمليّة التّحوّل الدّيمقراطي في الدّول المتعدّدة الإثنيّات؛ فعدم وجود قنوات مشروعة للمشاركة السّياسيّة يؤدّي(...) إلى العنف"[2].

هي انكسارات الوطن ووقوعه تحت سطوة الهُويّات الإثنيّة، ما يُحيلُ مباشرة لنشوب أزمات سياسيّة وطائفيّة تعمل على زرع الفوضى في الوطن.

والحقّ أنّ، أزمات الهُويّة منحدرة من التّعدّد الإثني، الّذي عُدّ مشكلا تاريخيّا[3]؛ أي ليس قضيّة مُستحدثة من باب فتح الأقواس على قضايا الرّاهن، كما "يرتكز(...) تصنيف

---

[1] ينظر: سهام فوزي: التّحوّل الدّيمقراطي في المجتمعات الإثنيّة(دراسة مقارنة العراق وجنوب أفريقيا)، مركز دراسات الوحدة العربيّة، دد، ط1، 2019م. ص: 13.

[2] سهام فوزي: التّحوّل الدّيمقراطي في المجتمعات الإثنيّة(دراسة مقارنة العراق وجنوب أفريقيا)، ص:27.

[3] ينظر: محمّد عاشور مهدي: التّعدّديّة الإثنيّة إدارة الصّراعات واستراتيجيّات التّسوية، ص:33.

الفصل الأوّل: الذّات والهويّة: المَاهِية والتَّمَظهُرات في الخِطاب الرّوائي العربي

الجماعات الإثنيّة على سِمة أو أخرى من السّمات البيولوجيّة، كالعرق وصلة الدّم، أو الاجتماعيّة؛ كاللّغة والدّين والثّقافة؛ حيث يُؤدّي الاعتماد على أيّ من هذه السّمات إلى شكل من أشكال توصيف الجماعات الإثنيّة بالمجتمع"[1].

معناه أنّ؛ مُبتغى الإثنيّات العرقيّة توصيف حضورها داخل الدّولة؛ حيث "تطرح الجماعات الإثنيّة مجموعة من المطالب الخاصّة بأبناء الجماعة على النّظام السّياسي، وتتعلّق تلك المطالب بكافّة قضايا وأبعاد النّظام السّياسي والمجتمع"[2].

على العُموم، يقف أصحاب الجماعات الإثنيّة عند تحقيق الاعتراف بالجماعة ضمن نطاق الدّولة، من مبدأ المُساواة والعدالة الاجتماعيّة: ويُؤَدِّي "مُتغيّر الدّين دورا مركزيّا فيما يتّصل بهُويّة الجماعة الإثنيّة(...)، وبصفة عامّة فإنّ مطالب الجماعات السّائدة غالبا ما تتركّز حول المطالبة باعتبار ديانتها الدّين الرّسمي للبلاد"[3].

من هنا، تتّجه الجماعات الإثنيّة مباشرة لمسألة "فصل الدّين عن الدّولة"[4] لضمان حقوقها داخل دولتها.

وهكذا، تتجلّى مطالب الفئات الأقليّة داخل الدّولة الواحدة، الّتي صارت مِزْقا متعدّدا للهُويّات الانفصاليّة، وهذا يؤول بالهُويّة الأصليّة للتّشظّي.

2-4/ تشَكُّلات الهُويّة:

عُدّت الهُويّة ميزة إنسانيّة؛ إذْ رسمت حدودا تعريفيّة للإنسان ضمن نطاق تواجده ومحيطه الّذي ينتمي إليه؛ فأعْطته شعورا معمّقا بالأمان والانتماء.

---

[1] محمّد عاشور مهدي: التّعدّديّة الإثنيّة إدارة الصّراعات واستراتيجيّات التّسوية، ص:43.

[2] المرجع نفسه، ص:77.

[3] محمّد عاشور مهدي: التّعدّديّة الإثنيّة إدارة الصّراعات واستراتيجيّات التّسوية، ص:82-83.

[4] المرجع نفسه، ص: 83.

الفصل الأوّل: الذّات والهويّة: المَاهِية والتَّمَظهُرات في الخِطاب الرّوائي العربي

تأسيسا على ذلك، فإنّ أسئلة الهُويّة تنطلق من مبدأ الفقد، فطبيعة الإنسان وعلاقاته مع غيره تُحدّد مدى امتلاكه لها، على ذلك وجب علينا الإشارة لأبعاد الهُوُيّة؛ إذْ عُدّت بمثابة الشّريان النّابض والمُحرّك للفرد، وبفقدانها يصير الفرد جمادا.

هذا ما يقتضي بنا، إلى التّطرّق لمعنى الهُوُيّة دلاليّا؛ حيث نرى: الهُويّة مُشكلة عويصة شغلت حيّزا هامّا في كتابات المفكّرين المعاصرين؛ حيث ظلّت محورا بارزا لا يزال البحث فيه قائما لحدّ السّاعة.

من هنا، برزت تداعيات أخرى تلوح بأفق الهُويّة، الّتي شغلت جلّ كتابات المفكّرين المُعاصرين من باب البحث عن الحقيقة الغائبة.

وهكذا، انشطرت الهُويّة بين فرديّة واجتماعيّة ووطنيّة وثقافيّة وافتراضيّة وغيرها من تمظهُرات حُضورها.

1-2-4- الهويّة الفرديّة:

تنطلق أزمة الإنسان المُعاصِر من فقدان الهُويّة الفرديّة، الّتي باتت أرق كثير الشُّعوب المضطهدة في العالم.

فحقيقة ضياع الهُويّة ناجم عن انكسارات الأنا العربيّة بين الحضور والغياب ضمن الرّاهن، الّذي لمْ يكتفِ بسلب الهُويّات الوطنيّة؛ بل تجاوزها للتّعرية الفرديّة قصد ضرب الشّعوب من الدّاخل.

يَعْنِينا هنا، التّعرّف على دلالات الهُويّة وأبعادها غرض إزاحة لبس الفقدان الذّاتي، فمسألة الهُويّة عويصة لما تحمله من حقائق مثيرة حول الإنسان وعلاقته بذاته ضمن نِطاق الوطن، لذلك:" حين يُحسّ المرء بأنّ ثمّة ما يُهدّد وُجوده، يُسرع إلى تأكيد ذاته باحثا عن شيء أصيل كامن في أعماقه يركن إليه، كي يحسّ الثّقة والأمان والقوّة لمواجهة الخطر"[1].

[1] ماجدة حمّود: إشكاليّة الأنا والآخر (نماذج عربيّة مُختارة)، ص:15.

الفصل الأوّل: الذّات والهويّة: المَاهِية والتَّمَظهُرات في الخِطاب الرّوائي العربي

فحقيقة إدراك الذّات يُحيل مباشرة إلى حضور الفرد، من بادرة إثبات الهُويّة الفرديّة وتحديد الانتماء.

ومنه، راجت فكرة الفرد ينبني داخليّا فخارجيّا؛ والمعنى أنّه يُدرك ذاته ما يُتيح له حقّ الانتماء لهُويّة جماعيّة، فالإنسان مُتفرّد بحضوره؛ لأنّ:" الهُوُيّة خاصّيّة النّفس"[1]؛ ما يعني أنّها إحالة استبطانيّة لإدراك حقيقة التّواجد الذّاتي.

على هذه الشّاكلة، أخذ مفهوم الهُويّة الفرديّة أبعادا ذاتيّة خاصّة، بالرّجوع لمبدأ إدراك الإنسان لحقيقته، الّتي يستند عليها للوقوف بصوت وصورة معترف بها داخل محيطه الانتمائي.

فمعرفة الحقيقة الذّاتيّة يُحيلنا مباشرة لإدراك هويّتنا الفرديّة، الّتي نكتسبها من خلال اعتراف آخرنا بحضورنا، حيث:" يجد كلّ فرد مُستقلّ هُويّته في علاقته بمن هو الأوحد بامتياز"[2].

وهكذا، تمتاز الهُويّة الفرديّة عن غيرها فهي ملخّص لحضور فردي مُختلف، وهذا ما كشفت عنه علاقة الذّات بالآخر؛ إذْ تُعطي للإنسان شعورا بالإمتلاء الجِذري بواسطة وعي الذّات:" فالشّخص هو أوّلا أحدُ الأشياء الّتي نميّزها بواسطة الإحالة المعيِّنة للهُويّة"[3].

ونُريد بذلك، إدراج الهُويّة ككلّ تحت حقيقة الشّخص، الّتي لا يُمكن حدوثها دونه، فهو الوحيد الّذي تتبني بواسطته الهُويّة الجماعيّة.

حملت الرّواية العربيّة في تمظهُراتها أمثلة واقعيّة عن الهُويّة الفرديّة، تجلّت بطريقة أو بأخرى من خلال السّرد، ففي رواية: (الخبز الحافي) للرّوائي المغربي محمّد شكري تتكشّف ملامح الهُويّة الفرديّة الغائبة.

---

[1] حسن حنفي حسنين، الهُوُيّة (مفاهيم ثقافيّة)، ص: 12.

[2] جان فرانسوا ماركيه: مرايا الهُويّة الأدب المسكون بالفلسفة، ص:18.

[3] بول ريكور: الذّات عينها كآخر، ص:109.

الفصل الأوّل: الذّات والهويّة: المَاهِية والتَّمَظهُرات في الخِطاب الرّوائي العربي

فللواقع والأشخاص التّأثير المُباشر على ذات الفرد إمّا بالإيجاب أو السّلب، هذا بالتّحديد ما جرت عليه سيرة بطل الرّواية، الّذي قادته طباع والده السّكّير للانحراف والسَّجن، يقول بطل الرّواية: "ذات مساء لم أستطع أن أكفّ عن البكاء، الجوع يؤلمني، أمُصّ وأمصّ أصابعي، أتقيّأ ولا يخرج من فمي غير خيوط من اللّعاب، أمّي تقول لي بين لحظة وأخرى: أسكت، سنهاجر غلى طنجة، هناك خُبز كثير، لن تبكي على الخبز عندما نبلغ طنجة، النّاس هناك يأكلون حتّى يشبعوا"[1].

هي إذن: صورة الجوع في واقع يحنّ فيه الإنسان للدّفء والشَّبع، فمُراوحة المكان من أجل التقاط لقمة الخُبز كفيل بشرح مأساة الجوع المستمرّ والفقد.

لكنّ صورة الأب الظّالم تبقى راسخة في مُخيّلة الصّبيّ، الّذي دفع حياته ثمنا لاستهتار الوالد: "دخل أبي، وجدني أبكي على الخبز، أخذ يركلني ويلكمني: اسكت، اسكت، اسكت، ستأكل قلب أُمّك يا ابن الزّنا"[2].

وهكذا، تُفقد الهُويّة الفرديّة بفعل التّجريد القسري لها، فتختفي ملامحها ومُحدّداتها عند الإنسان منذ نعومة أظافره، الّتي تشكّلت من فجوات الألم والعنف الأُبوي المصحوب بالجوع والخوف.

تحْكِي رواية (دائرة الموت) للرّوائي الفلسطيني رجب أبو سرية حقيقة فقدان الهُويّة الفرديّة، الّتي صارت أرق الفلسطيني المواجه للموت في كلّ ليالي حياته.

من ذلك، تُفصح الهُويّة الفرديّة عن تأصيل الذّات الإنسانيّة ضمن راهنها، فهي: "لا تتجزّأ أبدا ولا تتوزّع أنصافا أو أثلاثا أو مناطق منفصلة، أنا لا أمتلك هُوُيّات عدّة؛ بل هُوُيّة

[1] محمّد شكري: رواية الخبز الحافي، دار السّاقي، دد، دط، دت. ص:09.

[2] محمّد شكري: رواية الخبز الحافي، ص:09..

واحدة مكوّنة من كلّ العناصر الّتي شكّلتها وفق مُعايرة خاصّة تختلف تماما بين رجل وآخر"[1].

والمعنى أنّ الهُويّة؛ حقيقة ثبوتيّة فرديّة تمتلك عديدا من الأجزاء المُشكّلة لها، على الرّغم من الاختلاف بين الأفراد.

2-2-4- الهويّة الاجتماعيّة:

تُعَدُّ الهويّة من قضايا الرّاهن الشّائكة، لما تحمله من أبعاد ومرجعيّات تدخل ضمن علاقة الفرد بالدّولة.

وهكذا، تُدرج الهُويّة كتمثيل للرّسوخ الجِذري، فهي: "عمليّة اجتماعيّة نفسيّة شديدة التّعقيد"[2]، نفهم من ذلك، أنّها عناصر مُتضافرة فيما بينها تتبني وفق شموليّة اجتماعيّة.

فالهويّة وليدة الأزمات الانتمائيّة الّتي لا تستطيع الانفصال عنها: "فأزمات الإنسان المعاصر المتعدّدة متشابكة ومعقّدة؛ تتداخل فيها قوى كثيرة ولن تُحلّ بمجرّد تبنّي توجّهات فلسفيّة وفكريّة مُعيّنة، فليس من اليسير حلّها في عقد أو عقود من الزّمان، ولا يتوقّف حلّها على تبنّي توجّه ما فكري ثقافي"[3].

وبذلك، تكون الهُويّة حمولة إشكالات العصر الرّاهن وما يُعانيه الإنسان، ضمن التّغييرات العالميّة؛ إذْ ليس من اليسير فكّ شفرات الهُويّة الاجتماعيّة؛ بالخُصوص عند أصحاب التّعدّديّة الثّقافيّة.

ومنه، كانت الرّواية العربيّة المعاصرة حضورا للتّاريخ الاجتماعي، بما في ذلك من تداعيات لغياب الهُويّة العربيّة الّتي باتت تفتقد للرّسوخيّة.

---

[1] أمين معلوف: الهُويّات القاتلة (قراءات في الانتماء والعولمة)، دار ورد للطّباعة والنّشر والتّوزيع، سوريّة- دمشق، ط1، 1999م. ص:07-08.

[2] بيتر كوزن: البحث عن الهويّة وتشتّتها (الهويّة وتشتّتها في حياة إيريك إيريكسون وأعماله)، ص:54.

[3] ينظر: مصطفى عطيّة جمعة: ما بعد الحداثة في الرّواية العربيّة الجديدة(الذّات- الوطن- الهويّة)، الورّاق للنّشر والتّوزيع، عمان- الأردن، ط1، 2010م. ص:32.

الفصل الأوّل: الذّات والهويّة: المَاهِية والتَّمَظهُرات في الخِطاب الرّوائي العربي

فالخِطاب الرّوائي بناء مُتعالق زمانيّا ومكانيّا وِفق نمطيّة الأحداث الرّاهنيّة، وما يحياه الإنسان داخل حيّز النّصّ والواقع معا، لذلك نجد في رواية (ساق البامبو) للكاتب سعود السّنعوسي الّتي أثبت من خلالها صورة توضيحيّة للإنسان المُتشظّي الهُويّة الاجتماعيّة؛ حيث انطلق من فكرة سؤال الهُويّة الثّقافيّة كازدواجيّة الانتماء.

يُؤكّد هذا، قول بطل الرّواية: "كيف ولماذا؟ أنا لمْ أختر اسمي لأعرف السّبب، كلّ ما أعرفه أنّ العالم كلّه قد اتّفق على أنْ يُختلف عليه"[1].

هي تشظّيات الأسماء في الفرد الواحد الّذي أصبح مزيجا مُركّبا من الهُوُيّات: "فاسمي Jose، هكذا يُكتب، ننطقه في الفلبّين كما في الإنجليزيّة، هوزيه، وفي العربيّة يُصبح كما في الإسبانيّة خوسيه، وفي البرتغاليّة بالحروف ذاتها يُكتب، ولكنّه يُنطق جوزيه، أمّا هنا في الكويت فلا شأن لكلّ تلك الأسماء باسمي حيث هو...عيسى!"[2].

ويعود تعدّد الأسماء بالسّلب على نفسيّة الفرد وهُويّته الاجتماعيّة؛ حيث يضيع في دلالات اسمه حسب البلد الّذي ينتمي إليه، وهذا خطأ وقع فيه عيسى بطل رواية (ساق البامبو).

ونحن كما نعلم، أنّ: لكلّ اسمه وهُويّته الفرديّة والاجتماعيّة، وغيابهما أو تعدّدهما يؤول بالفرد للشّتات؛ بمعنى أنّه لا يُمكننا فهم الحياة الاجتماعيّة من بادرة الهُويّة دون وعينا بوجودنا الاجتماعي[3].

فحقيقة التّواجد ضمن الجماعة وحدها من تُحدّد مسالك الفرد الثّبوتيّة كمنتمي ولا منتمي، على الرّغم من تراكمات الفرد الاجتماعيّة كحال متعدّد الهُوُيّات.

نقصد بذلك؛ معرفة حدود الأنا عن طريق وعي الذّات الحقيقيّة، الّتي تُحقّق الانتماء الاجتماعي للفرد، الّذي يربذاته من خلال تفكيره في الواقع، كما يرى الواقع من خلال التّفكير

---

[1] سعود السّنعوسي: رواية ساق البامبو، الدّار العربيّة للعلوم ناشرون، بيروت، ط1، 2012م. ص:17.

[2] المرجع نفسه، الصّفحة نفسها.

[3] ينظر: نادية خاوة: إشكاليّة الهُويّة والتّاريخ في الخطابات الإصلاحيّة الوطنيّة بمنظور نسوي، مجلّة رؤى فكريّة، مخبر الدّراسات اللّغويّة والأدبيّة (عدد خاصّ بالمؤتمر الدّولي: أسئلة الهويّة والمقاومة في الأدب العربي)، 2021م، ص:164.

الفصل الأوّل: الذّات والهويّة: المَاهِية والتَّمَظهُرات في الخِطاب الرّوائي العربي

في ذاته، فتجربة الواقع مُحايثة للكائن[1]، ونفهم من ذلك، أنّ الإنسان يُثبت حضوره من خلال إدراكه للواقع، الّذي لا ينفكّ فيُصبح مُكمّلا لحقيقة الوجود الاجتماعي.

وهكذا، انبنت الهُويّة الاجتماعيّة من حدود مشتركة بينها والواقع الإنساني ومدى إدراك الفرد لحضوره، بغضّ النّظر عَمّا إذا كانت مُركّبة، المُهمّ في ذلك ألّا تخلط مدارك الانتماء الفردي.

ففي رواية: (خاوية) للكاتب الأردني المعروف أيمن العتّوم وَصْفٌ لحقيقة الهُويّة الاجتماعيّة المهدورة جرّاء الحرب على سوريا، فالفرد السّوري فارغ من ثبوتيّة تُحيل إليه، يقول الرّاوي: "نحن الجوعى إلى الحُريّة، الجوعى إلى الكرامة، الجوعى إلى الإنسانيّة، الجوعى إلى كلّ شيء مفقود فقده البشر منذ قرون طويلة؛ فقدوا الحبّ، والسّلام، والرّحمة، والعطف، فقدوا كلّ شيء حتّى تحوّلوا وتحوّلنا معهم إلى كائنات من ورق تعيش في عالم من زَبَد"[2].

المراد بذلك، كشف المستور على مآل الشّعب السّوري، الّذي فَقَدَ هُويّته الاجتماعيّة وتجرّد من ملامحه الإنسانيّة، مُتَحَوّلا إلى أُناسٍ من ورق على هامش العالم.

من ذلك، كانت مقصديّة النّص الإبداعي الّتي امتاز بها الكتّاب العرب؛ إذْ انطلقوا من الواقع وإلى الواقع كالتزام منهم بقضايا عصرهم، فالعمل الأدبي يستمدّ من تجارب الواقع والحياة[3]، دون حصر نستطيع إدراك دلالات النّص الإبداعي كخطاب ينبع من صميم الرّاهن بأحداثه، فهو نقل مباشر للأحداث بأعين الكاتب.

---

[1] ينظر: عبد العزيز بومسهلي وآخرون: أفول الحقيقة (الإنسان ينقض ذاته)، أفريقيا الشّرق، الدّار البيضاء– المغرب، دط، 2004م. ص: 07.

[2] أيمن العتّوم: رواية خاوية، دار المعرفة للنّشر والتّوزيع، دد، ط10، 2016م. ص:08.

[3] عز الدّين إسماعيل: الأدب وفنونه دراسة ونقد، دار الفكر العربي، القاهرة، ط09، 2013م. ص:16.

الفصل الأوّل: الذّات والهويّة: المَاهِية والتَّمَظهُرات في الخِطاب الرّوائي العربي

فطبيعة القضايا التّي تُعالجها الرّواية العربيّة المُعاصرة من باب الالتزام الوطني وترسيخ الهُويّة وإيجاد الحلول الملائمة لمشاكل الانتماء الجِذري "حيث شكّلت الرّواية واقعا خاصّا يتشابه مع الواقع اليومي برغم تجاوزها لما هو أشمل وأعمق"[1].

ومنه، انبنت الرّواية حقيقة واقعيّة مُتجاوزة حيّز الزّمان والمكان وأهمّ القضايا العالقة، فهي ترسيخ للهُويّة الاجتماعيّة والرّاهن.

3-2-4/ الهويّة الوطنيّة:

تعدّ الهُوُيّة عنوانا يُحيل تلقائيا لترسيخ الحضور الفردي والجماعي للإنسان داخل حيّز ما يُعطيه شعورا مكثّفا بالأمان والانتماء، وتتّضح رؤاه الانتمائيّة ما يكسبه حضورا مع ذاته وغيره ضمن حدود وطن.

والانتماء لوطن يعني في مجمله؛ أن الفرد يُمارس كلّ حقوقه وواجباته في هذه الدّولة مُعترفا بمواطنته، فهو محمي بموجب الانتماء: "الوطن هو السّكن بإنسانيّة ما داخل إمكانيّة العالم"[2]، إحالة إلى التّجذّر داخل بقعة معيّنة ذات حدود محميّة، وهذا دليل على الاعتراف بالهُويّة الوطنيّة للدّولة وأفرادها.

من هنا، تكون الحريّة دليل الانتماء للوطن، وحضورها تأكيد قاطع على الوطنيّة، فوطنيّة الإنسان وإحساسه بها يُكسبه حضورا قويّا متأصّلا، والهويّة الوطنيّة هي قبل كلّ شيء انتماء لفئة مُعيّنة[3].

---

[1] قحّام توفيق: أزمة الهويّة في الرّواية الجزائريّة المعاصرة، أطروحة دكتوراه، كليّة الآداب واللّغات، قسم اللّغة والأدب العربي، جامعة محمّد الأمين دبّاغين، سطيف- الجزائر، 2016/2017م. ص:05.

[2] فتحي المسكيني: الهويّة والزّمان تأويلات فينومينولوجيّة (لمسألة النّحن)، دار الطّليعة للنّشر والتّوزيع، بيروت- لبنان، ط1، 2001م. ص:35.

[3] ينظر: كلود دوبار: أزمة الهويّات (تفسير تحوّل)، ترجمة: رندة بعث، المكتبة الشّرقيّة، بيروت- لبنان، ط1، 2008م. ص:24.

الفصل الأوّل: الذّات والهويّة: المَاهِية والتَّمَظهُرات في الخِطاب الرّوائي العربي

فالهُويّة الوطنيّة؛ تعني الانتماء للمجموعة تحت سقف دولة حرّة؛ إذْ تعطي للفرد تأصيلا جِذريّا واعترافا بانتسابه لها: "إذا المواطنة (مواطنتنا) تُحدّ بما هو متعدّد ابتداءا تبعا لموروث أوطان وحُدود ذات هُويّات سياسيّة مُختلفة مُعترف بها دوليّا، كالمواطن التّونسي، والمواطن الجزائري، والمواطن المغربي"[1].

وعليه، ارتكزت الهُويّة الوطنيّة على الاعتراف بالأفراد كمواطنين ضمن حدودها الدّوليّة المُصرّح بها.

بَيْدَ أنّ الرّواية العربيّة المعاصرة لم تخرج عن دائرة المواضيع الوطنيّة كأحقيّة الانتساب للوطن وتجذير الهُويّة، ففي رواية: (نصف مواطن محترم) للرّوائي السّعودي هاني نقشبندي إدراج لصورة المواطن المهدور الوطنيّة، على الرّغم من تواجده داخل أرضه إلّا أنّه حُرم من كلمة لا للنّظام الفاسد، حيث تدور أحداث الرّواية حول شخص عادي قام باصطحاب زوجته للمستشفى الّذي كان في حالة غلق تامّ إثر محفل لزعيم سياسي، فصرخ الزّوج بكلمة لا فحُبِس على إثْرِها كمُخالف للقانون وكمُحرّض على الثّورة وأعمال الشّغب داخل البلاد.

فَمِن هذا الأُفُق، يقول مؤلّف الرّواية: "قال لي جدّي عندما كنت صغيرا إنّ الوطن ملك الجميع(...) عندما كبرت، وجدت الوطن قد أصبح قطعة أرض يُريد كلّ واحد امتلاك جزء منها"[2]، نفهم بذلك، أنّ الوطن في عهد الأجداد كان ملكا للجميع، أمّا الآن في عهد الحفيد أصبح قطعة أرض مقسّمة على أفراد كلّ يأخذ نصيبه كما يشاء.

وهكذا، صار الوطن فتاتا يتهافت عليه الأفراد حسب النّفوذ والقوّة، ونُضيف ملمحا آخر يشرح ما قُلناه عن اقتسام الوطن والوطنيّة، يقول زعيم المحفل السّياسي: "إنّ الحسّ الوطني

---

[1] مصطفى الكيلاني: نحن وراهن المواطنة والدّولة والعولمة؟، مقدّمات مجلّة فصليّة محكمة، مخبر الفلسفة وتاريخها، جامعة وهران2، الجزائر، 2017م. ع:02، ص:45.

[2] هاني نقشبندي: رواية نصف مواطن محترم، دار السّاقي، بيروت، ط1، 2012م. ص:05.

الفصل الأوّل: الذّات والهويّة: المَاهِية والتَّمَظهُرات في الخِطاب الرّوائي العربي

الّذي يختبئ وراءه هؤلاء قد كشف حقيقتهم... فهم ليسوا بأكثر من إرهابيّين وحفنة متطرّفة يريدون أن تعودوا إلى القرون الوسطى"[1].

فحقيقة الوطن والوطنيّة كَشَفَ عنها الزّعيم السّياسي، وُفق نظرته الخاصّة المبنيّة على هدم الرّأي العام والقمع، فنتيجة قوله(لا) للتّسيّب الّذي قيَّد إنسانا بريئا للسّجن وألْصَقَ تُهمًا جِسامًا به، مِنْ مِثْلِ تُهمة الإرهاب والتّطرّف والتّحريض والفوضى، وغيرها من ملفوظات سياسيّة غريبة.

ونجِد في رواية: (القوقعة يوميّات متلصّص) للكاتب الرّوائي السّوري (مصطفى خليفة) دلالات الهُويّة الوطنيّة الغائبة في أسمى تمثّلاتها، حين عاد إلى وطنه سوريا بعد غياب دام أعواما في فرنسا، حيث اعتقل في المطار بتهمة انتمائه لجماعة الإخوان المسلمين في سوريا المناوئين للنّظام، على الرّغم من كونه مسيحيّا مُلحدا، يقول الرّوائي:" حالة من اللّا تصديق تنتابني!! ما الّذي يجري؟! ولمَ أنا هنا؟!"[2].

هي الغربة بعد العودة للدّيار والصّدمة من مآل الوطن، فطريقة الاستقبال ليست متوقّعة من مُخرج سينيمائي عاد لوطنه وترك الحياة خلفه بفرنسا، هذا ما عاناه كاتب الرّواية مصطفى خليفة، الّذي اتُّهِمَ وحُبِسَ زورا قرابة 13 عاما في سجن يفتقر لسبل العيش.

فغالبا ما، تكون الوطنيّة ظالمة في حقّ مُلّاكها الأصليّين ذوي الجنسيّة الأم، وهذا ما يدفعنا لتعريف الدّولة من زاوية حُكمها السّياسي المحض، فهي:" أحد أشكال التّنظيم السّياسي والقانوني المتكوّنة من مجموعة من المواطنين أو الرّعايا، لبلد مُعيّن وتمتلك في دلالاتها العامّة حدودا إقليميّة وإداريّة وسياسيّة معروفة في الغالب تُمارس داخلها قوانينها"[3].

فالملاحظ هنا، أنّ: الدّولة عبارة عن إطار وحدود إقليميّة ينحصر بداخلها مجموعة من الأفراد في شكل جماعات انتمائيّة.

---

[1] المرجع نفسه، ص:13.

[2] مصطفى خليفة: رواية القوقعة يوميّات مُتلصّص، دار الآداب، بيروت، ط1، 2008م. ص:05.

[3] عبد اللّه العروي: مفهوم الدّولة، المركز الثّقافي العربي، الدّار البيضاء– المغرب، دط، 2014م. ص:31.

الفصل الأوّل: الذّات والهويّة: المَاهِية والتَّمَظهُرات في الخِطاب الرّوائي العربي

وعليه، امتازت الرّواية العربيّة بواقعيّتها فهي أحداث مستمدّة من تجارب حقيقيّة، غالبا ما يكون أبطالها هم الكتّاب عينهم.

تَتَبَدَّى صورة الإنسان العربي الضّائع الهُويّة الوطنيّة، وهُو عاجز كلّ العجز عن تأمين حقوقه الاجتماعيّة والفرديّة داخل وطنه، الّذي بات غريبا عنه بالرّغم من انتمائه الجِذري إليه، لذلك عُدّت رواية ما بعد الأزمة العالميّة صورة انعكاسيّة لحقيقة انتماء الفرد لوطن.

وما رواية (رقصة الظّلّ) للرّوائي السّوري رامي الطّويل إلّا تجسيد لصورة الوطنيّة الغائبة والبطل المأزوم وسط تعالقات الحياة والمشاكل السّياسيّة والاجتماعيّة في وطن غائب تحت وطأة الرّبيع العربي والحركات الثّوريّة الرّافضة لسلب الأصوات الحرّة "وهكذا بدت هذه الرّواية السّوريّة في زمن سُمّي بالرّبيع العربي، كما رآها لوكاتش ملحمة عالم بدون آلهة؛ أي من دون أبطال(...) فهي رواية تغوص في تشوّهات بطل يُمعن المكان في تفاقُمها...هي رواية الجسد الّذي يشُدّ بصاحبه نحو الأسفل ويُبقيه أسير دوّامته"[1].

من هذا القبيل، أصبحت الرّواية السّوريّة ملحمة للفساد والظّلم؛ إذْ تفضح تشوّهات الرّاهن الّذي طال حياة الفرد مواطنًا ينتمي لحدود وطن.

فالرّواية نقل للواقع وتمتين لحُضور الفرد؛ حيث رسّخت لتاريخ الإنسان وعلاقاته ضمن محيطه، عاكسة بذلك صورا ومشاعر حقيقيّة تُثبت الانتماء للوطن والهُويّة.

4-2-4/ الهويّة الثّقافيّة:

عُدّت الهُويّة الثّقافيّة المُحدّد الرّئيس لترسيخ الأفراد والأوطان، فهي وسيلة لتثبيت الحضور الفردي والجماعي؛ إذْ تتجلّى من خلالها مقوّمات الشّعوب الجِذريّة كارتكاز ثبوتي يُفصح عن هُويّة ثقافيّة لجماعة محدّدة.

---

[1] سلمى عطاللّه: صورة البطل المأزوم في الرّواية زمن الرّبيع العربي الرّواية السّوريّة نموذجا –رقصة الظّلّ الأخيرة لـ:"رامي الطّويل"، مجلّة علوم اللّغة العربيّة وآدابها، قسم اللّغة العربيّة، جامعة سيّدة اللّويزة، زوق مصبح، لبنان، 15 جوان 2018م. ع:14، ص:222.

الفصل الأوّل: الذّات والهويّة: المَاهِية والتَّمَظهُرات في الخِطاب الرّوائي العربي

هي حقيقة الثّبوتيّة الّتي لا تقتصر على إثبات الفرد بل تتجاوزها، فهي ترسيخ لحضور أمّة، فَعلى هذه الشّاكلة يمكن القول إنّ: "تُراث الماضي للذّات القوميّة مُجرّد تُراث تركن إليه؛ بل هو عناصر تشكّل لُحمة بناء الذّات الّتي ترتكز عليها وتُعطيها من الخصائص ما يُميّزها عن الآخرين، فتُراث أيّ أمّة هو نُقطة ارتكاز لبنائها وحماية شخصيّتها، إنّه الهُويّة التّاريخيّة للأمّة"[1].

من ذلك، تتّضح علاقة التّراث الثّقافي بالهُويّة، الّتي تعمل على بناء الذّات وفقا لتاريخ الأمّة وعاداتها وتقاليدها؛ إذْ تُميّزها عن غيرها من الذّوات تُعطيها حقّ الحماية والرّسوخ الجِذري داخل حيّزها الجغرافي.

وهكذا، شكّلت الرّواية العربيّة المعاصرة محورا هامّا لَدُنَ الكتّاب والنّقّاد؛ إذْ عمدت على إخراج صوت الشّعوب المُضطهدة من جهة، ومن جهة ثانية كسرت ركود الحياة اليوميّة بتخطّيها أسلوب السّيرة الذّاتيّة والسّرد التّاريخي؛ حيث صارت تُحاكي الواقع لتُفصح عن الهُويّة الثّقافيّة للبلد بدافع التّعريف بحضارة الأمّة وحضورها.

عَمَدَ الرّوائي العراقي(علي بدر) في روايتيه(حارس التّبغ) و(بابا سارتر) استخدام التّاريخ الثّقافي للأمّة من بادرة ترسيخ الهُويّة الثّقافيّة للعراق، يقول: "تتحوّل المجتمعات في ثقافتها وسياستها وحالتها الاجتماعيّة، وتمرّ بمراحل من الثّقافة فيها الأصيل وغيره فيتحوّل الأدب معها لأنّه إنتاج مجتمع وحياة، والأديب يعيش مع أبناء مُجتمعه وينتمي إليهم، ويكتب بلغتهم ويشاركهم في إنتاج الثّقافة(...) فالأدبيّة ليست إعادة الثّقافة وتكرارها؛ بل هي إعادة إنتاج الواقع وتقديمه بصيغة تتناسب مع التّفكير النّخبوي العالي"[2].

---

[1] صالح خليل أبو أصبع: مرآة الزّمن قراءات في الثّقافة والأدب، ص:299.

[2] عزيز حسين علي الموسوي: صناعة الهُويّة الثّقافيّة أثر الثّقافات الرّاهنة في روايات علي بدر، مؤسّسة الهدى للدّراسات الإستراتيجية، نشر بتاريخ: 04جوان 2022م، على الرابط: http://www.alhudamissan.com
تم الاطلاع عليه يوم:2022/12/29م، على السّاعة:15:30.

الفصل الأوّل: الذّات والهويّة: المَاهِية والتَّمَظهُرات في الخِطاب الرّوائي العربي

والمعنى أنّ؛ المُجتمعات في حالة تطوّر مُستمرّ، وهذا يُشكّل خطرا على الهُويّة الثّقافيّة للأمّة، فالأدب كغيره صار مزيجا من الثّقافات المُختلفة مُزيحا بذلك الهُويّة الثّقافيّة للبلد الأصلي، الّذي بات هُويّة ثقافيّة مُتشظّية غرضه الوحيد إنتاج أدب يُواكب التّطوّر النّخبوي الرّفيع الجودة.

عَزّزت رواية (أنا وحاييم) للرّوائي حبيب السّائح ملامح الهُويّة الثّقافيّة على الرّغم من تباعد الثّقافات بين الصّديقين الصّيدلي اليهودي والأستاذ الجزائري المسلم؛ حيث كان للعلاقات الحياتيّة وقعا خاصّا على نفسيّة الصّديقيّن الواقعين تحت ضغوطات المُستعمر وأعوانه؛ إذْ لا يفصلهما دين ولا هُويّة.

حملت رواية (كيف ترضع من الذّئبة دون أن تعضّك) للرّوائي الجزائري عمارة لخوص، صورا عن التّغيّرات الّتي طالت المُجتمع الجزائري إبّان العشريّة وقبلها؛ حيث فتح الرّوائي مواضيع جديدة كالهُويّة والهجرة؛ إذْ كسرت بذلك التّكرار النّصّي[1].

كما نلمح حقيقة التّمازج الثّقافي عند المهاجر واختلاطه بجنسيّات مختلفة، وهو ما يخلق لديه فضول الاطّلاع على ثقافة الآخر، لكنّ حقيقة التّصادمات الحضاريّة تكسر أُفق توقّع الهُويّات الفرديّة والجماعيّة؛ حيث: "تعكس الرّواية كم الزّخم المعرفي للكاتب ببعض الثّقافات فيها، على غرار الإيرانيّة والبنغاليّة والثّقافة الإيطاليّة بشكل خاصّ، وهو الكمّ الّذي وظّفه الكاتب لإظهار الصّدام بين الحضارات في صراعات تُخفي في طيّاتها الواقع المعيش للمُهاجرين واللّاجئين وحالتهم الاجتماعيّة"[2].

---

[1] ينظر: نور الدّين جويني: الهُويّة الثّقافيّة وإستراتيجية التّموقع في الرّواية الجزائريّة المعاصرة دراسة في الأنساق الثّقافيّة (نماذج مختارة)، مجلّة الباحث، جامعة أبو القاسم سعد اللّه، الجزائر02، الجزائر، ع:03، م:10، 2018م. ص:14.

[2] بشرى بوخالفي ومنال بوخزنة: مراجعة: رواية كيف ترضع من الذّئبة دون أن تعضّك لعمارة لخوص، موقع النّقطة الزّرقاء، نشر في:28 مارس 2020م، على الرابط: https://bluenoqta.com

تم الاطلاع عليه يوم:2022/12/29م، على السّاعة:19:2.

الفصل الأوّل: الذّات والهويّة: المَاهِية والتَّمَظهُرات في الخِطاب الرّوائي العربي

إذن، هو الاختلاف الثّقافي الذّي يخلق شيئا من التّباعد الحضاري المُثقل بالصّراع، في ظلّ واقع غريب لا يرحم المهاجرين واللّاجئين، فحالتهم الاجتماعيّة كفيلة بشرح وضعيّتهم هناك.

وعلى ذلك، يقول بطل الرّواية عن إعداده للطّعام ورائحة التّوابل الّتي قادته للكشف عن ثقافته الأصليّة: "في غضون دقائق قليلة تتحوّل رائحة التّوابل إلى بخور ممّا يدفعني إلى الرّقص والإنشاد كالدّراويش: حي ! حي ! حي ! هكذا ينقلب المطبخ في دقائق معدودة إلى حضرة صوفيّة"[1].

فطبيعة الانتماء الثّقافي تُحيل الفرد لأصله مهما ابتعد يبقى مطبوعا في ذهنه، كحقيقة انتمائه الّتي تقوده مباشرة لهُويّته الحقيقيّة.

مِنْ هذا المُنطلق، يرى علي حرب أنّ: "الشّعارات المطروحة فرعيّة قياسا على الأسئلة الوجوديّة الّتي يُثيرها الواقع المأزوم عربيّا وعالميّا، عربيّا كيف نستعيد المُبادرة التّاريخيّة ونُمارس الفاعليّة على مسرح العالم؟ أو كيف ننتقل من موقع المُتلقّي والمستهلك إلى موقع المنتج والمُصدّر؟"[2].

نفهم من ذلك، أنّ الثّقافة العربيّة باتت مُهدّدة من طرف الغرب لأسباب تاريخيّة قديمة ومُستحدثة، كقضيّة العولمة والدّيمقراطيّة والإصلاح، الّتي جَعَلتِ الفرد العربي في قائمة المُستهلك لا المُنتج.

كما فُتِحت تساؤلات وجوديّة لعلّ الإجابة عليها تُسقُط اللّبس عن الرّاهن العربي والعالمي المأزوم، لكنّ حقيقة الوضع العالمي تُثبتُ ريادة العقل الغربي كمصدر للثّقافة غير العربي المهدور الهُويّة الثّقافيّة.

---

[1] عمارة لخوص: رواية كيف ترضع من الذّئبة دون أن تعضّك، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط2، 2006م. ص:17.

[2] علي حرب: أزمنة الحداثة الفائقة (الإصلاح- الإرهاب- الشّراكة)، المركز الثّقافي العربي، الدّار البيضاء- المغرب، ط1، 2005م. ص:15.

الفصل الأوّل: الذّات والهويّة: المَاهِية والتَّمَظهُرات في الخِطاب الرّوائي العربي

وعليه، عُدّت الهُويّة الثّقافيّة العربيّة من بين ما يفتقدُه الإنسان العربي في ظلّ الواقع المُتقلّب الثّقافات؛ حيث صار الحديث عن الثّقافة العربيّة دليلا واضحا عن التّخلّف والتّطرّف، وما الرّواية العربيّة المُعاصرة إلّا تمثيل حقيقي لواقع الهُويّة المنسيّة.

5-2-4/ الهويّة الافتراضيّة:

شكّلت الهُويّة موضع اهتمام كثير الباحثين والمفكّرين، لما تحمله من دلالات حضور الفرد والجماعة ضمن الواقع، فهي مُحدّد ثبوتي يعمل على ترسيخ الفرد.

ومنه، كانت الهويّة الافتراضيّة عبارة عن: "مجموع الصّفات والرّموز والبيانات الّتي يستخدمها الأفراد في تقديم أنفسهم للآخرين"[1]، ونفهم من ذلك، أنّها تعني التباس الفرد في هويّة غير هويّته الأصليّة.

من هنا، أثبتت الرّواية العربيّة نجاعتها في التّمثيل الحقيقي لواقع الذّات العربيّة، الّتي باتت تُعاني في صمت هشاشة الحضور، حيث لجأ الكتّاب لمواضيع أعطاب الهُويّة من ضمنها الشّخصيّة الافتراضيّة دليلًا حيًّا على حجم المعاناة.

هذا ما أثبته محمّد عابد الجابري، أنّ الهُويّة العربيّة تُعاني أرق الحضور ما دفعها للالتباس في هويّة مُغايرة تخييليّة غرض محو هزّات الأنا، الّتي صارت مُثقلة بأوجاع الرّاهن والآخر[2].

هي حقيقة الأنا العربيّة المُنشطرة بين زيف الواقع ومُجرياته والحضور، فالهويّة الافتراضيّة مُلتبسة وحلّ بديل لفقدان الجِذريّة، لذلك يعمد كثير البشر إلى عمليّة الالتباس بهُويّة الآخر من أجل تغطية العجز الرّسوخي.

---

[1] بايوسف مسعودة: الهويّة الافتراضيّة: الخصائص والأبعاد دراسة استكشافيّة على عيّنة من المشتركين في المجتمعات الافتراضيّة، مجلّة العلوم الإنسانيّة والاجتماعيّة، جامعة قاصدي مرباح ورقلة، الجزائر، عدد خاصّ بملتقى دولي، دس. ص:470.

[2] ينظر: محمّد عابد الجابري: إشكاليّات الفكر العربي المعاصر، مركز دراسات الوحدة العربيّة، بيروت- لبنان، ط2، 1990م. ص:09.

الفصل الأوّل: الذّات والهويّة: المَاهِية والتَّمَظهُرات في الخِطاب الرّوائي العربي

نَحَت الرّوائي الجزائري بشير مفتي في روايته (اختلاط المواسم) واقع الذّات الجزائريّة إبّان فترة زمنيّة محدّدة وألبسها ترميزا افتراضيّا لهُويّات عديدة فقدت حضورها؛ إذْ منح شخصيّات الرّواية طابعا من الالتباس الافتراضي أساسُه الهروب من قسوة المعيشة.

أفصحت رواية (اختلاط المواسم) عن معاناة شابّ في مقتبل العمر جُبِلَ على الإجرام والقتل، فَقَد هويّته مُلتبِسا بهويّة افتراضيّة تشوبها روح الانتقام والقتل، يقول بطل الرّواية: "ما الحقيقة؟ ما اللّه؟ ما العدم؟ ما الحياة؟ ما الموت؟ ما الشّرّ؟ وما الخير؟ ما أكثر الأسئلة، وما أقلّ الأجوبة ! ما أكثر ما يُمزّقنا في الدّاخل، وما أقلّ ما يُريحنا في الخارج، ما أكثر ما نُواجه من الشّكوك، وما أقلّ ما نحصل عليه من نعمة اليقين والطّمأنينة !"[1].

وهكذا، انزاحت هُويّة بطل الرّواية الواقع تحت حصار الواقع المؤلم، ودليل ذلك فراره للأسئلة الوجوديّة كحلّ يشفي روحه العليلة جرّاء فعل التّعرية الرّاهنيّة.

فإثارة الشّكوك نتيجة يتوصّل إليها الإنسان المضطرب الهُويّة لأسباب خاصّة، الّتي دفعته للانسياق خلف الاعتقادات الواهية عن أصله، فبات قيدا يفصل بينه والواقع.

من باب الإضافة، كشفت لنا حقيقة بطل الرّواية المتناقضة عن مأساة الواقع وعلاقتها بتشظّي هُويّة الفرد، وخير دليل على ذلك قوله: "الحياة هكذا مليئة بالمتناقضات، مليئة بالمآسي والشّرور، مليئة بكلّ شيء ولا شيء"[2].

هذه حقيقة الحياة الّتي لا تكاد إلّا وأن تكون جملة من المتناقضات، وما علينا إلّا تقبّلها بحلوها ومرّها، لكنّ بطل الرّواية تخلّى عن هُويّته إلى هُويّة شريرة تقتنص ضحاياها.

من ذلك، يرى محمّد عابد الجابري، أنّ: "قضايا الفكر العربي المعاصر: الوجه الّذي يعكس التّوتّر والقلق اللّذين يولّدهما ويُغذّيهما في الوعي العربي الرّاهن الشّعور بمأساويّة وضعيّة إنفصاميّة ينتمي فيها الأنا إلى الماضي"[3]، يعني ذلك، أنّ وضعيّة الرّاهن العربي

---

[1] بشير مفتي: رواية اختلاط المواسم أو وليمة القتل الكبرى، منشورات ضفاف، بيروت– لبنان، ط1، 2019م. ص:11.

[2] المرجع نفسه، ص: 11.

[3] محمّد عابد الجابري: إشكاليّات الفكر العربي المعاصر، ص:09.

الفصل الأوّل: الذّات والهويّة: المَاهِية والتَّمَظهُرات في الخِطاب الرّوائي العربي

المزرية تفرض توتّراتها على العقول العربيّة ما يدفع بالأنا للرّجوع لذلك الماضي بحثا عن الهُويّة الأصليّة لإثبات حضورهم الواقعي.

أمّا رواية (رمل الماية) للكاتب الجزائري واسيني الأعرج، فقد امتازت بقالبها الرّمزي المليء بالهُويّات الافتراضيّة والقصص الخرافيّة المُستحضرة من كتاب(ألف ليلة وليلة) وغيرها من المؤلّفات القصصيّة العربيّة القديمة[1].

ففي هذه الرّواية تتنحّى صورة البطل العادي إلى أُخرى خرافيّة ذات هويّة تاريخيّة ملتبسة، بعيدا عن الهُويّة الواقعيّة الّتي بات يُرمز لها بمسمّيات تاريخيّة معروفة.

من ذلك، نضيف رأيا لعلي حرب الّذي يقول فيه، إنّ: "التّمييز الحاسم بين الكاتب والمفكّر لم يعُد مقبولا، فالواحد منّا لا يعتمد في نشر أفكاره على المشافهة أو المخاطبة؛ بل يتوسّل الكتابة بالدّرجة الأولى(...) ولذّة النّصّ محلّ لذات الجسد، ومن هنا فإنّ الكاتب يروي الحقيقة بقدر ما يصنع حقيقته، فيمارس عبر كتاباته حضوره وتأثيره، وقد يخيّم بأطيافه على الّذين يتوجّه إليهم بنصوصه من القرّاء"[2].

نفهم من ذلك؛ أنّ الكاتب يشتغل على نصّه لجذب القارئ، فهو من يصنع الحقيقة النّصيّة الّتي تُكسبه حضورا قويّا مع النّصّ والقارئ، بيد أنّه يلجأ للهُويات الافتراضيّة كسرا لنمطيّة الكتابة العاديّة؛ فيُضمِّن عمله الخيال والأسطورة وهذا ما يجعل القارئ مستمتعا بعمليّة القراءة.

فالهُويّة الافتراضيّة ناشئة عن فقدان الفرد لحقيقته نتيجة قسوة الرّاهن، وهذا ما حملته الرّواية العربيّة من باب الموضوعات الجدليّة.

ثانيا: أسئلة الذّات وتمثّلاتها في الرّواية العربيّة

[1] ينظر: عزّ الدّين بن حليمة: مصادر الرّمز وتجلّياته في الرّواية العربيّة المعاصرة رواية (رمل الماية) لواسيني الأعرج أنموذجا، إحالات، جامعة الجزائر02- أبو القاسم سعد اللّه، الجزائر، ع:03، 2019م. ص:210.

[2] علي حرب: الممنوع والممتنع نقد الذّات المفكّرة، المركز الثّقافي العربي، الدّار البيضاء- المغرب، ط1، 1995م. ص:12-13.

الفصل الأوّل: الذّات والهويّة: المَاهِية والتَّمَظهُرات في الخِطاب الرّوائي العربي

تُعَدُّ أسئلة الذّات من المواضيع المثيرة للجدال الرّاهني، حيث إنّها تبحثُ في حقيقة الإنسان من دافع التّرسيخ الحضوري له ضمن حيّز معيّن.

وهذا، بالفعل ما عالجته الرّواية العربيّة؛ إذْ لم تخرج عن دائرة الإنسان ومشاكله، انطلاقا من الفراغ الذّاتي الّذي يُعانيه الفرد العربي وتشظّيه مع آخره الظّالم.

مِنْ مظاهر هذه الأسئِلة وتمثُّلاتها في الرّواية العربيّة نذكُر:

1- الأنا المُهمّشة:

عُدّتِ الأنا قضيّة العصر وذلك لما تحمله من أهميّة، فبواسطتها ينبني الإنسان سويّا دون أعطاب ذاتيّة، وهذا ما نُلاحظه في الرّواية العربيّة الّتي تجلّت من خلالها حقيقة الأنا العربيّة ومُعاناتها المرهونة بالظّروف وسُلطة الآخر.

امتازت الأنا العربيّة بفراغها من الحضور؛ إذْ صارت مثالا حقيقيّا للأنا المُهمّشة، ومِنْ هُنا، صارت الهامشيّة صفة لصيقة بالأنا العربيّة من ناحية غيابها مع الآخر مهما كان نوعه وحجم سطوته.

فالوقوع في اغتراب الذّات ناجم عن فقدان الأنا، الّتي انزاحت عن مكانها الأصلي إلى تداعيات الغياب والتّهميش، لذلك فالأنا المُهمّشة صورة حيّة عن الغياب والرّضوخ للآخر، وهذا واقع لا فرار منه، حيث يرى محمّد عابد الجابري أنّ:الأنا العربيّة هي أنا مُهمّشة؛ ويعني ذلك أنّها أنا مُستبعدة الحضور مع الآخر، ما دفعها للرّجوع للماضي قصد ترسيخ هُويّتها[1]، هذه حقيقة الأنا العربيّة الّتي باتت حضورا غير معترف به في راهن متضارب القِوى.

لذلك، تُعدّ الكتابات النّسويّة من بين ما امتاز به العصر المعاصر؛ إذْ أعطى للذّات الأنثويّة حقّ البروز أمام الآخر(الرّجل)، بغضّ النّظر عن مُنجزات هذا التّحدّي الكتابي الأوّل من نوعه في الوطن العربي، وهذا ما لاحظناه على الرّواية الخليجيّة الّتي خرجت فيها المبدعات عن صمتهنّ فكُسرت بذلك حدود الأنا المنغلقة.

[1] ينظر:محمّد عابد الجابري: إشكاليّات الفكر العربي المعاصر، ص:26.

الفصل الأوّل: الذّات والهويّة: المَاهِية والتَّمَظهُرات في الخِطاب الرّوائي العربي

فصورة المرأة وما تحياه من تهميش وسط البيئة العربيّة المعروفة بميلها الجِذري للنّصوص الإبداعيّة الذّكوريّة جعلت منها أكثر حُريّة، على الرّغم من ذلك التّهميش القرائي المُستوحى من فكرة الكتابات الجنسيّة الصّاخبة.

من ذلك، منحت عمليّة الكتابة خروجا للأنا الأنثويّة عن حدود هامشها المفروض عليها من قِبل الآخر الذّكوري والمُجتمع، وهذا ما تناولته الكاتبة السّعوديّة(رجاء عبد اللّه الصّانع) في رواية:(بنات الرّياض)، الّتي أفصحت من خلالها عن طبيعة العلاقة بين الجِنسين داخل المُجتمع العربي السّعودي، وما تُعانيه المرأة من الرّجل كآخر سالب لحرّيّتها.

تقول الرّوائيّة عن بطلات روايتها بنات الرّياض: "هذه ليلتي وقصّة الأمس بطلاتها منكم وفيكم، فنحن من وإلى الصّحراء نعود(...) فمن بطلات قصّتي من هي صالحة ومن هي طالحة – وهناك الاثنان في واحد – واستروا على ما واجهتم! ولأنّي قد بدأتُ في كتابة رسائلي تجرّؤا دون مُشاورة أيّ منهنّ، ولأنّ كلّا منهنّ تعيش حاليّا تحت ظلّ(راجل) أو (حيطة) أو (راجل حيطة) أو (وراء الشّمس)"[1].

تُفْصِحُ الرّوائيّة عن حقيقة مُعاناة الأنثى ضمن محيطها العربي، وما يعتريها من مُضايقات مُجتمعيّة مندرجة تحت لِواء العادات والتّقاليد والعُرف.

هذا ما لَفت انتباهنا حديثها الصّريح عن مُعاناة المرأة مع آخرها الرّجل، الّذي جعل منها دمية طيّعة بين يديه راضِخة لطلباته، فهي نقلٌ للصّورة الهامشيّة للنّون العربيّة ضِمن واقِعها المُنْغلق.

هذا ما لفت انتباهنا حديثها الصّريح عن امرأة تعيش تحت ظلّ رجل أو وراء الشّمس؛ فبذلك تنحّت جانبا وأفسحت المجال لصورة المرأة العربيّة كأنا على هامش آخرها ومُجتمعها، فهي دائمة التّقييد مُحاصرة بسُلطة مُجتمعها الذّكوري وآخرها.

مع العلم أنّ رواية (بنات الرّياض) حُظِر بيعها في السّعوديّة بعد سبع سنوات من صدورها؛ لأنّها تُخالف عادات المُجتمع السّعودي.

---

[1] رجاء عبد اللّه الصّانع: رواية بنات الرّياض، مُصوّرة، دد، دط، 2004م. ص:02.

الفصل الأوّل: الذّات والهويّة: المَاهِية والتَّمَظهُرات في الخِطاب الرّوائي العربي

من ذلك، نرى أنّ الأنا الأنثويّة العربيّة مُهمّشة الحضور داخل مُجتمعاتها الشّعبويّة المُعتقدات، على الرّغم من تغيّر الأزمنة والأحداث العالميّة جرّاء مدّ الحُريّة ومُسايرة التّطوّر الحضاري، تبقى ميزة الانقياد للأنا الذّكوريّة راسخة؛ إذْ مسّت فكرة الرّضوخ للآخر حياتها الإبداعيّة وما جاء من كتابات وُسِمَتْ بالتّمرّد الخروج عن الأصل.

أمّا الرّوائيّة الإماراتيّة (سعاد سلطان الشّامسي)، فقد كشفت في روايتها: أمنيتي أن أقتل رجلا (خطّة لقتل رجل دون دليل) واقع الأنثى العربيّة المُزري، وما يعتريها من اضطهاد ذكوري بالخصوص ما يتناول جانب الزّوج اللّامُبالي؛ حيث قالت على لسان زوجة مهدورة الحقوق: "أُمنيتي أن أقتل زوجي هنا.. نعم هنا(...) كان يتجرّأ بالاعتداء عليّ لفظيّا وجسديّا لم يترك أُسلوبا للإهانة إلّا ومارسه ضدّي"[1].

فتهْميش المرأة مُنبثقٌ من نظرة مُجتمعيّة بحتة، فقد لَقِيَت الإهانة المصحوبة بالتّعنيف من آخرها الرّجل كإبراز لذاته وتميّزه عليها، فهذا واقعها الرّضوخ والبقاء تحت ظلّ هامشه.

ومنه، تتجلّى صورة المرأة الهامشيّة الأنا؛ إذْ تُضيف سُعاد سُلطان الشّامسي: "شعرتُ حينها أنّني لمْ أعُد كاملة معه، وأنّني سأظلّ مسلوبة القرار، شعرتُ حينها كأنّني جئتُ فقط لأكمل طاقم الخدم لديه، أو أنّني مجرّد دُمية يُحرّكها كما يشاء"[2].

هي الحقيقة الّتي انكشفت دلالاتها في كيفيّة المعاملة بين الجِنسين؛ حيث إنّها امتازت بالقَفَرِ والظّلم.

وعليه، فالرّواية النّسويّة تمثيل لغياب الأنا الأنثويّة من بادئ الأسبقيّة والعُرف، تظلّ ونصّها ملكا للآخر.

---

[1] سعاد سلطان الشّامسي: رواية أُمنيتي أن أقتل رجلا(خطّة لقتل رجل دون دليل)، مداد للنّشر والتّوزيع، دُبي، ط3، 2018م. ص:40.

[2] المرجع نفسه، ص:16.

الفصل الأوّل: الذّات والهويّة: المَاهِية والتَّمَظهُرات في الخِطاب الرّوائي العربي

من ذلك، نُدرج رأيا لعبد اللّه الغذّامي الّذي يرى فيه أنّ: العدوّ الحقيقي للمرأة هو الثّقافة العربيّة الّتي همّشتها وقَيّدتْهاُ مستضعفة الحضور[1].

فالمرأة الكاتبة من المفترض أن تتمتّع بحريّة الكتابة وانتقاء المواضيع كالرّجل، لكنّ الواقع يقول عَكس هذا، ودليل هذا إشكالات الإبداع النّسوي وآليّاته؛ إذْ تجرّدت كاتبات كثيرات من أسمائهنّ الحقيقيّة مُسْتَتِرات بأسماء ذكوريّة، تجنُّبا للنّقد اللّاذِع الّذي تتعرّضُ له نُصوصُهُنَّ.

وهكذا، اعتُبرت كتابات الأنثى كتابة اختراقيّة، نَظير ما تحتويه من جُرأة ورغبة في التّطرّق للمحظور الذّكوريّ[2]؛ وهذا معناه معناه أنّ: الأنثى تمرّدت في كتاباتها نتيجة لخلفيّات معرفيّة انطلقت منها رفضا لسطوة الرّجل والمجتمع الظّالم.

هذا ما يبدو، من خلال تقييم النّقّاد لأعمالها: "يظهر هذا التّحفّظ في عدّة أشكال أوّلها: تجاهل النّقّاد للصّوت النّسوي الإبداعي في العمل الفنّي، وبذلك يتمّ تغييب الممارسة النّقديّة النّسويّة، ثانيا: إحالة كلّ ما تكتبه المرأة إلى واقعها المعيش"[3].

وهكذا، تمايز الصّوت الإبداعي الأنثوي برفضه المستمرّ للآخر، ما عَرّضَ نصوصها الإبداعيّة للنّقد اللّاذِع من قِبَل جمهور القُرّاء.

بهذا المعنى، ردّت زهور كرام مسألة إبداع المرأة لعامل تاريخي، إنّ: "للمرأة وضعا خاصّا باعتبارها صنّفت ضمن تمييز جنسي تاريخي أنتج تفاوتا في الحقوق بينها وبين الرّجل، كما اختزل وجودها في مُجرّد أداة".[4]

---

[1] ينظر: عبد اللّه الغذّامي: المرأة واللّغة، المركز الثّقافي العربي، الدّار البيضاء، ط3، 2006م. ص:09.

[2] ينظر: محمّد قاسم صفّوري: شعريّة السّرد النّسوي العربي الحديث (1980م-2007م)، أطروحة لنيل درجة الدّكتوراه في الفلسفة، جامعة حيفا، كليّة العلوم الإنسانيّة- قسم اللّغة العربيّة وآدابها، 2008م. ص:10.

[3] المرجع نفسه، ص:24.

[4] زهور كرام: السّرد النّسائي العربي (مقاربة في المفهوم والخِطاب)، المدارس شركة النّشر والتّوزيع، الدّار البيضاء، ط1، 2004م. ص:12.

الفصل الأوّل: الذّات والهويّة: المَاهِية والتَّمَظهُرات في الخِطاب الرّوائي العربي

نفهم من ذلك؛ أنّ المرأة أداة الرّجل ووضعيّة خاصّة؛ إذْ نُسبت حريّتها للتّمايز الجنساني بينها والرّجل، فهي دُفقة تاريخيّة تنبجِس من خلالها ملامح التّفاوت الحُضوري.

فالكتابات الأنثويّة كغيرها من الكتابات الذّكوريّة، ليست نصوصا هامشيّة لمبدعات مُهمّشات، وهذا ما ردّته النّاقدة المغربيّة رشيدة بنمسعود إلى أدب إثبات الذّات والهُويّة، داعية جمهور القرّاء إلى ضرورة التّطرّق لهذا النّوع الإبداعي غير المألوف[1].

إذن، هي حقيقة تهميش الأنا الأنثويّة على الرّغم من تجاوز عتبات التّاريخ البائد ونظرته المُجحفة لها، إلّا أنّ الرّاهن حتّم عليها إمّا الرّضوخ أو الرّفض لسطوة وتهميش الآخر.

بغضّ النّظر عن هامشيّة الأنا الأنثويّة من بادرة الإبداع النّسوي ومُخلّفاته، عَثرنا على عديد الكتابات الذّكوريّة، الّتي عكست حقيقة الأنا المهمّشة جرّاء الاختلاف الدّيني والعرقي بين شعب واحد مشترك في الهُويّة والوطن.

هذا، بالتّحديد ما ذهب إليه الكاتب الموريتاني الجنسيّة أحمد ولد الحافظ في روايته: (عناقيد الرّذيلة)، الّتي أفصح فيها عن واقع الأنا الضّائعة، كحقيقة التّمييز العنصري واللّاعدالة بين ذوي البشرة السّمراء والبيضاء في موريتانيا؛ حيث ندّد بالتّساوي العرقي[2].

على هذه الشّاكلة، تتمثّل حقيقة الأنا المُهمّشة داخل رواية عناقيد الرّذيلة؛ إذْ صوّرت ملامح التّهميش العُنصري بين أبناء الوطن الواحد.

حملت رواية خطيئة مريم (لعلّاوة كوسة) من الجزائر أبعاد التّهميش الأنثوي، جرّاء فعل الخطيئة الذّي دفع ثمنه عيسى بطل الرّواية، وفي ذلك تقول مريم بطلة الرّواية: "عيسى يا أستاذي، مجهول النّسب، مجهول الوالدين، مجهول الهويّة، مازال يتجرّع مرارة الفقد في بطن

---

[1] ينظر: رشيدة بنمسعود: إستراتيجيّة الكتابة النّسائيّة، مجلّة عالم الفكر، عدد:01، م:02، المجلس الوطني للثّقافة والفنون والآداب، الكويت، 1991م. ص:121.

[2] ينظر: فاطمة محمّد: أسماء روايات عربيّة 2022م (فكرة موسوعة عربيّة تهتمّ بجميع المجالات)، على الرابط: https://www.Fekra.com

تم الاطلاع عليه يوم:2022/12/08م، على السّاعة:20:29.

الفصل الأوّل: الذّات والهويّة: المَاهِية والتَّمَظهُرات في الخِطاب الرّوائي العربي

حوت بأعماق بحار شاسعة ولا يفقه التّسبيح..رحلت عمّتي إلى مثواها الأخير.. تزوّج زوج عمّتي بعدها بأيّام قليلة، طرد عيسى إلى بيت جدّه"[1].

يَتَّضِح من كلام مريم أنّ عيسى بن عمّتها مجهول النّسب فاقد لأناه الحقيقيّة تائه، شبيه بالحوت الضّائع في أعماق البحار دون دليل.

وهكذا، حملت الرّواية العربيّة صورة الأنا الهامشيّة، بصرف النّظر ما إذا كانت إبداعا نسويّا يُعاني تهميش مُجتمع القرّاء والنّقاد، أو كانت انعكاسا لحقائق ذوات مُهمّشة واقعيّة ضمن محيط مُعين، وهذه هي حقيقة الأنا المُهمّشة في راهن متقلّب الأحداث.

2- تشيّؤ الأنا:

تُعَدُّ ظاهرة تشيّء الأنا من القضايا المُثارة على السّاحة الأدبيّة، وهذا راجع بالأساس لمُعاناة الإنسان العربي ضمن راهنه المُضْطرب، فالشّيئيّة أنْ يصير الإنسان فارغا من أناه مُجرّدا من حُضوره، ومنه "قامت ظاهِرة التّشَيُّؤ على مبدأ تحوّل الصّفات الإنسانيّة إلى أشياء جامدة"[2].

من هنا، تحوّلت ملامح الأنا الإنسانيّة المَعروفة بالحيَويّة إلى السّكون كالجماد، فالإنسان يفقِدُ حَرَكيّته حينما يَعْجز عن مُواصلة الحياة وسط ظُلم الواقع والآخر.

هذا ما تبنّته الرّواية العربيّة موضوعا مُسْتَجدًّا فرضته ظروف الحياة، كاشِفة بِصدق واقع الأنا العربيّة المُزري، فمن التّجلّي الحقيقي صارت غيابا كُليّا للفرد، الّذي امّحت أنسنته فأصبح شيئا جامدا لا روح فيه، وهنا كان الغياب على الرّغم من التّواجد الجسدي.

من ذلك، ارتكزت الكتابات الرّوائيّة على تقديم صورة حقيقيّة للأنا الشّيئيّة، قصد إبراز ملامح التّجريد الجِذري، على هذا الأساس أخذت رواية (رجال في الشّمس) للكاتب الفلسطيني غسّان كنفاني تمثيلات للواقع الظّالم، الّذي يجبر الإنسان بالتّخلّي عن إنسانيّته

---

[1] علّاوة كوسة: رواية خطيئة مريم، الرّاوى للنّشر والتّوزيع، دد، ط1، 2017م. ص:80-81.

[2] ينظر:يحيى البشتاوي: أزمة الإنسان في الأدب المعاصر، دار ومكتبة الكِندي للنّشر والتّوزيع، الأردن، ط1، 2014م. ص:12.

الفصل الأوّل: الذّات والهويّة: المَاهِية والتَّمَظهُرات في الخِطاب الرّوائي العربي

فيصير شيئا جامدا داخل خزّان مائي، يقول المُهرّب لأسعد ومروان: "الطّقس كالآخرة هناك في الدّاخل"[1].

هذه إشارة تحذيريّة صرّح بها المُهرّب، لكنّ اقتناص الحياة الجيّدة والعمل حالا دون تراجع الضّحايا أصحاب الصَّرخة الأخيرة؛ إذْ امتثلوا للمواصلة والتّقوقع كأشياء داخل صهريج الموت.

وهكذا، ارتسمت صورة القبر الّذي بات رميا لثلاث جثث بمكبّ للقمامة، بصورة مُنافية لمعالم الإنسانيّة.

يُبَيِّنُ الرّوائي(يوسف السّباعي) في رواية:(بين الأطلال– اذكريني) لذّة الحبّ المصحوب بالعذاب والانتظار بين أطلال الماضي والذّاكرة، الّتي كادت أن تُنهي بداية لم تبدأ، فسامية وكمال وقعا في حالة تشيّءٍ للأنا لحظة كشف سرّ الوالدة الحقيقيّة لهما من خلال الصّورة، تقول سامية وصفا لحالة أمّها: "وضعت رأسها في كفّها وبدأت تضغط بأصبعها على وجنتيها، وقد أغمضت عينيها وشحب وجهها، وبدت تُقاسي ألما أو كأنّها توشك أن تروح في غيبوبة"[2].

هي الصّدمة الّتي أَدَّتْ دورها في تجريد الأشخاص من حياتهم، هذا واقع أمّ سامية الواقعة تحت عصف الذّاكرة والحنين للماضي.

فالرّواية، تكبّدتها صورة للمعاناة والتّضحية بالابن مقابل الحبّ المستحيل، الّذي جعل من أمّ كمال مظهرا للأمّ العابثة الرّاكضة خلف رجل ليس لها، هذه حقيقتها ربّت ابنة حبيبها وأبعدت ابنها بدافع البقاء على زمن وأطلال الحبيب الأوّل كشيء جامد.

ومن منطلق الأنا الحرّة، تتبادر إلى أذهاننا أسئلة لا يخلو منها الفكر العربي، الّذي اقتصر على البحث في أصل الأنا للوصول إلى الحقيقة المُطلقة، بهدف كسر سكون شيئيّة الإنسان العربي، "فبمجرّد ما نولد تصبح الحياة بالنّسبة لنا سؤالا لابُدّ أنْ نُجيب عنه، وهو

---

[1] غسّان كنفاني: رواية رجال في الشّمس، دار منشورات الرّمال، قبرص، ط1، 2013م. ص:73.

[2] يوسف السّباعي: رواية بين الأطلال(اذكريني)، مصوّرة، دد، دط، دت. ص:86.

الفصل الأوّل: الذّات والهويّة: المَاهِية والتَّمَظهُرات في الخِطاب الرّوائي العربي

سؤال لا يمكن أن نُجيب عنه عن طريق عقلنا ومُخّنا؛ بل عن طريق كلّ وجودنا الإنساني، وليس هناك إلّا جوابان إمّا أنْ نتقهقر، أو نُطوّر إنسانيّتنا، إنّ الكثير من النّاس، إذن: لم نقل أغلبيّة النّاس، يُحاولون اليوم تجنّب الجواب وملْء الوقت بما يُسمّونه ترفيها وتخريبا وحرّيّة"[1].

من هذا المنظور، اسْتُلزم علينا معرفة حقيقتنا وإدراكها لتجنّب الوقوع في متاهات الأسئلة دون إجابة.

لعلّ ما يُمكننا الحديث عنه، هنا: شيئيّة الأنا في رواية (نحن لا نزرع الشّوك) للكاتب يوسف السّباعي، الّذي أبدع في تصوير الأنا الجامدة من خلال شخصيّة (سيّدة) الفتاة اليتيمة، تقول إحدى المتواجدات بمنزل سيّدة: "مات أبوك يا سيّدة، ولن يعود..وعليك أن تواجهي زوجة أبيك وحدك، ومن جديد عاودها الإحساس بالفراغ الموحش الّذي تقف فيه، لم يعُد يملأ ناظرها كلّ هذا الزّحام"[2].

هذا ما طُبع على(أَنَا) سيّدة الّتي باتت فراغا موحشا يُحاوطها من كلّ الجوانب وسط زُحام البشر واكتظاظ المكان، الّذي رماها في دوّامة التّشظّي والسّكون.

فالحقيقة الصّادمة جعلت من الأنا شيئا جامدا دون روح، ومن هنا انزاحت غشاوة الحياة بلذّتها من مُخيّلة (بطلة الرّواية سيّدة).

في رواية (دعاء الكروان) للكاتب المصري المعروف طه حسين، انعكست شيئيّة الأنا في أسمى تمظهراتها؛ حيث تجلّت صورة الفقد والتّشيّء عند (هنادي وآمنة وزهرة) لحظة إقدام (الخال ناصر) على عمليّة قتل (هنادي) غسلا للعار الّذي طال العائلة.

---

[1] إيريك فروم: الإنسان المستلب (وآفاق تحرّره)، ترجمة: حميد لشهب، شركة نداكوم للطّباعة والنّشر، الرّباط، دط، 2003م. ص:132.

[2] يوسف السّباعي: رواية نحن لا نزرع الشّوك، دد، دط، دت. ص:56.

الفصل الأوّل: الذّات والهويّة: المَاهِية والتَّمَظهُرات في الخِطاب الرّوائي العربي

فعمليّة القتل خلّفت آثارا بشعة على نفسيّة الأخت (آمنة)، الّتي استسلمت لشيئيّة الحضور غلى الرّغم من جمالها ونظارة وجهها، إلّا أنّ شبح أختها لازمها وهذا ما جعلها عبدة للماضي الظّالم.

كانت هذه هي الأسباب الّتي قالت عنها (آمنة): "منذ ذلك الوقت تمّ العهد بينك وبيني أيّها الطّائر العزيز على أنْ نذكر هذه المأساة كلّما انتصف اللّيل حتّى نثأر لهذه الفتاة الّتي غودرت في هذا الفضاء"[1].

إنّ مشهد الفاجعة جعل من (آمنة) تعيش داخل دوّامة تكرار الأحداث كلّ ليلة، تقديرا منها لروح أختها الّتي قُتلت ودُفنت كشيء لا قيمة له.

خَصَّصت الرّوائيّة المغربيّة (فاتحة مرشيد) روايتها (المُلْهَمات) لمُعاناة المرأة العربيّة بعد الزّواج ووقوعها بالمشاكل، وهذا ما كشفت عنه من خلال ما جرى مع بطلة روايتها (أمينة وحماتها مريضة الزّهايمار)، تقول أمينة: "أنا لا حيّة ولا ميتة.. أنا مُجرّد كيس من الهرمونات ترهّل مع الزّمن"[2].

والحقيقة أنّ: مشاكل الحياة تؤدّي بالأنا الفرديّة للانسلاخ من حضورها البشري؛ إذْ تُصبح بحكم الواقع المُزري شيئا لا قيمة له.

نقف من جديد، عند قضيّة شيئيّة الأنا من خلال رواية واسيني الأعرج (أُنثى السّراب)، الّتي دمج الرّوائي فيها بين صُورتَي المرأة المُتخيّلة والواقعيّة؛ إذْ أضفى على جسديّة المرأة نوعا من الشّيئيّة الخياليّة، فاسِحا المجال أمام القارئ للكشف العميق عن جماليّة التّجسيد الأنثوي.

ولذلك، امتزجت حقيقة المرأة عند واسيني الأعرج بجماليّة الصّورة الشّيئيّة المثيرة لمشاعر السّكينة والإبداع، فهي في نظره رمز للرّاحة النّفسيّة، يقول: "هل يمكن قتل امرأة ورقيّة تُشبه

[1] طه حسين: رواية دعاء الكروان، مؤسّسة هنداوي، دد، دط، 2013م. ص:12.

[2] فاتحة مرشيد: رواية المُلهِمات، المركز الثّقافي العربي، الدّار البيضاء– المغرب، ط1، 2011م. ص:23.

الفصل الأوّل: الذّات والهويّة: المَاهِية والتَّمَظهُرات في الخِطاب الرّوائي العربي

الحياة قليلا، لا حياة لها إلّا داخل الكتب والقلوب؟ أضع كلّ هذا الجنون المشتهى بين أيدي القرّاء(...) ولا ضامن لنا في هذه المغامرة المجنونة الّتي يتقاسمها كاتب من لحم ودم، مع امرأة من ورق وحبر"[1].

هو جنون الكتابة الّذي يقود المبدع للتّجاوز، وهو بالضّبط ما قام به الرّوائي الجزائري واسيني الأعرج في: (أنثى السّراب)، الّتي تقاسم صفحاتها مع أنثى مُتخيّلة.

يضيف مُسترسلا في حديثه مع أنثاه: "امرأة ورقيّة تقتل كائنا من لحم ودم؟"[2]، فَمِن دلالات استفهامه أنّه أراد استجواب أناه، الّتي صارت مع مرور الوقت شيئا كأنثاه الورقيّة.

وهكذا، تجلّت شيئيّة الأنا في رواية: (أنثى السّراب)؛ إذْ تجاوز الكاتب من خلالها حدود المعقول.

أمّا رواية (الأسود يليق بك) للكاتبة الجزائريّة أحلام مستغانمي فقد حملت أثقالا من شيئيّة الأنا، هذا بالضّبط ما حدث مع بطلة الرّواية الّتي عزفت عن نزع اللّون الأسود، تقول: "ظننت أنّك أحببت حدادي حين كتبت لي الأسود يليق بكِ"[3]، هي المغامرة والتّحدّي فالأسود دليل القوّة والثّبات، لكنّه في هذه الحالة رمزٌ للألم المستمرّ.

وكتخريج عام، نُدرك أنّ شيئيّة الأنا ما هي إلّا انعكاس صادق عن الفشل في ممارسة الحياة بصورة سليمة.

ثالثا: أسئلة الهُويّة وتمثّلاتها في الرّواية العربيّة

يأخذنا الحديث عن الهُويّة التّطرّق لمآزقها، الّتي باتت أمرا يؤثّر سلبًا على حضورها، على الرّغم من تجلّيها الرّاهني إلّا أنّها شكّلت مُنعطفا جدليّا يُفسّر غيابها.

---

[1] واسيني الأعرج: رواية أنثى السّراب، الصّدى للصّحافة والنّشر والتّوزيع، الإمارات العربيّة المتّحدة، دبي، ط1، 2009م. ص:14.

[2] المرجع نفسه، ص:28.

[3] أحلام مستغانمي: رواية الأسود يليق بكِ، النّاشر هاشيت أنطوان، بيروت، دط، 2012م. ص:46.

الفصل الأوّل: الذّات والهويّة: المَاهِية والتَّمَظهُرات في الخِطاب الرّوائي العربي

هذا واقع الهُويّة العربيّة الموشكة على التّلاشي جرّاء عامل التّغييب الذّاتي، لذلك لجأ الإنسان العربي للتّساؤل بحثا عن هُويّته المفقودة.

من ذلك، تبنّت الرّواية العربيّة المُعاصرة نهج السّؤال والتّطرّق للمواضيع الجدليّة، غرض الكشف عن خبايا الواقع وأثره على حضور الإنسان مع ذاته وغيره.

1- الهُويّة ورحلة البحث عن الذّات:

تحتاج الهويّة إلى إثبات يُحدّدها وُجودا داخل الأفراد والجماعات، فهي حقيقة لا بُدّ من امتلاكها لترسيخ الحضور ضمن الواقع.

بيد أنّنا في حالة بحث مستمرّة عن هُويّاتنا المُغيّبة لإثبات حضورنا الواقعي، هذا ما دفع بالعقل العربي للتّساؤل عن ذاته وأصله لإزاحة لبس الهُويّة، الّتي أصْبَحت حقيقة يصعب الإمساك بها لحساسيّتها جرّاء الرّاهن وتجاذبات أحداثه المتسارعة.

من ذلك، يقول صالح خليل أبو أصبع، إنّ: "الهزائم الّتي تقود الفرد إلى الانتكاس وتعوّد النّفس على الانهزام؟ وتحوّل كاتب مناضل ذات يوم إلى صوت مهزوم بدعوى العقلانيّة والواقعيّة وحريّة الرّأي؟"[1]؛ نفهم من ذلك، أنّ واقعنا المعيش مليء بالانتكاسات السّياسيّة والاجتماعيّة والنّفسيّة وغيرها، وهذا ما ينعكس سلبًا على الرّوح الإبداعيّة للكاتب بعدما كان في وقت مضى يتّصف بالرّشد والعقلانيّة وحُريّة الرّأي.

يُضيف أمين معلوف مُكرّسا لحقيقة الإنسان العربي الممزّق الهُويّة والذّات: "يحدُث لي أحيانا، أن أقوم بما أدعوه تفحّص هُوُيّتي، مثلما يقوم بعضهم الآخر بتفحّص ضمائرهم، وربّما فهمنا أنّني لا أهدف لأن أعثر في ذاتي على انتماء أساسي أتعرّف إلى نفسي من خلاله؛ بل إنّني أتبنّى الموقف المعاكس، فأنا أبحث في ذاكرتي لأكشف عن أكبر عدد من عناصر هُوُيّتي وأجمعها وأرتّبها ولا أُنكر أيّا منها"[2].

---

[1] صالح خليل أبو أصبع: مرآة الزّمن قراءات في الثّقافة والأدب، ص: 288.

[2] أمين معلوف، الهويّات القاتلة، ص:19.

الفصل الأوّل: الذّات والهويّة: المَاهِية والتَّمَظهُرات في الخِطاب الرّوائي العربي

يعني ذلك؛ أنّ فقدان الذّات يقود الإنسان لعمليّة تفحّص الذّاكرة للوصول إلى العناصر المشكّلة للهُويّة الأصليّة وجمعها معا كي يحصل التّكامل الذّاتي.

فالحقيقة الغائبة تدفع الإنسان للبحث عنها، وهو ما تناولته الرّواية الّتي تضمّنت مواضيع أزمات الهويّة والبحث عن الذّات الحقيقيّة.

ففي رواية (الحبّ ليلا في حضرة الأعور الدّجّال) للرّوائي الجزائري عزّ الدّين جلاوجي، عُكِست ملامح الحيرة الانتمائيّة للفرد الجزائري إبان الفترة الاستعماريّة، طُرح الموضوع على شكل مزاوجة بين الحقيقة الغائبة والبحث عنها.

لكنّ الكاتب ركّز في روايته على التّاريخ التّسلسلي من خلال الرّجوع للماضي لترسيخ الهويّة، يقول الرّوائي عزّ الدّين جلاوجي: "الحبّ ليلا في حضرة الأعور الدّجّال هي الثّامنة في المنجز الرّوائي الجلاوجي، وهي الجزء الثّاني من مغامرة سرديّة أرادها صاحبها في خمسة أجزاء، ترصد ما يقرب قرن من التّحوّلات الكبرى الّتي لحقت المجتمع في كلّ مجالات الحياة، ولكنّه رصد يأنف عن التّسجيل والتّأريخ ليعانق الفنّي والجمالي"[1].

إذن، هو مزج بين العمل الفنّي الأدبي والتّسجيل التّاريخي لأحداث قديمة، تُفصح عن حياة مجتمع بأسره عانى فقدان الهويّة.

إلى مِثل هذا الفهم يذهب (صالح خليل أبو أصبع) قائلا: "إنّ تُراث الماضي للذّات القوميّة مُجرّد تُراث تركن إليه؛ بل هو عناصر تشكّل لُحمة بناء الذّات الّتي ترتكز عليها وتُعطيها من الخصائص ما يُميّزها عن الآخرين، فتُراث أيّ أمّة هو نُقطة ارتكاز لبنائها وحماية شخصيّتها، إنّه الهُويّة التّاريخيّة للأمّة"[2]، نفهم أنّ اللّجوء للتّاريخ ترسيخ لحضور الهُويّة؛ إذْ عُدّ ارتكازا لبنائها مِنْ منظور أعثر على هُويّتي من خلال تاريخ أمّتي.

---

[1] عز الدّين جلاوجي: رواية الحبّ ليلا في حضرة الأعور الدّجّال، دار المنتهى للطّباعة والنّشر والتّوزيع، الجزائر، ط1، 2017م. الغلاف الخارجي للكِتاب.

[2] صالح خليل أبو أصبع: مرآة الزّمن قراءات في الثّقافة والأدب، ص:299.

الفصل الأوّل: الذّات والهويّة: المَاهِية والتَّمَظهُرات في الخِطاب الرّوائي العربي

فهويّتنا حقيقة مُغيّبة زمانيّا من قبل الآخر وثقافته المُمارساتيّة على الذّات العربيّة، الّتي صارت وللأسف حلقة مفقودة يبحث عنها كلّ فرد عربي.

لجأ كثير الرّوائيّين لمسألة الهُويّة العربيّة من باب الطّرح السّؤالي، قصد إزاحة لُبس الوجود وتثبيتا لهويّتهم، وهو ما امتازت به رواية (يالو) للكاتب اللّبناني إلياس خوري، الّتي رسم بواسطتها لوحة متكاملة تعكس محنة الهُويّة عند الإنسان الواقع تحت سطوة الحرب وخيانة الحبّ.

فسؤال الهُويّة والبحث عن الذّات حقيقة الفرد العربي المُضطهد، يقول بطل الرّواية يالو: "أوّل القصّة طفل يُدعى هابيل جبرائيل أبيض، ولد في قرية عين ورد المجاورة لطور عابدين، في بلاد لا اسم لها؛ لأنّها بلاد شعب لم يعُد موجودا، هناك في بداية القرن العشرين حصلت مذبحة هائلة قام بها الأتراك وحصدت حوالي مليون ونصف مليون أرمني، إنّها المذبحة الّتي يتذكّرها إخواننا الأرمن كلّ عام(...) أمّا مذبحة جدّي فلا يتذكّرها أحد؛ لأنّها كانت مذبحة صغيرة مُلحقة بمذبحة كبيرة، ويل لشعب يُذبح في مذبحة جانبيّة؛ لأنّ الجزّار لن يجد من الضّروري مسح الدّم عن سكاكينه"[1].

أمّا صورة الهُويّة الغائبة دلّت عليها المذابح والانتهاكات في حقّ الشّعوب، فكأن تقول: بلاد لا اسم لها، أو شعبا لم يعُد موجودا كفيل بتصوير ملامح فقدان الهُويّة.

من ذلك، عدّت هواجس الهُوُيّة من أكثر القضايا شيوعا في عصرنا الرّاهن، لما حملته من استشكالات الفرد وحقيقته؛ حيث جعلته إنسانا غير سويّ عاريا من ثبوتيّة، وعلى هذا الأساس يميل العقل العربي لفضاء السّؤال عن الحقيقة الأصليّة، الّتي تبتدئ عادة من سؤال الذّات لذاتها ونقدها حتّى يصير سؤالها الأساس هو كيف نُفكّر مع الذّات ضدّ الذّات؟[2].

يتّضح لنا، أنّ السّؤال عن الحقيقة ينطلق دائما من الإنسان ذاته، فهو من يُعاني فجوات الحضور الرّاهني مع ذاته وغيره، فالذّات العربيّة حمولة فارغة من الحُضور.

---

[1] إلياس خوري: رواية يالو، دار الآداب للطّباعة والنّشر، بيروت–لبنان، ط1، 2002م. ص:353–354.

[2] ينظر: عمر مهيبل: من النّسق إلى الذّات، الدّار العربيّة للعلوم ناشرون، بيروت– لبنان، ط1، 2007م. ص:76.

الفصل الأوّل: الذّات والهويّة: المَاهِية والتَّمَظهُرات في الخِطاب الرّوائي العربي

يبدو جليًّا أنّ الحقيقة الغائبة، تُحيل الإنسان طوعا لرحلة البحث عن أصله: "على اعتبار أنّ الكائن موضع التّساؤل، هو كائن فردي هو في العمق يلعب مجرّد دور، من خلاله تعبر معطيات وأوامر الحياة النّفسيّة الجماعيّة عن نفسها"[1].

والمعنى؛ أنّ الإنسان الكائن الوحيد الّذي يستطيع التّفكير في ذاتويّته؛ إذْ تُجبره الظّروف المعيشيّة الصّعبة على الحفر في الذّاكرة للوصول إلى أصله الحقيقي بالرّغم من انتمائه للجماعة.

إذن، فنحن بحاجة إلى ثبوتيّتنا مرتكزات لحضورنا الواقعي، فحقيقة الأسئلة الّتي لا تنتهي ورحلة الثّبوتيّة المُستعصية الوُجود وحقيقة الهُويّة الغائبة: "أسئلة يصعب الآن الإجابة عنها بسهولة؛ لأنّ المرء في (دخيلة نفسه)، أو في عمق كَنَهِهِ أمرٌ لا يُمكن وصفه ولا التّعبير عنه بشكل تامّ"[2].

فالتّساؤل قائم من باب الحقيقة الّتي نبحث عنها مُكمّلًا حضوريًّا، فالذّات العربيّة منشطرة بين الحضور والغياب.

وعليه، تجلّت الأسئلة الجِذريّة بشكل لافت في رواية (المتشائل الوقائع الغريبة في اختفاء سعيد أبي النّحس المتشائل) للكاتب الفلسطيني إيميل حبيبي، الّذي أدرج بشكل لافت للانتباه ملحمة تاريخيّة ميليو دراميّة تحكي حقيقة الفرد الفلسطيني والعدوان الإسرائيلي؛ إذْ غلب عليها الطّابع التّساؤلي من باب رحلة البحث عن الهُويّة.

مِمّا يدعَم ميلنا إلى هذا التّناوُل، قول سعيد المتشائل: "متى كانت البداية؟ كانت البداية حين ولدت مرّة أخرى بفضل حمار، ففي الحوادث كمنوا لنا وأطلقوا الرّصاص علينا فصرعوا والدي رحمة اللّه عليه، أمّا أنا فوقع بيني وبينهم حمار سائب فجندلوه فنفق عوضا عنّي،

---

[1] عزيز لزرق، محمّد الهلالي: الشّخص، ترجمة: عزيز لزرق ومحمّد الهلالي، دار توبقال للنّشر، الدّار البيضاء– المغرب، ط1، 2010م. ص:49.

[2] جون جوزيف: اللّغة والهويّة (قوميّة– إثنيّة– دينيّة)، ترجمة: عبد النّور خرّاقي، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثّقافة والفنون والآداب، الكويت، دط، 2007م. ص:05.

الفصل الأوّل: الذّات والهويّة: المَاهِية والتَّمَظهُرات في الخِطاب الرّوائي العربي

أنّ حياتي الّتي عِشتها في إسرائيل بعد هي فضلة هذه الدّابة المسكينة، فكيف علينا أن نقوّم حياتي يا أستاذ؟"[1].

هي الأقدار الّتي تفصل بين الحياة والموت، فالبداية تكون حينما يولد الإنسان مرّة أخرى حسب قول سعيد المتشائل؛ لأنّ الحياة في إسرائيل كفيلة بعكس صورة الفلسطيني المجرّد الهُويّة.

فاستلاب الهُويّة قضيّة العصر الّذي أصبح ساحة للمعارك الّتي لا تنتهي، لهذا ركّز علماء النّفس على مسألة الانقسام الذّاتي أو تشظّي الهُويّة حسب كارل غ. يونغ: "إحدى اللّعنات الّتي يُعاني منها الإنسان الحديث هي أنّ كثيرا من النّاس يعانون من هذا الانقسام في الشّخصيّة"[2].

وبهذا يتّضح، أنّ كلّ بناء للهُويّة ترسيخ لحضورها الواقعي، الّذي بات مُشكلة للعصر فمن غير المنطقي الاستسلام للآخر وضغوطاته المُختلفة، فهنالك: "أزمة عالميّة هي أزمة الإنسان المعاصر والعقل الكوني في مواجهة المشكلات والعقلانيّات المسيطرة، الّتي تزداد تأزّما وتعقيدا، كما هي حال المشكلات الأمنيّة بشكل خاصّ؛ حيث مُحاربة الإرهاب تُولّد المزيد من العنف الأعمى والقتل المجّاني والعمل البربري"[3].

من هذا المنطلق، نجد أنّ: أزمات الإنسان المعاصر ما هي إلّا استدعاءات للهُويّة الغائبة والحقيقة المخفيّة، فهي مرآة تُصويريّة لواقع مرير جُرّد فيه الإنسان من ثبوتيّة.

---

[1] إيميل حبيبي: رواية الوقائع الغريبة في اختفاء سعيد أبي النّحس المتشائل، دار ابن خلدون، بيروت– لبنان، ط2، 1989م. ص:16.

[2] كارل غ. يونغ: الإنسان ورموزه (سيكولوجيا العقل الباطن)، ترجمة: عبد الكريم ناصيف، دار التّكوين للتّأليف والتّرجمة والنّشر، دمشق– سوريا، ط1، 2012م. ص:20.

[3] علي حرب: أزمنة الحداثة الفائقة (الإصلاح، الإرهاب، الشّراكة)، ص:15.

الفصل الأوّل: الذّات والهويّة: المَاهِية والتَّمَظهُرات في الخِطاب الرّوائي العربي

فالغاية من التّساؤل عن الحقيقة إثبات حضور الذّات الأصليّة؛ يعني أنّ: "التّجربة الّتي نمرّ بها هي من أجل الذّات ومع الذّات، لذلك فإنّ حضورها الحقيقي يُغيّر كلّ شيء، ويُعيد تعريفه في مشاركة تخلق الواقع وتُشكّله"[1].

ومنه، عُدّت تجارب الرّاهن وسيلة للكشف عن حقيقة الوجود الانتمائي، فالذّات لا يمكنها إثبات حضورها دون ارتكازها على الواقع ومجرياته.

وعليه، جعلنا من الحقيقة ارتكازا لنا كي ننطلق منها إلى داخلنا فخارجنا مُحيلين بذلك أنفسنا منّا وإلينا؛ لأنّ: "الإنسان لا يُمكنه أنْ يجد معنى لوجوده خارج حدود ذاته، وإنّ البحث عن معنى الحياة موجود في طبيعته الإنسانيّة"[2]، نفهم من ذلك، أنّ الإنسان يجب أن يعي ذاته بمفرده، فهو موجود ما دام على يقين أنّه كذلك.

وهكذا، تجلّت أسئلة الهُويّة في الرّواية العربيّة، الّتي جعلت من فضاء الرّاهن بأحداثه مسرحا شاهدا على فقدان الهُويّة والذّات العربيّة، من منطلق أزمات الإنسان المعاصر.

2- الهُويّة في مواجهة الآخر:

تحْكي الهُويّة العربيّة بين الثّابت والمُتحوّل واقع الأزمات في ظلّ الآخر، فهي بذلك تكشف عن طبيعة العلاقة بين الأنا العربيّة وغيرها وحجم الصّراع الوجودي، الّذي يُفصح عن تفاوت حضاري واستلاب مباشر للهُويّة العربيّة.

فالهُويّة، هي ذلك الكلّ الّذي يُشكّلنا ويثُبتنا حاضرين مرئيّين مع الآخرين وأنفسنا، فهي المنفذ الوحيد لمعرفة الحقيقة الذّاتيّة عبر الأزمنة والأمكنة؛ حيث: "تُستعمل للإشارة إلى المبدأ الدّائم الّذي يسمح للفرد بأنْ يبقى هو هو، وأنْ يستمرّ في كينونته عبر وجوده السّرمدي على الرّغم من التّغيّرات الّتي يعيشها أو يُعانيها"[3].

---

[1] محمّد هاشم الماحي، كينونة ذات، ص: 110.

[2] تدهاريس، وآن لاغرستروم، أنصت إلى ذاتك، ترجمة: أثمار عبّاس، دار نينوى للدّراسات والنّشر والتّوزيع، سوريا- دمشق، دط، 2012م. ص:17.

[3] حسن شحاتة، الذّات والآخر في الشّرق والغرب (صورة ودلالات وإشكالات)، ص:64-65.

الفصل الأوّل: الذّات والهويّة: المَاهِية والتَّمَظهُرات في الخِطاب الرّوائي العربي

ومن ثمّة لا نعدو الصّواب، أو نبتعد عن المعنى الحقيقي للهويّة؛ حيث وجدناها ورقة ترسيخ للفرد في الواقع، فهي مرآة صاحبها تقول سعيدة بن بوزة، إنّ: "الهُويّة تعني تطابق الشّيء مع ذاته"[1]؛ إذن: دلّت الهُويّة على معنى تطابق الإنسان مع ذاته، الّتي يُقصد بها إدراكه لحقيقته.

تناولت الرّواية العربيّة موضوع الهُويّة في مواجهة الآخر، الّذي عُدّ المعيق الأساس لترسيخ الأفراد فهو: "الكُلّيّة المزدوجة للكينونة الذّاتيّة وتُقوّضُها في الآن نفسه، وهو يتداخل ويتمرأى في سلسلة غير مُنتهية، تبدأ من أدقّ الانشطارات الذّاتيّة في علاقة الذّات بالذّات"[2].

فالآخر، تمثيل لحضور الذّات بالرّغم من اختلافه عنها: "فالإنسان الواحد ينقسم إلى قسمين: هويّة وغيريّة، أو يشعر بالاغتراب إنْ مالت الهويّة إلى غيرها، أو انحرفت إليه"[3]، وفي هذا السّياق تتجلّى حقيقة الهُويّة الّتي اقتصرت على الحضور المزدوج للذّات في شكلها الأصلي (ذات/آخر).

ففي رواية (وطن من زجاج) للرّوائيّة الجزائريّة (ياسمينة صالح) انعكست صورة الآخر الّذي اقتصر حضوره على هدم الذّات والهُويّة، حيث تقول: "حين نستيقظ صباحا ولا نجد وطنا نتّكئ عليه نكتشف حِدّة اليُتم والفراغ المَهُول الّذي نجرُّه يوميّا في عُمرنا الجاهز للانكسار، واللّا أمل"[4].

ومِنْ هُنا؛ تتّضح أبعاد الفراغ من الهويّة حينما تصف الرّوائيّة نفسها وشعبها باليُتم، مُكرّسة بذلك حالة غياب الوطن.

---

[1] سعيدة بن بوزة، الهُويّة والاختلاف في الرّواية النّسويّة في المغرب العربي، دار نينوى للدّراسات والنّشر والتّوزيع، دمشق– سوريّة، ط1، 2016م. ص:23.

[2] صلاح صالح، سرد الآخر (الأنا والآخر عبر اللّغة السّرديّة)، المركز الثّقافي العربي، الدّار البيضاء– المغرب، ط1، 2003م. ص:10.

[3] حسن حنفي حسنين، الهويّة (مفاهيم ثقافيّة)، ص:11.

[4] ياسمينة صالح: رواية وطن من زجاج، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2006م. ص:05.

الفصل الأوّل: الذّات والهويّة: المَاهِية والتَّمَظهُرات في الخِطاب الرّوائي العربي

فاللّا أمل من الحضور المكاني سببه فقدان الهُويّة والتّاريخ المُشكّل لجُذور الجزائري، فتعرية الآخر المُحتلّ دليل يعكِسُ أبعاد الانتهاك، فالوطن الجزائر صار كزُجاج سهل الانكسار الّذي يصعب لملمة شظاياه إنْ انكسر.

هذا، واقع الهُويّة الجزائريّة إبّان الحقبة الاستعماريّة وطن بلا حُضور، أو وطن محْظور ففرنسا كرّست كلّ السُّبل لسلب الهُويّة الجزائريّة.

فالفراغ من الهُويّة وصوت الأنا الجزائريّة الجريحة تُفضي بنا لهيئة الآخر، الّذي يرسم معالم الموت والقلق كمُحدّدات للحضور الجزائري، وما سؤال الهُويّة إلّا دليل يعكس غيابها، تقول الرّاوية: "من أنا؟ لعلّي أُفكّر في تفاصيل البِداية الّتي ظلّت تُطاردُني كما ظلّت تربِطُني إلى قناعاتي القديمة بأنّي لا أُمثّل شيئا في النّهاية"[1].

هي صورة الجزائري الفاقد لهُويّته الذّاتيّة والوطنيّة، الّتي تُجبره الوقوع في مكائد الأسئلة الذّاتيّة، فتمثيل الذّات بالشّيء دليل واضح على فقدانها.

إنّ حضور الهُويّة ترسيخ للفرد وإثبات لوطنيّته وانتمائه للمكان، لكن في حالة تهميش الآخر واستلابه لمعالم الهُويّة يُصبح الفرد عاجزا عن إثبات حضوره: "عادة حين يُسأل جزائري من أنت يقول بعفويّة: والو !Rien ليعني أنّه لا شيء تماما، بكلّ ما يعنيه اللّا شيء من معنى !! حتّى عبارة جزائري حين يتباهى بعضهم بنُطقها بالفرنسيّة(ALGERIEN) تتجسّد عبارة Rien واضحة وبحروف استهلاليّة كبيرة .. لتُأكّد ذلك الـ (والو) الّذي يتجلّى أمامه .. من أنا حقًّا؟؟"[2].

في غياب الهُويّة يُصبح كلّ شيء غير واضح المعالم، كالوطن الّذي صار لا حاضرا بأعيُن أفراده، فحقيقة اللّاحضور تنفي تواجد الهُويّة الجزائريّة وأفرادها، من هنا يُفصح التّساؤل عن مأساة عُظمى أبطالها أنا وأنتَ أيّها الجزائري الغائب داخل أرضك.

---

[1] المرجع نفسه، ص:28.

[2] ياسمينة صالح: رواية وطن من زجاج، ص:26-27.

الفصل الأوّل: الذّات والهويّة: المَاهِية والتَّمَظهُرات في الخِطاب الرّوائي العربي

هي حالة التّشظّي الرّسوخي ومِحنة الغياب تحت سُلطويّة الآخر، الّذي يُفسّر لنا العلاقة بينه والهُويّة.

أمّا في رواية (نساء بروكسيل) للرّوائيّة الفلسطينيّة (نسمة العكلوك) تَبرز ملامح الإنسان العربي خارج وطنه ومدى ترابطه مع الآخر؛ حيث جاءت كتوضيح لدلالات الهُويّة الفرديّة المُتشظّية، كاشفة بذلك عن فقدان الهُويّة العربيّة الّتي أصبحت مُجرّد سؤال يطرحه الفرد العربي دون الحُصول على إجابة.

على ذلك، تقول الرّاوية نسمة العكلوك: "العرب يُرسلون أطفالهم للموت ! كان عليّ أنْ أقول شيئا وإنْ كان كلامي ثقيلا على قلبه، لا يُمكن لأمّ أن تُرسل ابنها للموت، كلّ ما هُناك بأنّ الطّفل يولد خلال الحرب يرى الموت يوميّا، فتجده مسؤولا عن قضيّة يُقاتل لأجلها(...) كلّ ما يُمكن أن أقوله بأنّ العنف يُولّد العنف"[1].

نفهم من ذلك؛ أنّ: الإنسان لا يختار هُويّته؛ بل طبيعة انتمائه للمكان والبشر تمنحه هُويّته الفرديّة والوطنيّة، فهو ليس مسؤولا عن العنف والجِذريّة الغائبة.

وهكذا، وُسِمت العلاقة بين الأنا العربيّة والآخر، فهي أنموذج حيّ للهُويّة المكسورة فنحن: "أحيانا قد لا نكون مُدركين لتعريف الآخر لنا، وهو التّعريف الّذي قد يختلف عن إدراكنا لذواتنا"[2]؛ إذْ يتبيّن أنّ: ذلك الآخر ما هو إلّا عدوّ ظالم لا يعترف بهذه الذّات، فنظرة الآخر مُختلفة عن نظرتنا نحن لذواتنا وهُويّتنا.

نَعَم، هو الاختلاف بين الهُويّات، فالهُوُيّة مُعطى نُسلّم به أحيانا على أنّه مُتأصّل فينا، لكن في كثير الأحيان تغيب جرّاء إرهاب الآخر والحروب، منه فهي: "إمكانيّة قد تُوجد وقد لا توجد؛ إنْ وُجِدت فالوجود الذّاتي، وإنْ غابت فالاغتراب"[3].

---

[1] نسمة العكلوك: رواية نساء بروكسيل، الدّار الأهليّة للنّشر والتّوزيع، عمان– الأردن، ط1، دت. صفحة الغلاف الخارجي للرّواية.

[2] أمارتيا صن: الهُوُيّة والعنف (وهم المصير الحتمي)، ترجمة: سحر توفيق، المجلس الوطني للثّقافة والفنون والآداب، الكويت، دط، 2008م. ص:22.

[3] حسن حنفي حسنين، الهُوُيّة (مفاهيم ثقافيّة)، ص:11.

الفصل الأوّل: الذّات والهويّة: المَاهِية والتَّمَظهُرات في الخِطاب الرّوائي العربي

على هذا النّحو، تكون الهُوّيّة موجودة وواضحة عند الفرد، وبغيابها يحصل الاغتراب الذّاتي ويقع الإنسان في متاهة تشظّي الهُويّة.

فتمزّق الهُويّة دلالة جليّة عن العلاقة العِدائيّة بينها والآخر، وصورة الآخر تبقى نقيضا لنا من مبدأ المُعادات والاختلاف الثّقافي والعِرقي، منه وجب علينا التّذكير أنّ: الهُوّيّة هي الاختلاف والانتماء المشترك، ومماثلة الآخر والمماثلة عبر الآخر[1]، فليس من شكّ أنّها: تمظهر للحقيقة بين الذّاتين المُختلفتين (ذات/آخر)؛ إذْ يرزحُ تحت قِوامها حضور الفرد وإثباتاته.

اتّخذت رواية (اليهودي الحالي) للكاتب اليمني علي المقرّي منحى المواجهة بين الهُويّة الإسلاميّة واليهوديّة في شكلها المُعتاد، المنطلق من جُملة مُعتقدات قبليّة يتفشّى فيها الحقد الدّيني، لكنّ هذه الرّواية عكست بصدق التّجاوز والكسر للرّؤى القديمة حول مسلم ويهودي.

فقصّة الحبّ بين البطلين كسرت الحواجز الوهميّة بين الهُويّتين المُتعاكستين، لكن سُرعان ما أدخلهما عداء الآخر وطائفيّته في مآزق لا مناصة لهما منها إلّا بالفرار، يقول سالم بطل الرّواية اليهودي: "في صباح اليوم الثّامن من غيابي عنها، جاءت إلى منزلنا. بدت أمّي مُرتبكة وهي تستقبلها، سمِعَتها تُحدّث نفسها هامسة وهي تُحضّرُ لها القهوة: معقول؟ امرأة مُسلمة في بيت يهودي؟"[2].

وهكذا، بدت ملامح العلاقة العِدائيّة بارزة في كلّ مناحيها، فعلاقة اليهودي بالمُسلم مرفوضة ومحرّمة على حدّ علم الجميع، وهذا مَطَبٌّ وقع فيه كُلّا من فاطمة الفتاة المسلمة وسليم الصّبيّ اليهودي وما تلى الرّواية من أحداث أثبت ما قُلناه.

يقول سليم في ذلك: "في اجتماع مع اليهود بسببي، النّقاشات والحِوارات الصّاخبة الّتي كانت تجري في اجتماعات بيت الحاخام لم تعُد خافية على أحد من اليهود صغارا وكبارا،

---

[1] ينظر: كلود دوبار: أزمة الهُوّيّات (تفسير تحوّل)، ص:18.

[2] علي المقرّي: رواية اليهودي الحالي، دار السّاقي، بيروت– لبنان، ط2، 2012م. ص:14.

الفصل الأوّل: الذّات والهويّة: المَاهِية والتَّمَظهُرات في الخِطاب الرّوائي العربي

جميعها دارت حول ما تلَقَّيْتُهُ من دروس في بيت المُفتي، حتّى ظننتُ أنَّ القضيّة لن تنتهي"[1].

تعرّض والد سليم الرّجل اليهودي لمُضايقات من قِبل رجال الدّين اليهود، والسّببُ في ذلك يعود لذهاب ابنه سليم لتلقّي دروس في اللّغة العربيّة عند ابنة المُفتي المسلم فاطمة.

ففي مُواجهة الهُويّات لبعضها يحدث عادة صِدام عنيف، يعود لأسباب خفيّة أو أحقاد دينيّة وتاريخيّة قديمة بين الشّعوب والدّيانات.

هذه حقيقة العلاقة بين الهُويّتين المُتناقضتين، يقول والد سليم لفاطمة: "سأقول لكِ الحقيقة.. أنتم مكانتكم غالية وكبيرة عندنا، وأبوكم على رأسنا وعيوننا، والمسلمون كلّهم سادتنا، ولا نقول لهم: لا، أبدا"[2].

وهكذا، كانت إجابة والد سليم الّذي تحدّث بمُضمرات كشفت عن وجهات نظر مُتناقضة، يقول سليم: "لمْ أدرِ ماذا قال بعدها، كلماته القليلة هذه أدارت رأسي في الزّمن وأيقظت ذهني، لأكتشف المهانة الّتي صِرتُ منذ تلك اللّحظة، أسمعها في أصوات اليهود أُلاحظها في خطواتهم وبين أصابعهم"[3].

فإدراك سليم لحقيقة الاختلاف الدّيني جعله ينْفَتِح على نظرة الآخر اليهودي، الّذي ألصقَ به وبعائلته صفة الذّلّ والمهانة بأعين كلّ يهودي، فكلمات والده أيقظت ذاكرته وأنعشتها.

وعلى ذلك، يقول مُحمّد سيّد خليل، إنّ: "جوهر الوجود الإنساني بما هو موجود لا يتحقّق إنجازه إلّا من خلال حوار دياليكتيكي بين ذات وذوات أخرى، حوار ينبثق فيه الوعي ذلك الّذي لا يُمكن أن يكون إلّا وعيا بالآخر، وبالعلاقة معه"[4].

---

[1] المرجع نفسه، ص:14-15.

[2] المرجع نفسه، ص:15.

[3] علي المقرّي: رواية اليهودي الحالي، ص:15.

[4] محمّد سيّد خليل: صورة الذّات والآخر(دراسات في التّفاعل الاجتماعي- الرّجل والمرأة وبعض الفئات الاجتماعيّة الأخرى-)، دار الحريري، دب، دط، 2004م. ص:17.

الفصل الأوّل: الذّات والهويّة: المَاهِية والتَّمَظهُرات في الخِطاب الرّوائي العربي

نفهم من ذلك؛ أنّ الإنسان لا يُمكنه العيش بمفرده دون جماعته الّتي ينتمي إليها؛ إذْ اعتبر منذ الأزل ابنا للقطيع، وهذا ما يُثبت حاجته الماسّة لمجاورة الآخر، وهُنا تتّضح حقيقته الرّسوخيّة الّتي يُحدّدها الحِوار المُتوازن المُنبثق عن مبدأ التّعايش السّلمي في ظلّ الوعي بالآخر.

وجدنا أنفسنا مجبورين على إبراز ملامح العلاقة بين الذّات العربيّة والآخر مختلفا في الدّيانة واللّغة وكلّ شيء، حيث لمسنا أبعاده الّتي دلّت على المُغايرة والعداء، وهذا ما فسّر حالات الحرب والسّلم بين الهُويّات.

يُعلّق الأستاذ محمّد هاشم الماحي، على ذلك: "تواصُلُنا مع الآخر، وكالكثير من الأشياء الّتي تمّ تشويهه والتّأثير عليه عن طريق الخلل الّذي حلّ بوعينا الجمعيّ، فصار الصّراع جزءا من علاقتنا بالآخر، وحاجزا يحول بيننا وبين المعرفة الحقّة له ولأنفسنا المنعكسة والبارزة من خلاله"[1].

إذن، هي طبيعة العلاقة بين الذّات العربيّة والآخر المُختلف؛ إذْ باتت تشوبها الحواجز والنّظرة المُسبقة عن حقيقة الصّراع الّذي لا ينتهي.

هذا ما أفصحت عنه الرّواية العربيّة الحاملة لأبعاد الهُويّة في مُواجهة الآخر، فدلالات الاختلاف بين الهُويّات أزاحت اللّبس وكشفت عن حقيقة العلاقة.

3- تشكّلات الهوُيّة في الرّواية العربيّة المعاصرة:

تتّخذ الهُويّة العربيّة حيّزا كبيرا من اهتمام الدّارسين والكتّاب العرب، نَظير ما تحمله من تمظهرات رسوخهم، فهي انعكاس للحقيقة الحُضوريّة الّتي سُلِبت منهم.

هذا ما كشفت عنه حقيقة الرّاهن، الّذي صار مسرحا شاهدا على صراعات الهُويّة، الّتي حتّمت على الفرد العربي الرّضوخ لسَطوة الآخر، تقول النّاقدة يُمنى العيد: "يبدو المأزق في

[1] محمّد هاشم الماحي، كينونة ذات، ص: 77.

الفصل الأوّل: الذّات والهويّة: المَاهِية والتَّمَظهُرات في الخِطاب الرّوائي العربي

وجه منه قائما في علاقة الذّات مع الذّات"[1]؛ هكذا هي حقيقة الأزمات الذّاتيّة المُنطلقة من جُملة أزمات مُتوالِدة بين الذّات والآخر.

فمُجمل العلاقات بين الهُويّات المُتضاربة يقود لعديد المشاكل الذّاتيّة والجماعيّة، يقول في هذا المعنى الأستاذ حليم بركات: "لم يكن الصّراع العربي سياسيّا وخلافا مع الآخر المُهيمن من الخارج وحسب؛ وقد أصبحت إسرائيل امتدادا وقاعدة له في الدّاخل، وإنّما كان أيضا صراعا اقتصاديّا واجتماعيّا وثقافيّا في الدّاخل بين الطّبقات والجماعات، بين الذّات والآخر، بين القديم والجديد، واليقين والشّكّ، والموت والحياة، والمستقبل والماضي، والوحدة والانكفاء الذّاتي، والخاصّ والعامّ، والخفيّ والظّاهر، وبين الوعي التّقليدي والوعي التّحرّري، وبين الولاء للجماعة والانتماء إلى الأمّة والإنسانيّة"[2].

وهكذا، تَكَشَّفَتْ حقيقة الصّراع بين الأنا العربيّة والآخر؛ إذْ تخطّت الحدود السّياسيّة إلى حُدود كثيرة منها: الاقتصاديّة والاجتماعيّة والثّقافيّة؛ إذن: هي سياسة ضرب الهُويّة العربيّة من الدّاخل.

كلّ هذا، إلّا دليل واضح على حقيقة المأساة العربيّة، من ذلك واقع الذّات الفلسطينيّة، وما حدث لها من انسلاخات جِذْريّة أفقدتها هُوُيّتها ورسوخها ضمن حدود أرضها؛ هي إذن: أبعاد المأساة التّاريخيّة الّتي كتبها الكثير مَلْحَمَةً دامِية للهُوُيّة المسلوبة.

ففي رواية (مصائر) للرّوائي الفلسطيني ربعي المدهون تجلت صورة الهُويّة المسلوبة؛ إذْ كشفت بصدق الرّاهن الفلسطيني وما يُعانيه أفراده من أشكال الغياب.

على ذلك، يقول كاتب الرّواية ربعي المدهون: "هذه رواية عن فلسطينيّين بقوا في وطنهم بعد حرب 1948 وأصبحوا، بحكم واقع جديد نشأ، مواطنين في دولة إسرائيل ويحملون

---

[1] يمنى العيد: الرّواية العربيّة (المتخيّل وبنيته الفنيّة)، دار الفارابي، بيروت– لبنان، ط1، 2011م. ص:62.

[2] حليم بركات: غربة الكاتب العربي، دار السّاقي، بيروت– لبنان، ط1، 2011م. ص:30.

الفصل الأوّل: الذّات والهويّة: المَاهِية والتَّمَظهُرات في الخِطاب الرّوائي العربي

جِنسيّتها في عمليّة ظُلم تاريخيّة نتج عنها انتماء مُزدوج، غريب ومُتناقض لا مثيل له، وهي رواية عن آخرين أيضا هاجروا تحت وطأة الحرب ويُحاولون العودة بطُرق فرديّة"[1].

هي الحقيقة الكاملة للنّكبة الفلسطينيّة الّتي شرّدت أبناء الأرض، فإسرائيل بسياستها قسمت الشّعب الفلسطيني العربي بين تائه الهُويّة (مُزدوج الجِنسيّة) والطّريد الفاقد لها.

فالتّعرية من الذّات واقع الفلسطيني الّذي بات لا موجودا في أرضه، لذلك فـ: "القضيّة الفلسطينيّة تتحوّل من قضيّة صراع فلسطيني إسرائيلي، إلى صراع فلسطيني- فلسطيني، أو كأنّ هذه القضيّة، ربّما هي صراع ضدّ الاحتلال، هي صراع اجتماعي طبقي ديني، تستوجب عمليّة التّحرّر"[2].

ففلسطين حقيقة الصّراع الّذي لا ينتهي وواقع مليء بالمُعاناة الفرديّة والجماعيّة، هكذا رُسِمت ملامح المجزرة التّاريخيّة والشّعب المجهول الرّسوخ.

أمّا في رواية (طوق الحمام) للرّوائيّة السّعوديّة رجاء عالم تجلّت حقيقة الانتماء للمكان والرّجوع للأصل، تقول في ذلك: "لبيت جدّي عبد اللّطيف، البيت الّذي يحمل علامة إكس حمراء؛ تعني أنّه مُعدّ للإزالة قبل أنْ يتحوّل قريبا إلى مواقف لإيواء هذه الكائنات العجيبة رُباعية العجلات"[3]، فحقيقة الحنين للمكان دليل واضح عن حُبّ التّمسّك بالأصل كتمركُز للهُويّة، لكن حينما يفقد المكان روحه تغيب كلّ ملامحه من ذكريات وأشخاص وأزمنة؛ إذْ يختلط كلّ شيء فيصير مُعبّرا عنه بعلامة إكس؛ وتعني انتهى.

---

[1] ربعي المدهون: رواية مصائر (كونشيرتو الهولوكوست والنّكبة)، المؤسّسة العربيّة للدّراسات والنّشر، بيروت- لبنان، ط1، 2016م. ص:07.

[2] يمنى العيد: الرّواية العربيّة (المتخيّل وبنيته الفنيّة)، ص:99.

[3] رجاء عالم: رواية طوق الحمام، المركز الثّقافي العربي، الدّار البيضاء- المغرب، ط3، 2011م. ص:05.

الفصل الأوّل: الذّات والهويّة: المَاهِية والتَّمَظهُرات في الخِطاب الرّوائي العربي

يقول في ذلك، ماجد الغرباوي مُفسّرا تراكُمات الأسئلة في ذِهنيّة الفرد العربي: "جاءت الأجوبة (...) متاهات الحقيقة، تُقارع حُصون الكهنوت وتُحطّم أسيِجة تُراثيّة تستغرق الذّاكرة، وتطرح أسئلة واستفهامات استفزازيّة جريئة"[1].

عُدّت الإجابة عن أسئلة الجِذريّة شبه مُستحيلة أو مُستحيلة، فهي شبيهة بالمتاهات الّتي تفرض على الإنسان الغوص في أعماق الحقيقة للبحث عن الحقيقة ذاتها.

وكيفما كان الحال، فإنّنا: لا نستطيع الخروج عن مبدأ السّؤال، الّذي صار يعكس أبعاد الرّاهن، فالإنسان الحالي ليس كسابقه وهذه الحقيقة جعلت منه استشكالا جِذريّا مُثيرا للجِدال.

حملت رواية (اللّاز) للكاتب الجزائري الطّاهر وطّار حقيقة الهُويّة المهدورة تحت سُلطة الآخر المستعمر، وهذا ما جعلها ذات أبعاد إنسانيّة سامية تهدف إلى ترسيخ الحضور الجزائري، هذا ما فعله بطل الرّواية المُكنّى باللّاز مع أبناء شعبه مُندّدا بسياسة فرنسا؛ حيث عمل كمُجَنّدٍ للشّباب إبّان الثّورة المُسلّحة من باب تعزيز الرّوح الوطنيّة.

يقول الشّيخ الرّبيعي مُتمتما في ذلك: "ما يبقى في الوادي غير حجاره، هذا اللّاز.. اللّاز المسكين. قدّور ابني استشهد معه.. استشهد في طريقه به إلى الحدود.. ثمّ استند إلى الجِدار، وأطلقَ العنان لمُخيّلته، تتحسّس الجِراح... شيء عِشناه... وشيء سمعناه... وشيء نتخيّله"[2].

هي حقيقة أبناء الجزائر المُرّة، هُويّة مأخوذة قسرا وشعب يتخبّط في متاهات إثبات الحضور والجوع، وهو ما كشفت عليه صورة اللّاز البطل الّذي أُريق دمه وصاحبه فكُتِبت لهما الشّهادة عند الحدود.

بهذا، امتازت الهُويّة في الجزائر الّتي أصبحت غائبة، فهي انعكاس حقيقي لراهن تسوده مُشاحنات دامية، يقول عمّي الرّبيعي بطل الرّواية: "إنّنا كما عرفنا أنفسنا منذ خَلِقنا

---

[1] ماجد الغرباوي: متاهات الحقيقة (1) الهُويّة والفعل الحضاري، دار أمل الجديدة للنّشر والتّوزيع، دمشق– سوريا، ط1، 2019م. ص:07.

[2] الطّاهر وطّار: رواية اللّاز، موفم للنّشر، الجزائر، دط، 2007م. ص:08.

الفصل الأوّل: الذّات والهويّة: المَاهِية والتَّمَظهُرات في الخِطاب الرّوائي العربي

الشّيشان*على رؤوسنا تكاد تقطُر وسخا، البرانس** مُهلهلة رثّة مُتداعية والأحذية مُجرّد قطع من الجِلد أو المطّاط، تشُدُّها أسلاك صدِئة، والأوجُه زرقاء جافّة.. ليس لنا من الماضي إلّا المآسي.. وليس لنا من الحاضر إلّا الانتظار.. وليس لنا من المُستقبل إلّا الموت، نتآكل كالجراثيم وليس غير"[1].

وهكذا، صُوِّرت ملامح الجزائري المُزرية بثيابه الرّثّة المُتّسِخة، وحقيقته الغائرة تحت وطأة فرنسا القُوّة العُظمى، هو ذلك الشّعب الّذي لا يذكُر إلّا المآسي، ولا ينتظر إلّا الفراغ والموت.

في رواية (العاشق)[2] للكاتب الفلسطيني غسّان كنفاني انطبعت حقيقة الذّات الفلسطينيّة المُتشظّية الحضور في واقع ظالم.

هنا تتجلّى، انعكاسات الهُويّة المُفْرَغة ومدى تأثيرها على نفسيّة الفرد الفلسطيني السّجين داخل اللّا حُضور، وهو ما تُفسّره الرّوايات غير المكتملة لغسّان كنفاني، فالفلسطيني واقع وحقيقة فُسَيْفِسائيّة يَصعُب جمعُها.

أمّا في روايته (عائد إلى حيفا) فشملت حقيقة ازدواجيّة الهُوُيّة عند الفرد الفلسطيني، وهذا ما لُمِسَ عند سعيد وزوجته الفّارّين من حرب 1948م، والعائدين إليها عام 1967م تاركين خلفهما ابنا تربّى عند الإسرائيليّين، هنا تكون الصّدمة بعدما علما أنّ ابنهما غُيّر اسمه وصار جُنديّا إسرائيليّا عكس الأخ الّذي كان جُنديّا تابعا للمقاومة الفلسطينيّة.

---

*الشِّيْشَانْ (ج) شَاش: هو شيء يوضع على الرّأس، مُمثّلا في قطعة قُماشٍ ملساء تأتي بألوان عديدة كالأصفر البرّاق والأخضر وغيرها، يُعَصَّبُ بها الرّأس للوِقاية من الحرّ والبرد.

**البَرَانُسْ (ج) بَرْنُوسْ: بالعاميّة الجزائريّة يُنطق كما كتبتُه؛ ويعني لباس صوفي مفتوح كُلّيّا عند جهة الصّدر يلبسه الرّجل الجزائري في المناسبات والأعياد؛ إذْ عُدّ رمزا ثقافيّا في الجزائر، وفيه أنواع حسب المنطقة كالبرنوس الشّاوي باللّون البُنّي القاتم، والبرنوس القبائلي باللّون الأبيض.

[1] المرجع نفسه، ص:07-08.

[2] غسّان كنفاني: رواية العاشق، دار منشورات الرّمال، قُبرُص، ط2، 2014م. صفحة غلاف الرّواية.

الفصل الأوّل: الذّات والهويّة: المَاهِية والتَّمَظهُرات في الخِطاب الرّوائي العربي

وهكذا، قادتنا رواية كنفاني لرسم ملامح الوطن والهُويّة المُتضاربة بين الأنا الفلسطينيّة والآخر الإسرائيلي، بالرّغم من رابطة الدّم بين الأخوين إلّا أنّ التّنشِئة تُؤدّي الدّور الأساس في إثبات الذّات والهويّة.

فمشهد خروج صفيّة بحثا عن سعيد وسط تدافُعات البشر، أنساها ابنها خلدون الّذي لم تتذكّره حينها، إلّا حينما رأت وجه سعيد، يقول الرّاوي: "كانت على وشك السّقوط وسط الأقدام حين سمِعَت كمن يحلُم صوتا ينبثق من الأرض، ويُناديها باسمها"[1].

هي حقيقة النّكبة ومُخلّفاتها على الأنا الفلسطينيّة، الّتي تجرّدت من ملامح رسوخها، فبين عشيّة وضُحاها اختلط الحابل بالنّابل وصارت فلسطين لا موجودة وشعبها شعب دون هُويّة، وما صورة صفيّة إلّا تمثيل لعديد البشر تجرّدوا من أرواحهم متناسين كلّ شيء.

سقطت فلسطين وضاعت الهُويّة العربيّة من مُلّاكِها الأصليّين، وتلاشى كلّ شيء حتّى الحقيقة، في هذا المعنى تقول النّاقدة يُمنى العيد: "يحضر مشروع الدّولة الواحدة، الّذي قال به إدوارد سعيد يلوح في الرّواية، توحي به ولا تُفصح عنه، كأنّ مرحلة غسّان كنفاني انتهت، لتدخل القضيّة الفلسطينيّة، وكما سنرى في حالة غيبوبة أو لِتُعاني مرضا عُضالا، لقد قطع كنفاني مع الماضي، ماضي الإذلال والمهانة بعد أنْ أدرك بأنّ الوطن ليس الطّاولة وريش الطّاووس؛ بل الإنسان"[2].

ترى يُمنى العيد أنّ كلّ كتابات غسّان كنفاني أراد بها الإنسان والإنسانيّة، فالفرد الفلسطيني مسلوب الهُويّة تائه دون تاريخ ووطن؛ إذْ أراد بالوطن الأرض كرسوخ، كما طرح إدوارد سعيد مشروع الدّولة الواحدة الّتي باتت شظايا لرقعة جُغرافيّة مُقسّمة بين اليهود والفلسطينيّين، ففلسطين حقيقة ضائعة وحقّ مهدور.

من ذلك، يُضيف حليم بركات عاكسا الوضع السّياسي لبعض الدّول العربيّة المُتحرّرة، وعن واقع فلسطين ومشروع الوحدة القوميّة، يقول: "في الوقت الّذي بدأت الشّعوب العربيّة

---

[1] غسّان كنفاني: رواية عائد إلى حيفا، دار منشورات الرّمال، قُبرص، ط2، 2005م. ص:18.

[2] يمنى العيد: الرّواية العربيّة (المتخيّل وبنيته الفنيّة)، ص:101.

الفصل الأوّل: الذّات والهويّة: المَاهِية والتَّمَظهُرات في الخِطاب الرّوائي العربي

تحتفل فيه بجلاء القوّات الأجنبيّة بعد كفاح طويل ومرير تتطلّع إلى مستقبل جديد وتسعى إلى إقامة وحدة قوميّة، أُقيمت إسرائيل على أنقاض المجتمع الفلسطيني وباقتلاعه من جذوره، كان ذلك مصدر إحباطات في عسكريّة ما يزال العرب يُعانونها حتّى الوقت الحاضر وربّما لزمن بعيد باعتبار أنّها بين أسوأ ما أصاب العرب في بدايات التّطلّع إلى إعادة صُنع تاريخهم"[1].

وهكذا، أُقيمت دولة إسرائيل على أنقاض شعب عربي هُدِمت هُويّته؛ إذْ اقتصر حضوره على اللّا حضور، إذن: هي حقيقة اقتلاع جِذْري ما أفشل المَساعي العربيّة في تحقيق اللُّحْمَة القَوْمِيَّة، على الرّغم من المُحاولات المُستمرّة من البلدان العربيّة المُسْتَقِلّة حديثا.

إمعانا في التّوضيح، يُضيف بدوي محمود الشّيخ كاشِفا أهداف المُستعمر الخفيّة ذات الدّلالات الخطيرة كتدمير الدّولة من الدّاخل، كطمس هُويّة الذّات الفرديّة والجماعيّة الثّقافيّة التّاريخيّة، يقول إنّ: "أوّل ما يُنفّذ فيه الفكر الاستعماري، هو تدمير تلك الذّوات الثّقافيّة والتّاريخيّة، الّتي تمنح الأُمم شخصيّتها المستقلّة (الأنا) حتّى ينشأ ذلك الجيل التّابع الّذي لا شخصيّة له، ولا أصالة، ولا قيمة"[2].

هي إذن: حرب ثقافيّة تاريخيّة غرضها تفتيت مُقوّمات الهُويّة الوطنيّة، وضرب الجذور التّاريخيّة للأمّة حتّى يُصبح شعبا عاري الانتماء؛ حيث عمل المستعمر على تدمير الهويّة العربيّة، بإنشاء أجيال مُسْتَضعفة لا شخصيّة لها.

في ذلك، يقول حليم بركات: "عمل العرب على تثبيت هُويّتهم القوميّة، (...) وفي صراعهم لتثبيت هُوُيّتهم، أو لتجاوز الخلافات والانقسامات، كان لابُدّ من تثبيت لُغتهم

[1] حليم بركات: غربة الكاتب العربي، ص:30.

[2] بدوي محمود الشّيخ: الهُويّة، الأندلس الجديدة للنّشر والتّوزيع، مصر – القاهرة، ط1، 2009م. ص:08-09.

ورؤيتهم لواقعهم وللعلاقات مع الآخر الّذي يُحاول فرض هُويّته الخاصّة بتفتيت الهُوُيّة العربيّة"[1].

فالهُويّة العربيّة حقّ مسلوب على الرّغم من السّعي العربي المُكثّف لإثبات هُويّتهم القوميّة، حيث أعطوا أولويّات للنّهوض الجماعي والحدّ من الانقسامات والخِلافات، كالبَدْء بترسيخ اللّغة العربيّة للحدّ من سيطرة الآخر، الّذي فرض هُويّته بديلا للهُويّة العربيّة كاستعمار غير مُباشر وتفتيت للهُويّة العربيّة؛ وأكبر الظّنّ، أنّ الهُويّة العربيّة ما هي إلّا شظايا للذّاكرة المُفتّتة والتّاريخ المطموس والغِياب.

وهكذا، لخّصت الرّواية العربيّة حدود الهُويّة العربيّة، ومُعاناة الفرد العربي تحت سَطوة الآخر والغِياب، فالحقيقة تعكس تمظهرات لملحمة داميّة كشفت عن تصادُمات الرّاهن في شكل صراع البقاء للأقوى.

خاتمة الفصل:

امتازت الذّات العربيّة عن غيرها بعدم الحُضور، فهي تُعاني التّهميش جرّاء سَطْوَة الآخر المُميّز عنها.

تُعدّ الهُويّة العربيّة أزمة الرّاهن العربي، وموضوعا شائِكا يَفْرِضُ حُضوره على السّاحة الأدبيّة، ومن ذلك كانت الرّواية العربيّة انفتاحا على الواقع وحقيقة للذّات والهُويّة.

ومنه، نجد أنّ: الرّواية العربيّة قد تناولت مواضيع مثيرة للجدل غرض إزاحة اللُّبس عن الهُويّة الضّائعة.

حَملت أسئلة الذّات والهُويّة في الرّواية العربيّة لتمَظْهُرات الغِياب، فالأنا العربيّة تُعاني التّهْميش والشّيئِيّة على خِلاف نظيرها الآخر المركزي.

لذلك، اشْتَغل المُثقّف العربي موضوع الهُويّة والبحث عن الذّات من بادِرة تجذير الحُضور الفردي والجماعي.

[1] حليم بركات: المجتمع العربي في القرن العشرين (بحث في تغيّر الأحوال والعلاقات)، مركز دراسات الوحدة العربيّة، بيروت، ط1، 2000م. ص:59.

الفصل الأوّل: الذّات والهويّة: المَاهِية والتَّمَظهُرات في الخِطاب الرّوائي العربي

وهكذا، لخّصت الرّواية العربيّة المُعاصرة الواقع والحقيقة، الّتي باتت مُمثّلة في تشظّيات للهُويّة وغياب كلّي للأنا العربيّة مع آخرها، فكيف تبرز ملامح الذّات والهُويّة من خلال رواية(أولاد الغيتو اسمي آدم) لإلياس خوري؟ هذا ما سنراه في الفصل القادم.

الفصل الثّاني: البحث عن الذّات في رواية أولاد الغيتو اسمي آدم لإلياس خوري

الفصل الثّاني: البحث عن الذّات في رواية أولاد الغيتو اسمي آدم لإلياس خوري.

أوّلًا/ صُورة الذّات في الرّواية:

1/ الصُّورة الجَسَدِيّة

2/ الصّورة النّفسيّة

3/ الصُّورة الاجتماعيّة

ثَانِيًا/ مِحْنَةُ الشّتات

ثالِثًا/ ثنائيّة الأنا والآخر

رابِعًا/ الأنا عبر ضمائر السّرد

خَامِسًا/ السّرد والذّات.

الفصل الثّاني: البحث عن الذّات في رواية أولاد الغيتو اسمي آدم لإلياس خوري

تمهيد:

يُشَكّل موضوع الذّات العربيّة واحِدا من أهمّ القضايا الّتي طرحها الواقع، لنظير ما تحمله من ملامح الانكسار.

نذكر هنا، حقيقة الواقع وما يحمله للذّات العربيّة من انعكاسات الهُويّة الضّائعة، الّتي رسمت ملامح المُعاناة الفرديّة والجماعيّة، وهنا، عُدّت الذّات تمثيلا للإنسان ضمن واقعه؛ حيث يضيع بفقدانها كلّ هذا ما يُحتّم عليه البحث عنها منْ بادئ إثبات نفسه.

لذلك، اشتغلت الرّواية العربيّة على موضوع الذّات مظهرا من مظاهر الالتزام بقضايا الرّاهن العربي وما أصابه من خيبات وآلام، وما رواية(أولاد الغيتو اسمي آدم) لإلياس خوري[1] إلّا أنموذج من النّماذج الرّوائيّة، الّتي حملت دلالات الذّات العربيّة المُنْكَسِرة.

على ذلك، نتساءل: كيف انعَكَست ملامح الذّات في رواية إلياس خوري(أولاد الغيتو اسمي آدم)؟ وكيف أثّرت مِحنة الشّتات على انتماء الفرد الفلسطيني من خلال رواية(اسمي آدم)؟ وبماذا امتازت العلاقة الثُّنائيّة بين الأنا والآخر؟ وما علاقة السّرد بالذّات من خلال الرّواية؟

من خلال هذه الأسئلة، ستكون المنهجيّة المُتَّبعة في هذا الفصل، من خلال عنصرين أساسيين:

أوّلا- صورة الذّات في الرّواية:

الرّواية ذاكرة جماعيّة مُثْقلة بآلام الذّات الكاتِبة، فهي تصوير لقضيّة ما وما يتخلّلُها من ظروف وأحداث بعين ناقلة مُشخّصة؛ بغضّ النّظر عن استخدام الخيال الّذي يُعطي.

---

[1] إلياس خوري: قاصّ وروائي، وناقد وكاتب مسرحي لبناني الأصل، ولد عام:1948م، كتب عشر روايات تُرجمت إلى عديد اللّغات وله عديد الكتابات النّقديّة والمسرحيّة، ومن أشهر أعماله: دراسات في نقد الشّعر في:1979م، ورواية باب الشّمس الّتي نُشرت عام1998م، ورواية أولاد الغيتو اسمي آدم. ينظر: إلياس خوري، رواية أولاد الغيتو اسمي آدم، دار الآداب للنّشر والتّوزيع، مكتبة الفكر الجديد، بيروت- لبنان، ط1، 2016م. ص:422-423.

الفصل الثّاني: البحث عن الذّات في رواية أولاد الغيتو اسمي آدم لإلياس خوري

للعمل الأدبي جماليّة تُساهم في جذب القارئ، بهذا يتجاوز الكاتب الأدبي حدود النّصّ والمعاني إلى خارج النّصّ.

ومن أشكال الرّواية المنتشرة الرّواية الواقِعيّة، إذْ يعمد الكاتب لتصوير التّجربة البشريّة في شكل خيالي، فالواقع من يَفرِض على الإنسان الكاتِب نقل أحداثه والإفصاح عن مكنوناته، الّتي أرّقت صفوَ حياة أفراده؛ إذن: هي أبعاد الواقع بمُجرياته وتأثيرها على حضور الإنسان.

وإلياس خوري من قائمة الكتّاب الّذين عكسوا واقع الإنسان الفلسطيني الفاقد لذاته؛ إذْ اعتمد أسلوب التّأريخ السّردي وتعدّد الأصوات وفواصل الصّمت، كإثبات للحقيقة الفلسطينيّة الضّائعة والذّات الجريحة المُنكسرة.

هذا ما، ذهب إليه الرّوائي إلياس خوري في روايته(أولاد الغيتو اسمي آدم)، الّتي عَكَسَ من خلالها مُعاناة الفلسطينيّين أيّام الطّرد والتّهجير عام1948م، مُصوّرا بذلك أحداث عمليّة التّطهير العِرقي في فلسطين كإفراغ الأرض من سكّانها الأصليّين، وإحلال اليهود مَحلّهم سكّانا دائمين، بهذا تتحقّق نبوءة فلسطين أرض الميعاد اليهودي.

هكذا، سرد إلياس خوري واقع الذّات الفلسطينيّة الضّائعة، من ذلك يقول:" المهم هو أنّ المشكلة الأساسيّة الّتي واجهناها في كتابة الرّواية العربيّة، ليست مشكلة التّاريخ؛ ولكن هي مُشكلة علاقة الحاضر بالذّاكرة؛ أي علاقة تفكّك الحاضر وتفتيته، بغياب ذاكرتنا وبعمليّات المحو الدّائمة لهذه الذّاكرة(...) ثُمّ طبعا تأتي الكارثة الكُبرى؛ وهي كارثة الذّاكرة الفلسطينيّة وهي ذاكرة ممحوّة(...) فالرّواية كما أفهمها في النّهاية هي مُحاولة لكتابة الحاضر الموازي لحاضر السّلطة، والمُختلف عنه عبر خلق مُناخات تسمح بالتّعدّد اللّغوي وبأن نُخبِر هذه المجتمعات المتشظّية الّتي ننتمي إليها"[1].

[1] إلياس خوري: الرّواية والتّاريخ (نقاشات طاولة مستديرة)، خصوصيّة الرّواية العربيّة، مجلّة النّقد الأدبي فصول-مجلّة علميّة محكمة-، الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، القاهرة، 1998م.ع:01، م:17، ج:03، ص:410-411.

الفصل الثّاني: البحث عن الذّات في رواية أولاد الغيتو اسمي آدم لإلياس خوري

نفهم أنّ: الرّواية العربيّة حسب رأي إلياس خوري مُنطلقة من عُنصر الزّمن، كعلاقة الزّمن الحاضر بالماضي عن طريق ربط الأحداث مع بعضها البعض بالرّجوع للذّاكرة، الّتي تحمل تاريخا يُلخّصُ حياة الأفراد ضمن مكان.

فالرّواية حسب إلياس خوري سرد للواقع بأحداثه الّتي تُفصِح عن مُعاناة الذّات العربيّة، كما عُدّت ضربا للسّلطة بسلاح القلم عن طريق خلق نصوص تفضح السّلطة وغيرها، فهي إذن: نقل لحقائق راهنيّة وكسرٌ للسّياسات، وبهذا يصل صوت الكاتب للشّعوب المشتّتة كمبادرة تحسيسيّة تُفصِح عن انتمائه لهم.

هذا ما، تبنّاه إلياس خوري في روايته(أولاد الغيتو اسمي آدم)، الصّادرة عن دار الآداب، بيروت- لبنان، عام 2016م، من أحدث الرّوايات الحاملة لموضوع جديد غير معهود الدّراسة، فخرجت بذلك من حيّز النّمطيّة السّرديّة المُعتادة؛ إذْ تناولت في صفحاتها موضوع الذّات والهُويّة الضّائعة في فلسطين، انطلاقا من حيْثِيّات النّكبة والطّرد وغيرها من ملامح الشّتات الفلسطيني.

رواية (أولاد الغيتو اسمي آدم) شبيهة بسيرة ذاتيّة تحكي قصّة(آدم دنّون) ومُعاناته مع فقدان الحقيقة والذّات، وهذا ما دفعه للفرار من موطنه فلسطين صَوب مدينة نيويورك بحثا عن حياة جديدة تُنسيه ألم هُويّته المَسلوبة، لكنّه اصطدم بجدار الحقيقة مرّة أخرى فعادت به الذّاكرة للحقيقة الغائبة، وهو ما دفعه للبحث عن حقيقته الأصليّة، لكنّه يفشل وينتحر، هذا ما، أسْفرت عليه صُدفة اللّقاء(بمأمون الأعمى) كظهور حقيقة آدم، الّتي قادته للوقوع في متاهات الأسئلة الذّاتيّة، ما أسقط قناع الالتباس الّذي لجأ إليه فأصبح ضائع الذّات. هكذا، طُرِد الفلسطيني من دياره وجُرّد تاريخه وطُمِسَت هويّته العربيّة الإسلاميّة، ففي القفص المُسيّج وُضِع الفلسطيني كحيوان؛ ونقصِد بالقفص المُسيّج؛ ذلك الغيتو* الّذي

*الغيتو: يرجع أصل مُصطلح الغيتو(Ghetto) إلى اسم الحيّ اليهودي في البندقيّة حُبِس فيه اليهود وعاشوا ظروفا سيّئة، موقع الهولوكوست، موقع إلكتروني،https://encyclopedia.ushmm./، اطّلعت عليه في:2023/01/10م. على السّاعة:11:38. (وهو كذلك مكان حُبِس فيه أهالي اللّد الفلسطينيّة عام 1948م).

الفصل الثّاني: البحث عن الذّات في رواية أولاد الغيتو اسمي آدم لإلياس خوري

حُبِسَ فيه ما تبقّى من سُكّان القُرى الفلسطينيّة عام 1948م؛ حيث مورِسَت في حقّهم أبشع أنواع التّعذيب.

هي؛ إذن: الحقيقة القاسية والصّورة الدّامية لواقع الفلسطيني الّذي يعيش طَريدا، مُهَدّدا بالذّبح مرّة، والسّجن مرّات أخرى، يقول آدم*:" في اللّد ** أيضا كانت المعادلة واضحة، مذبحة بهدف الطّرد، وُصولا إلى وضع من تبقّى من سُكّان المدينة في قفص"[1].

إنّها صورة للمُعاناة ومُعادلة إسرائيليّة هدَفُها الرّئيس طَمْس الهُويّة الفلسطينيّة، فطَرْدُه للشّعب الفلسطيني دليل واضح عن تطبيقه لسياسة التّطهير العِرقي***.

أمّا بالنّسبة، لكيفية وضع بقيّة شعب فلسطين داخل القفص المُسيّج وحجبه عن العالم والحياة، كفيل بخلخلة ذات الفرد الفلسطيني، الّذي صار مُشَتّت الذّات داخل وطنه، وبهذا تكون المُفارقة جليّة بين فلسطيني طَرِيد ضائع الذّات وإسرائيلي مُسيطر.

وهكذا، انطبعت صورة الذّات الفلسطينيّة المُهشّمة، الّتي تفنّن الإسرائيلي في رسم ملامحها المُثْقلة بالمُعاناة.

فصور الطّرد والتّهجير اقتلاع مُباشر للذّات الحاضرة، وضرب للهُويّة الّتي صارت تحت رُكام الذّاكرة.

---

* آدم: بطل رواية إلياس خوري، هو إنسان مُتشظّي الذّات والهُويّة وُجِد مرميّا فوق صدر أمّه الميتة، ربّته منال وادّعت أنّها أمّه فنسبته لعائلة زوجها حسن دنّون من مدينة اللّد الفلسطينيّة، وبعد خمسين عاما يكتشف الحقيقة فينتحر تاركا قصّته.

** اللّد: مدينة فلسطينيّة تقع على مسافة 16كم جنوب شرق مدينة يافا، و5كم شمال شرق الرّملة، ذات موقع استراتيجي(بتصرّف)، اللّد مدينة فلسطينيّة تحت الاحتلال، موقع الجزيرة. نت، موقع إلكتروني، نشر بتاريخ:2011/05/23م، https://www.aljazeera.net/، اطّلعت عليه في:2023/01/10م. على السّاعة:12:03.

[1] إلياس خوري: رواية أولاد الغيتو اسمي آدم، ص:215.

*** ينظر: التّطهير العِرقي: يعني الإزالة المنظّمة والقسريّة لمجموعات عِرقيّة أو دينيّة من المناطق الّتي يعيشون فيها، هذا بالتّحديد ما قامت به إسرائيل مع الشّعب الفلسطيني عام 1948م، موقع ريمكس الجزيرة الإلكتروني، https://remix.aljazeera.com، اطّلعت عليه في:2023/01/10م. على السّاعة:15:39.

الفصل الثّاني: البحث عن الذّات في رواية أولاد الغيتو اسمي آدم لإلياس خوري

وَوَصْفا لصورة الذّات الّتي أصبحت لا موجودة يَتخَلّلها الخوف من الموت والضّياع دون وطن، يقول آدم:" يَتحدّث النّاس عن الخوف كتجرُبة فرديّة، يروون عن انحلال الرِكَب، وفراغ القلب، والتّلاشي، لكن حين يتحوّل الخوف أمواجا، فهناك يكون الخوف الأكبر، خوف يموج بألوف النّاس المُشرّدين في الوعر، تحت رصاص البنادق ووسط وجوه الجنود الّتي تشمت من بليّتهم"[1].

هي حالة الرّعب الّتي سيطرت على الذّات الفلسطينيّة، أثناء إفراغ المدينة من سُكّانها ووضعهم داخل قفص مُسيّج، هذا ما رسمته ملامح حقيقيّة لذوات عربيّة أُفرِغت جِذْرِيّتها.

في الآتي عرض لصُور ومظاهر الذّات في الرّواية قيد الدّراسة.

1/الصّورة الجسديّة:

يُعدّ الجسد بناء خارجيّا للإنسان؛ تَبرُز فيه ملامحه الذّاتيّة المُمَيّزة له، كالطّول والقِصر والنّحافة والسُّمْنة والجمال والقُبح وغيرها من التّمَظْهُرات المُحيلة للإنسان الحامل لهذا الجسد.

لذلك، شَكّلَ الجسدَ مُجمل الملامح الظّاهرة والمعنويّة، الّتي تُساهم بعمليّة الكشف عن طبيعة الإنسان ومشاعره؛ حيث تُعكَس من خلالها انطِباعات الذّات الإنسانيّة.

هذا ما، يُفصِحُ عليه الجسد الإنساني مُحيلا بذلك لدلالات الحُضور الفردي؛ حيث:" تُمثّل صورة الجسد اتّجاهات الفرد نحو جسده، خاصّة الحجم والشّكل والجمال، وتقييماته وخبراته الانفعاليّة المُرتبطة بصفاته الجسديّة"[2].

نفهم من ذلك؛ أنّ صورة الجسد تدُلّ على انطِباعات الفرد نحو جسده، كحُبّه لشكله وحجمه وجماله، انطلاقا من جُملة تقييمات تحمل خبراته الانفعاليّة كسُرعة الغضب أو البكاء وغيرها من الصّفات المُرتبطة بصفاته الجسديّة.

---

[1] إلياس خوري: رواية أولاد الغيتو اسمي آدم، ص:164.

[2] برهان حمدان أسمر دراغمة: تقدير صورة الجسد وعلاقتها بالمخاوف الاجتماعيّة وتقدير الذّات لدى عيّنة من طلبة الجامعة في فلسطين، رسالة ماجيستير، جامعة القُدس المفتوحة، فلسطين، 2017م/2018م. ص:03.

الفصل الثّاني: البحث عن الذّات في رواية أولاد الغيتو اسمي آدم لإلياس خوري

كإحالة، مُباشرة تستَنْطِقُ الملامح الشّخصيّة المُتأثّرة بحدث ما، فنحن نرى بالعين المُجرّدة صورة لإنسان بجسد وملامح خاصّة تُميّزُه عن غيره.

وهكذا، يمكننا بناء تصوّر عن فرد مُعيّن انطلاقا من صورته الجسديّة وانعكاساتها، ففي رواية (أولاد الغيتو اسمي آدم) تحدّدت الصّورة الجسديّة بشكل لافِت للانتباه، لِما لها من أهميّة بالغة في بناء الشّخصيّة الرّوائيّة كإحالة لصورة الذّات الفلسطينيّة المسلوبة.

فحقيقة الصّورة الجسديّة للفرد الفلسطيني تُفصِح عن مأساة جماعيّة، هذا بالتّحديد ما لمسناه من خلال صورة بطل الرّواية(آدم دنّون) وغيره من شخصيّات الرّواية.

من ذلك، يصف إلياس خوري(آدم دنّون)، قائلا:" كان رجلا طويلا يميل إلى النّحول قليلا، كتفاه العريضتان تحملان انحناءة خفيفة، اختلط الشّيب الأبيض بشعر رأسه الكستنائي، فبدا كأنّه مكلّل بهامة تلتمع، أعتقد أنّ هذه الالتماعة آتية من عينيه الرّماديّتين اللّتين تميلان إلى اللّون الأخضر"[1].

من خلال الوصف الجسدي(لآدم) نُميّز، أنّه كان طويل القامة نحيلا بعض الشّيء، كتِفاه عريضتان بانحناءة خفيفة، يكسو هامته شيب أبيض لامع، بعينين غَريبَتَيْ اللّون فهما مزيج بين الرّمادي والأخضر، هذا وصف انطباعي.

أمّا بالنّسبة لدلالة صورة (آدم) فتعني الكثير وتحمل معانٍ مُضمرة أفصحت عنها الصّورة الجسديّة الشّكليّة.

فدلالة النُّحول والطّول تكشف لنا ثغرات الحياة المليئة بالألم كحال الفرد الفلسطيني، الّذي يتجرّع كلّ يوم مرارة الوجود دون ذات، أمّا الشّيب فيرمز للهيبة والوسامة ودليل جليّ على النّضج الفكري والاكتمال، كما يبرهن على كثرة التّجارب الحياتيّة الّتي لا تخلو من عذاب الذّاكرة.

وهكذا، كان لكثرة التّفكير بالماضي المؤلم الّذي لا يُنسى، أثره على الذّات الإنسانيّة كصورة الطّفل الفلسطيني على صدر أمّه الميتة، وهذا حديث مؤجّل لأوانه.

---

[1] إلياس خوري: رواية أولاد الغيتو اسمي آدم، ص:09.

الفصل الثّاني: البحث عن الذّات في رواية أولاد الغيتو اسمي آدم لإلياس خوري

فحقيقة الصّورة الجسديّة تحكي قِصّة صاحبها وتكشف خباياه، بالرّغم من جماليّة الصّورة الّتي ترسم ملامح رجل بين سنّ الشّباب والكهولة.

فالصّورة حقيقة ما تُبْصِرُه العين من مشاهد وملامح وطبيعة أشياء مُدْرَكة كرُؤية الأجساد والطّبيعة وغيرها من مشاهد واقعيّة ملموسة.

ولذلك، عُدّ الجسد موضوعا للوصف، فهو موضوع للّغة الّتي تخلق لنفسها موضوعا جديدا، وهذا ما بما ينطق به الجسد من إيماءات وحركات وإشارات تُفْصِح عن معنى الجسد كصورة، سواء أكانت صورة الجسد نصّا، أم كانت وصفا لجسد إنسان، أو وصفا لأيّ شيء آخر[1].

وعليه، صار الجسد موضوعا رئيسا لوصف أحوال الإنسان النّفسيّة، فهو تفسير للُغة لا تُنطق كلغة الإشارات والحركات النّابعة من صورة جسديّة لإنسان.

ومنه، صار لِزاما علينا الإشارة لمسألة الصّورة الجسديّة وما تحمله من أبعاد تعكس هيئة الإنسان، يُضيف إلياس خوري نقلا لصورة (آدم دنّون) الجسديّة:" الرّجل الوسيم بوجهه الشّاحب المُستطيل والغمّازة المرتسمة في وسط ذقنه"[2].

يتَبيّن من خلال الوصف، أنّ: (آدم دنّون) يتمتّع بقدر لا بأس به من الوسامة الذّكوريّة، إلّا أنّ شُحوب وجهه يُخفي سرّا عظيما لا يعلمه سِواه.

فملامح الإنسان مؤشّرات جسديّة تُعطي انطباعا لدى الآخر المُشاهد، وما يُخفيه الفرد عادة تُفصِح عنه جسديّته بواسطة الحركات والإشارات، وهذا ما دلّت عليه ملامح (آدم دنّون) بالرّغم من وسامة وجهه.

---

[1] ينظر: كريمة نطور ومالكيّة بلقاسم: ثيمة الجسد في رواية أنثى السّراب لواسيني الأعرج، مجلّة العلامة، جامعة قاصدي مرباح، ورقلة، الجزائر، ديسمبر 2016م. ع:03، ص:251.

[2] إلياس خوري: رواية أولاد الغيتو اسمي آدم، ص:10.

الفصل الثّاني: البحث عن الذّات في رواية أولاد الغيتو اسمي آدم لإلياس خوري

هنا، اتّضح أنّ وراء الرّجل قِصّة مُضمرة مشكوك فيها، فالحقيقة" ما يُثبِتُ الإنسان وينفيه في ذات الآن، فهي إثبات حين تتشكّل كقيمة مُضافة للتّجربة الإنسانيّة"[1].

وهكذا، رَسمت الحقيقة حُضورا للإنسان ضِمن راهنه الّذي رمى به في متاهات الوُجود، فهي إثبات أو نفي لحُضوره، وبها تتحقّق هُويّته الفرديّة والجماعيّة.

طبعت الصُّور الجسديّة حقيقة الإنسان المخفيّة، بفعل انعكاسات التّجربة الإنسانيّة ضمن حدود الواقع؛ إذْ أَعْطت الصّور الجسديّة انطباعات خاصّة تُحيل مُباشرة لما خلف الصّور.

الواقع أنّ صورة (آدم) والانطباع الأوّلي عند(إلياس خوري) كشف عن حقيقة مخفيّة خلف الصّورة الجسديّة، فالوصف الدّقيق أزاح غموض حضور الصّورة، وهذا ما أثبتته أحداث رواية(اسمي آدم).

فالجسد مرآة صاحبه؛ إذْ تتكشّف بواسطته خبايا الذّات الإنسانيّة كانعكاسات للحقيقة المُضمرة، فعادة ما يفضح الجسد صاحبه، لذلك عُدّ:" لُغزا بالنّسبة للإنسان لا يفهمه ولا يستطيع السّيطرة عليه؛ بل كثيرا ما يخذله ويتخلّى عنه ودون أدنى قُدرة من الإنسان على تغيير مسار هذا الجسد"[2].

من هذا، تتّضح دلالة الجسد عند الإنسان، يقول (آدم دنّون) واصفا المُخرج السّينمائي حاييم زيلبرمان:" أنا أُحبّ هذا الرّجل، أحببته أوّلا بسبب طريقته في التهام الطّعام(...) وتحوّل هذا الرّجل الممتلئ الجِسم والأصلع إلى الذّوّاقة الخاصّ الّذي أُجرّب فيه أنواع التّعديلات الّتي أحدثتها على أصناف الطّعام، وأحببته ثانيا لأنّه يحِبّ الشّرق الأوسط"[3].

هو مشهد تصْويري قدّمه(آدم دنّون) ناقِلاً صُورة المُخرج السّينمائي حاييم، الّذي امتاز بِغِلظة جسده وصلعه.

---

[1] عبد العزيز بومسهلي وآخرون: أفول الحقيقة الإنسان ينقض ذاته، ص: 09.

[2] محمود الضّبع: الرّواية الجديدة(قراءة في المشهد العربي المعاصر)، المجلس الأعلى للثّقافة، دد، دط، 2010م. ص:158.

[3] إلياس خوري: رواية أولاد الغيتو اسمي آدم، ص:99.

الفصل الثّاني: البحث عن الذّات في رواية أولاد الغيتو اسمي آدم لإلياس خوري

إلى جانب هذا، هو في وجهٍ مقابل شغوف بالأكل الشّرقي بالأخص أُكلات الشّرق الأوسط كالفلافل وغيرها، لكن ما يَهُمّنا هنا، علاقة صورة حاييم الجسديّة وربطها بما سيحصل لآدم دنّون فيما بعد، يقول آدم:" أحببته ثالثا: لأنّه مخرج سينمائي يملك ضميرا، ويصنع أفلاما تسجيليّة شيّقة(...) صار الرّجل الخمسيني صديقي، نتكلّم معا العبريّة، ونتذكّر شمس الشّرق الأوسط"[1].

وهكذا، كانت صداقة (آدم دنّون) والمخرج (حاييم) مُسْتَمِدّة منابعها من روح الشّرق الأوسط، فهي استرسالات للذّاكرة كشريط فيديو أو كفيلم سينيمائي تسجيلي.

والحقُّ في القول، إنّ: صِدق الصّورة الجسديّة مأخوذ عن الصّدق الضّميري، هذا رأي آدم في صديقه المخرج، الّذي سُرعان ما تبدّد عند مُشاهدته لفيلمه بقاعة السّينما، يقول(آدم):" لمْ أكره حاييم بعد الفيلم، فالرّجل لا علاقة له، وأنا مُتأكّد من نواياه الحسنة، ومن أنّ مُحاولته لصِناعة فيلم عن بِدايات الانتفاضة الثّانية، كانت طريقته كيْ يُعبّر عن غضبه من الاحتلال، لا أستطيع أنْ ألوم أحدا، لكنّني ألوم الحقيقة النّاقِصة"[2].

إنّ حقيقة اكتشاف الأشياء والحقائق تقود الفرد للتّخلّي عن الأشخاص والصّداقات، بالرّغم من تكافُئها إلّا مع (آدم) فلاحظنا العكس؛ حيث أعفى صديقه حاييم من مسؤوليّة الكذب في نقل أحداث الواقع، لأنّ نواياه حسنة تعكس غضبه من الاحتلال الإسرائيلي لفلسطين، لكنّه جرّم كاتب القِصّة الّتي صارت فيلما يُعرض سينمائيّا.

على ذلك، واصل(آدم) وصف النّماذج الصُّوريّة في شكل مثير للانتباه؛ حيث توقّف عند صورة مأمون الأعمى* صديق طُفولته ووالده الرّوحي، قال:" خلع مأمون نظّارتيه السّوداوين، وبكى اعتقدت أنّه كشف عينيه الممحوّتين"[3].

---

[1] إلياس خوري: رواية أولاد الغيتو اسمي آدم، ص:100.

[2] المصدر نفسه، ص:102.

* مأمون الأعمى: الشّخص الّذي عثر على آدم مرميّا فوق صدر أُمّه الميتة يبكي جوعه، ومُربّيه.

[3] إلياس خوري: رواية أولاد الغيتو اسمي آدم، ص:180.

الفصل الثّاني: البحث عن الذّات في رواية أولاد الغيتو اسمي آدم لإلياس خوري

تأتي دلالة الكشف عن المستور لأوّل مرّة إسقاطا لصورة الألم الشّديد، أمّا عن الصّورة الجسديّة فتمثّلت في عمى مأمون، وهذه صورة انطبعت في ذهن (آدم الغيتو) وكانت سببا جليّا في فضح سرّه الّذي رماهُ في متاهات التّيه الوجودي.

على هذا المضمار، نُواصل مع صورة جسديّة أخرى تمثّلت في (منال) أمّ آدم، حيث وصفها مأمون الأعمى بالملاك الحامل لملاك، من ذلك يقول آدم، إنّ:" عبارة الملاك الّذي يحمل ملاكا ليست من وضعي؛ بل هي لمأمون، الّذي حين روى لي الحكاية، قال إنّ النّاس رأوا طفلة بيضاء تحمل طفلا رضيعا، ثُمّ قال(أمّك كانت طفلة)"[1].

هنا، تتقاطع الحقيقة مع الصّور الجسديّة فتختلط الصّور معا، مُشكّلة لوحة واحدة عنوانها: النّكبة الفلسطينيّة.

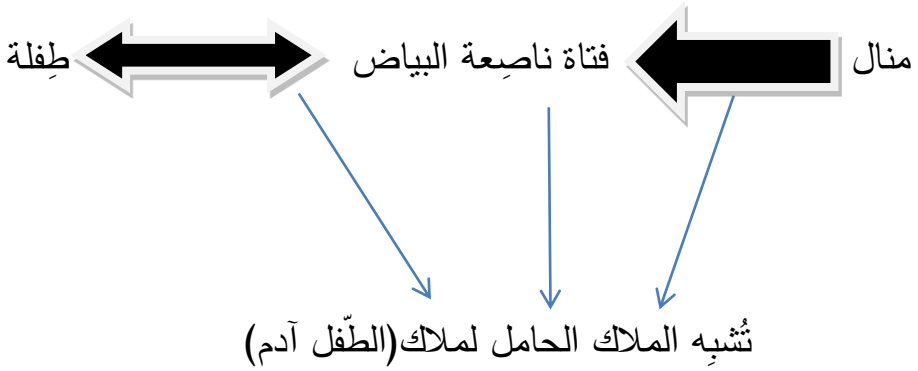

الشّكل رقم(01): تمثيل الصّورة الجسديّة لمنال.

أمّا عن صورة (الملاك) كوصف جاء به (مأمون) لم يكن من اختراعه؛ بل استقاهُ من أقاويل النّاس؛ وتعني أنّها كانت طفلة ناصعة البياض، والبياض عادة يدلّ على الطّهارة والبراءة.

هناك إذن، صورة نمطيّة في أذْهاننا أنّ الملاك دلالة النّقاء، وما اشتركت الصّورتان إلّا في صفة جسديّة هي (شِدّة البياض).

[1] المصدر نفسه، ص:178.

الفصل الثّاني: البحث عن الذّات في رواية أولاد الغيتو اسمي آدم لإلياس خوري

ما هذه إلّا صورة مثاليّة لفتاة صغيرة بيضاء البشرة تحمل طفلا رضيعا، لكنّ الحقيقة تُخفي وتعكس حضورا آخرا ممثّلا في ظلم الواقع للبشر.

وكوصف ثانٍ لمأمون الأعمى، يقول آدم:" توقّف عن الكلام، ورأيتُ دموعا بيضاء تنحدر من عينيه المغمضتين، وأُصبتُ بالرّهبة من مشهد عينين مطفأتين تذرفان الدّموع، كأنّ الدّموع انبجست من لا مكان، وقال لا. لا، مِثْ طفلة، كانت ملاكا يحمل ملاكا"[1].

وهكذا، كشف (مأمون) عن عينيه المُطفأتين، فمشهد الدّموع المُنهمرة أثارت استنفار (آدم)، الّذي أُصيب بالرّهبة من مظهر عينيْ مأمون.

لكنّ حقيقة الألم أزاحت لُبس النّظّارة فصارت الصّورة المخفيّة واضِحة كحقيقة عينَيْ مأمون المُطفأتين.

ويهُمّنا، من هذه الدّلالة أنْ نُشير إلى رأي الكاتبة أمارتيا صن، القائلة:" مُعظم النّاس هم أُناس آخرون"[2]؛ وتعني أنّ صورة البشر الجسديّة تُخفي خلفها هُويّات مُتعدّدة موجودة داخل الفرد الواحد.

كذلك تدُلّ على التّشظّي الذّاتي الّذي انصبّ على الالتباس بهُويّة غير أصليّة، غرَضَ إخفاء إخفاقات العُثور على الذّات الحقيقيّة.

ومنه، نسوق مثالا آخرا للتّوضيح أكثر ولإبراز ملامح الصّور الجسديّة المُتناثِرة عبر صفحات الرّواية، كحقيقة خلود* المرأة الّتي كسرت صمت حشود النّاس المجتمعين أمام الأسلاك الشّائكة في غيتو اللّدّ، حيث جاء المشهد الجسدي شارحا نفسه:" كانت الطّفلة النّحيلة البيضاء شبه عارية، لا يظهر من وجهها سوى عينين كبيرتين، رفعت المرأة طِفلتها إلى الأعلى، فظهرت قدمان رفيعتان"[3].

---

[1] إلياس خوري: رواية أولاد الغيتو اسمي آدم، ص:178

[2] أمارتيا صن: الهُويّة والعنف(وهم المصير الحتمي)، ص:11.

* خُلود: امرأة فلسطينيّة اشتهرت برقصتيْها رقصة الموت والحياة، وزوجة الشّيخ إيليا بطشون.

[3] إلياس خوري: رواية أولاد الغيتو اسمي آدم، ص:226.

الفصل الثّاني: البحث عن الذّات في رواية أولاد الغيتو اسمي آدم لإلياس خوري

وهكذا، رسمت خلود ملامح الفرد الفلسطيني المَسلوب الذّات، فصورة الطّفلة الهزيلة البيضاء شبه عاريّة بارِزة العينين ورفيعة القدمين، كفيلة بتصْوير الجسد الفلسطيني، الّذي صار ضحيّة مُنتهكة الحُضور.

ابنة خُلود ← طفلة نحيلة بيضاء ← شبه عارية

عيناها واسِعتان... قامت أمّها برفعِها للأعلى

فظهرت قدمانِ رفيعتان.

الشّكل رقم(02): تُمثِّل الصّورة الجسديّة لابنة خلود.

فمشهد الفتاة (هند) كان أكثر تعبيرا عن حقيقة الجسد الضّائع، وما هذا إلّا واقع عاشه الفلسطيني ولا زال يعيشه لحدّ الآن.

على هذا النّمط التّحليلي؛ نستمرُّ في فرز الملامح الجسديّة الغائرة في جُبّ الحكاية المَنْسِيّة والقصّة الجريحة، الّتي انكشفت من خلالها حقيقة مُعاناة شعب عربي فقد ذاته.

ونتجاوز بذلك، حقيقة الصُّورة الجسديّة البشريّة إلى صورة جسديّة أكثر عُمقا ودلالة منها ألَا وهي صورة الأرض كجسد، ضاربا جُذوره في عُمق التّاريخ كترسيخ للحُضور.

فالأرض رمز للذّات والهُويّة، لكنّ الحقيقة الفلسطينيّة أثبتت ضياع الأرض، هذا بالتّحديد ما لاحظناه مع شعب انْكسرت هُويّته ومورِست عليه انتهاكات إرهابيّة أَضاعت حُضوره وصوته.

لذلك، عُدّت أرض فلسطين مِثالا تُعكسُ من خلاله تمَظهُرات الذّات المُشَتّتة، لأنّ:" المسألة ليست فقط جريمة تهجير الفلسطينيّين من أرضهم، لأنّ جريمة أكبر جاءت بعدها، هي جريمة فرض الصّمت على شعب كامل، أنا هنا لا أتحدّث عن الصّمت الّذي يلي التّروما في لُغة علماء النّفس؛ بل عن الصّمت الّذي فرضه المنتصر على المهزوم بقوّة لغة

الفصل الثّاني: البحث عن الذّات في رواية أولاد الغيتو اسمي آدم لإلياس خوري

الضّحيّة اليهوديّة الّتي سادت في العالم؛(...) لمْ يسمع أحد أنين الفلسطينيّين الّذين كانوا يموتون ويُشرّدون بصمت"[1].

هي حقيقة مُعاناة شعب بأسْرِه، وصورة لجسد أرض منتهكة مُثْقلة بآهات الغِياب القسري، هذا ما عاناه الفلسطيني أيّام النّكبة والغيتو كحُضور دون رسوخ، فالحقيقة طُمِست والأرض انتُزِعت.

على هذه الشّاكلة، تتجلّى ملامح التّصوير الجسدي المَخفيّة؛ إذْ صارت جزء لا يتجزّأ من معاناة شعب بأسره، ففلسطين قضية الأرض والوطن، وقضية اللّغة والعَلَمْ، وقضية الرّوح والدّم.

هي فلسطين تمثيل للهُويّة الغائرة الملامح والأرض دون روح، فهي صورة ممحُوّة من الخارطة بالرّغم من وُجودها على خارطة العالم.

لذلك، عُدّت الأرض منذ الأزل رمزا للهُويّة، فهي مُرْتكزٌ نقف عليه لنَثْبَت؛ إذْ تمُدّنا بفائض من معاني الهُويّة والحضور أيّا كان نوعها مع الذّات أو الآخر؛ وما هذه إلّا إحالة ترابُطيّة لمسألة الأرض وعلاقتها بالهُويّة والذّات الوطنيّة.

وعليه، يقول(آدم دنّون):" حال اللّد يُشبه حال جميع مدن فلسطين وقُراها، انتظر النّاس الموت، ولم يخرجوا من ديارهم إلّا على إيقاع الأوامر الإسرائيليّة بالمغادرة"[2].

مِنْ هذا، تتّضح ملامح تشبّث الفلسطيني بأرضه وأصله، بالرّغم من تهديدات الإسرائيلي، الّذي استسلم تاركًا إلّا أرضه.

يُضيف (آدم) على ما قاله:" يا ليتني أستطيع أنْ أسأل منال لماذا لم يهربوا قبل دخول الجيش الإسرائيلي إلى اللّد؟ ما الّذي جعلهم ينتظرون المذبحة؟"[3].

---

[1] إلياس خوري: رواية أولاد الغيتو اسمي آدم، ص:363.

[2] إلياس خوري: رواية أولاد الغيتو اسمي آدم، ص:304.

[3] المصدر نفسه، ص:303.

الفصل الثّاني: البحث عن الذّات في رواية أولاد الغيتو اسمي آدم لإلياس خوري

هذا ما، دلّت عليه الصّورة الجسديّة للفلسطيني، فملامح الحقيقة غائرة بعُمق الغياب، لذلك لم يُفكّر سُكّان القُرى الفلسطينيّة بالهرب.

فالتّشبّث بالأرض دليل على التّمسُّك بالهُويّة، بالرّغم من همجيّة وقسوة الجيش الإسرائيلي، إلّا إنّنا نلمح مظْهرا للدّفاع اللّاقصدي عن الذّات والهُويّة العربيّة، لكنّ الرّاهن يُزيح كلّ شيء فنرى صورةً واضِحةً لجسد مُفكّك كحال فلسطين وشعبها اللّاحاضر.

2/الصّورة النّفسيّة:

فالصّورة النّفسيّة، جزء من الشّخصيّة الفرديّة؛ إذْ تعكِسُ تصوّرات الفرد ومشاعره إزاء أمر معين، وبها تتحدّد توجّهات الفرد الحياتيّة نظرا لتحكّمها في الحُضور الذّاتي، منها نستطيع الحُكم على الإنسان من ناحيّة السّلامة النّفسيّة والعقليّة [1].

وبهذا، تقودنا ملامح الشّخص للتّعرّف على ما يُخفيه من مشاعر وترجمتها حسب لُغة الجسد، فإن كان مُتضايقا أو سعيدا بَانَ عليه.

من ذلك، يتسنّى لنا إدراك حقيقة الذّات الإنسانيّة، انطلاقا من مبدأ تحليل الصّورة النّفسيّة لشخص معيّن.

وهكذا، حملت الصّورة النّفسيّة دلالات تُفصِح عن ما وراء الشّخص، أو ما يُعانيه في صمت من مشاكل أثّرت على مَجرى حياته بالسّلب.

يُشير مصطلح الصّورة النّفسيّة إلى النّواحي النّفسيّة والحالات الشّعوريّة للذّات، وهو ما سنتوقّف عنده في رواية(أولاد الغيتو اسمي آدم) لإلياس خوري، الّتي عَكست حقيقة الرّاهن القاسية ورَسَمت ملامح واقِعيّة لأفراد جُرّدوا من الذّات والهُويّة.

وهكذا، تتجلّى صورة الذّات مُزيحة بذلك ضياع الحُضور الفردي، ففي رواية(أولاد الغيتو اسمي آدم) تُسْتَنْطقُ الصّور البشريّة من خلال أبعاد ملامح الحقيقة النّفسيّة، فالفلسطيني أنموذج للصّورة النّفسيّة الضّريرة.

[1] ينظر: أوسم وصفي: الصّورة الذّاتيّة، أوفير للطّباعة والنّشر، عمان- الأردن، ط1، 2008م. ص:06.

الفصل الثّاني: البحث عن الذّات في رواية أولاد الغيتو اسمي آدم لإلياس خوري

هذا ما يُفضي بنا، القول إنّ: الرّواية حمولات من الصّور الحيّة النّاطقة الّتي لم تأتِ عبثا؛ إذْ جيئَتْ بحُكم ظروف الواقع الخانقة لحُريّات الأفراد، فهي تجلّي للحقيقة انطلاقا من شتات الحُضور الذّاتي والجماعي.

فقصّة(آدم دنّون) واقعيّة تَعكِس انكِسار صورة الذّات الفرديّة، ومن هنا ارتسمت صور الذّات الفلسطينيّة الضّائعة بدْءً من راهن مُثقل بأوجاع شعب مُشتّت.

هذا ما، أثبتته صورة(آدم دنّون) أثناء معرفة حقيقته الأصليّة الّتي تنفي حُضوره، يقول آدم:" جاءني مأمون في نِهاية الزّمن كي يُدمّر الصّورة الّتي رسمتها لنفسي، بوصفي الابن الّذي قتله والده"[1].

يُريد آدم بعبارة (الابن الّذي قتل والده) إيصال شعوره الشّديد بالألم جرّاء معرفته لحقيقته الزّائفة، فالصّورة الّتي رسمها لنفسه دفعته لمُحاولة اغتيال الذّاكرة بمحو تفاصيل والده الّذي لا يعرفه.

انطلاقا من هذه التّصوّرات، تكشّفت ملامح فقدان الذّات النّابعة من صدمة إدراك الحقيقة، فلقاؤه بمأمون رماه في دوّامة الأسئلة من بادئ البحث عن الذّات.

هي شدّة الألم بالتّحديد ما صَوّرتهُ لنا نفسيّة آدم المُنتَهكة فردا دون ذات، وواقِعٍ تحت ضُغوطات الصّدمة.

فغياب الحقيقة يقود الإنسان للجنون، هذا ما حصل مع(آدم دنّون) حينما اكتشف أصله الغائر بجُبِّ الأسئلة والنّكبة، يقول آدم:" فإذا بي أمام أبوين عاجِزين: الأوّل تركني عندما انطبقت سماء اللّدّ على أرضها، والثّاني لمْ يكُن إلّا صورة لجأتْ إليها منال الوحيدة وسط برك الموت والقهر، كي تُعطي معنى لحياتها الّتي فقدت كلّ معانيها"[2].

وهكذا، انبَجَسَتْ معالم التّأثّر بالحقيقة عند آدم دنّون كإنسان فقد دلالة حُضوره؛ إذْ استخدم أسلوب اللّوم حَلًّا يُنسيه ألمه، لكنّه عجز عن نسيان البحث عن ذاته الأصليّة.

---

[1] إلياس خوري: رواية أولاد الغيتو اسمي آدم، ص:179.

[2] إلياس خوري: رواية أولاد الغيتو اسمي آدم، ص: 179.

الفصل الثّاني: البحث عن الذّات في رواية أولاد الغيتو اسمي آدم لإلياس خوري

فدلالة صورة الأبّ المزعوم لآدم(الشّهيد حسن دنّون) كانت وسيلة منال للتّنفيس عن عذابها مع زوجها (عبد اللّه الأشهل) الّذي حطّم معالم الأُنوثة والحياة لديها.

ومنه، رُسِمت الصّورة النّفسيّة عند(آدم دنّون) و(منال) انطلاقا من حالة الفقد والألم، فكَشف الحقيقة النّفسيّة للإنسان أمر يصعُب الاسْتدلال عليه إلّا بواسطة الصّورة وانعكاساتها.

فمن الخطأ أن نظُنّ، أنّ: الصّورة النّفسيّة عبء الفرد الفلسطيني وحسب؛ بل هي عبء الإنسان الفاقد لذاته وحقيقته.

لكن، يجدُر بنا التّوقّف هنا، لتوضيح فِكرة فقدان الذّات الّتي صارت بمثابة شبح يُؤرّق صفو حياة الفرد؛ ولعلّنا بهذا الطّرح كَشَفنا ملامح الإنسان المُتشظّي الذّات، على ذلك يقول آدم:" أَهْرُب من كتاب لم يكتب، فأكتشف أنّني لا أعرف من أكون، هل أنا ابن الحكاية؟ أبناء الحكايات يكبرون بسرعة ويموتون بسرعة، وأنا أيضا، كلّنا أبناء الحكاية، لأنّ الحياة نفسها تمضي بنا كما تمضي الحكايات بأبطالها"[1].

ما هذه، إلّا صورة عن شدّة الألم انبثقت من شخص فقد حقيقته وحكايته، الّتي صارت حلقة مفقودة يبحث عنها بالأسئلة.

فَهَوَسُ إدراك الحقيقة جُنون بِحدِّ ذاته، هذا ما فسّره(آدم دنّون) حينما هرب من كِتابة مؤلّفه عن الشّاعر الأموي (وضّاح اليمن)، ليكتشِف أنّه لا يعْرِف مَنْ يكونْ كحِكاية ناقِصة، فأبناء الحكايات يكبرون ويموتون بسُرعة، لأنّ الحياة سيرورة دائمة التّدَفُّق.

وهكذا، نوجز الحديث عن مسألة الهروب من الحقيقة المرّة الّتي يحياها الفرد داخل وطنه فردا مُسْتعمَرًا، إنّها حقيقة الفلسطيني الضّائع الذّات.

يقول في ذلك، النّاقد المغربي فتحي المسكيني:" نحن إذن لا نوجد خارج الرّاهن؛ بل نحن بنية الرّاهن، أو نحن الرّاهن وحسب، وهكذا بدأ ينكشف للتوّ أنّ النّحن إنّما هي إذن: في

[1] المصدر نفسه، ص:117.

الفصل الثّاني: البحث عن الذّات في رواية أولاد الغيتو اسمي آدم لإلياس خوري

أصلها إمكان زماني"[1]، نفهم بذلك أنّ الإنسان موجود داخل الواقع؛ حيث لا يُمكنه الخروج عنه، فنحن الذّوات الّتي تُشكّله انطلاقا من حُضورنا.

وهنا، تتّضحُ حقيقة إدراك الصّور الّتي لا تتأثّر إلّا بقضايا الرّاهن المُزرية، كحقيقة الذّات العربيّة الّتي تَعيش التّشتّت والضّياع.

ومفاد القول إنّ: موضوع الذّات بالأساس موضوع راهني شائك لِما يحمله من أزمات الإنسان العربي المُعاصر؛ وهذا ما يُفسّر الصّورة النّفسيّة المُضطربة عند الفرد العربي الضّائع الذّات، فصورة الاضطهاد واضِحة على مُحيّا الفرد الفلسطيني المُشتّت الذّات، الضّائع داخل أرضه.

من هنا، تتكَشّف أبعاد الألم عند الفرد دون ذات تُحيل، هكذا رسم (نبيل الكرازون)* صورة نفسيّة تَعكِسُ أنين الألم الّذي ينبعِث من احتراق الرّوح والذّاكرة:" عندما سمعنا صُراخ نبيل الكرازون وجعيره ركضنا صوبه، فرأيناه جاثيا على الأرض أمام سرير فيه طفلة رضيعة مُشوّهة الوجه بالموت، أُختي لطيفة صَرخ نبيل وهو يئِنُّ ! كان المشهد مُرعِبا"[2].

هذا ما، التقطته عينَيْ مُراد*الشّاب الّذي اصطدم بحقيقة مشاهد الرّعب في لَدِّ فلسطين، فمن أبرز ما رواه عن عمليّة انتشال الجُثث من البيوت والطّرقات، هي صورة (لطيفة) الفتاة الصّغيرة المُفكّكة الجُثّة، وحالة انهيار (نبيل الكرازون) عند عثوره عليها.

فالصّورة لوحدها كفيلة بعكس حقيقة الشّعب الفلسطيني المظلوم، فمآزق الحياة عند الفلسطيني صارت بمثابة صَدمات، وحقيقةٌ يُعثَرُ عليها فتَنقلب الحياة رأسا على عَقِب.

على ذلك، يُواصل (مراد) نقل أحداث تلك اللّيلة المُرعِبة، الّتي انعكست من خلالها صُورة الفلسطينيّ المُشَوّهة الملامح، يقول:" ركضتُ كي أُغطّي الطّفلة، خلعتُ كوفيّتي ووضَعتها

---

[1] فتحي المسكيني: الهُويّة والزّمان(تأويلات فينومينولوجيّة لمسألة النّحن)، ص:33.

* مراد: أحَدُ الشّباب الفلسطينيّين المُشاركين في عمليّة جمع الجُثث وإحْراقِها.

[2] إلياس خوري: رواية أولاد الغيتو اسمي آدم، ص:384.

الفصل الثّاني: البحث عن الذّات في رواية أولاد الغيتو اسمي آدم لإلياس خوري

على جِسمها الهشّ المُتخشّب، لكنّ نبيل أزال الكوفيّة وبدأ يَصرُخ شوفوا الملاك، هيك يا اللّه، هيك بتعمل فينا، أأأأخ، ومع الأخْ خرجت من أحْشائه، ارتفع أنيننا، نحن الرّجال الخمسة المولجين بلمّ الجُثث إلى السّماء"[1].

هي صُورة نفسيّة موجعة عالقة بذات الفرد الفلسطيني، كحقيقة الأنين النّابع من أحشاء (نبيل كرازون) وانهياره الهِستيري، الّذي جعل الجميع يئنُّ ألما لمآلِ الفتاة لطيفة.

في تتبُّعِنا لهذا المقطع الوصْفي، كانت مشاهِد الألم عالقة بذاكرته،" فوجه الفتاة الصّغيرة المُتآكل انطبع في قلبي ورافقني طوال حياتي"[2].

في حالة الصّدمة تنطبع الحقيقة كما هي فيصعُب نِسيانها، وهذا ما يُوقع الإنسان في مشاكل نفسيّة عَويصة تنعكِسُ عليه بالسّلب، كحال (نبيل) الّذي بكى طِفلة ليست أُخته، يقول إيليا بطشون*:" هاذي مشْ أختك يا ولد، ليشْ إنتَ مجحِشْ هيك، إنتَ ما عندك أُخُتْ طفلة، أُختَكْ لطيفة صارت صبيّة عمرها 13 سنة، وهذا مِشْ داركُمْ، إنْتَ عارف أنّو أهلك شرّدوا كلهمْ، وصاروا بنَعْلين وأُختك معاهم، مالك إيشي يا ولد، يبدو إنّك نجَنِّيت"[3].

فللصّدمة وَقعُها الخاصّ على ذات الإنسان الّذي يتَعرّضُ للانهيار والنّسيان، وهُو بالتّحديد ما حصل مع الشّاب الفلسطيني نبيل، وغيره من الفلسطينيّين.

إنّ ملامح الشّعب المُجرّد الصّورة دليل قاطع على مُعاناة لا يعكسها إلّا أهلها، هكذا فرّ(آدم دنّون) من فلسطين لأمريكا تاركا وراءه وطنا ينزُف وشعبا أسيرا وحُضورا غائبا، من ذلك يقول(آدم):" حِين قرّرت الهجرة إلى نيويورك كُنت مُصمّما على نِسْيان كلّ شيء، حتّى

---

[1] المصدر نفسه، الصّفحة نفسها.

[2] المصدر نفسه، الصّفحة نفسها.

* إيليا بطشون: شيخ مسيحي مُتديّن تخلّف عن أبنائه وظلّ بالغيتو لقُربها من مقام الخِضر، تزوّج من خلود وغيّر دينه فصارَ يُعرف بالشّيخ صبابة، وأحد أعضاء لجنة الغيتو.

[3] إلياس خوري: رواية أولاد الغيتو اسمي آدم، ص:386.

الفصل الثّاني: البحث عن الذّات في رواية أولاد الغيتو اسمي آدم لإلياس خوري

إنّني قرّرتُ أنّني لحظة حُصولي على الجنسيّة الأمريكيّة سوف أُغَيّر اسمي، لكن يبدو أنّني سأموت قبل أنْ يحصُل ذلك، الموت حقٌّ، وحقّي من الموت هو موتي، لا لستُ مريضا"[1].

إنّ كثرة المشاكل تقود الإنسان للرّحيل من المكان الّذي ذاق فيه أبشع مظاهر الألم؛ فالفِرار يعني النّسيان، لكنّه في حالة (آدم) صورة واضحة للتّخطيط المُسبقِ باتّخاذ القرار الفاصل بإنهاء حياته، فواقع الفرد الفلسطيني حِصار ودمار وهُويّة ضائعة وذات مُشتّتة؛ هذا ما يُفسّر فرار (آدم دنّون) من فلسطين صَوْب أمريكا، لكنّ الرّاهن يبقى ظالما والحقيقة تتجلّى عن طريق الصُّدفة فيزول الالتباس، وهو ما يدفع الإنسان للتّفكير المُلِحِّ في الموت.

فالذّاكرة المؤلمة مشهد من مشاهد الحقيقة المُضمرة، الّتي تُخفي وراءها صورة لإنسان دون ذات، يقول آدم:" أنا لستُ أكثر ظُلما من الذّاكرة نفسها"[2].

يعني ذلك؛ أنّ الذّاكرة الّتي تُحيل الفرد لماضيه المؤلم، مصدر للتّعذيب النّفسي فهي أكثر ظُلما للإنسان من نفسه.

لكن، حينما تَضِيع الذّات الأصليّة للإنسان تزول هيبته فيُصبح مُنْكسر الحال، وهو ما يجعله أكثر عُرضة للانتحار.

على ذلك، يُصرّح سليم مطر:" الفلسطينيّون هم أبناء أرض فلسطين منذ التّاريخ المجهول، ثمّ وجود الكنعانيّين ثمّ اليهود ثمّ الآراميّين ثمّ العرب ثمّ الصّليبيّين، تتبدّل الأسماء واللّغات والأديان؛ وشعب فلسطين هو نفسه لأنّه شعب الأرض الّتي تذوب تاريخها الجماعات واللّغات والأديان الجديدة، على هذا الأساس فإنّ اليهود أو الإسرائيليّين مهما كانت أصالتهم السّلاليّة اليهوديّة المُفترضة، فإنّهم في أقصى الأحوال لا يُمكنهم أنْ يكونوا سوى جزء من شعب فلسطين"[3].

---

[1] المصدر نفسه، ص: 22.

[2] إلياس خوري: رواية أولاد الغيتو اسمي آدم، ص:192.

[3] سليم مطر: الذّات الجريحة –إشكاليّة الهُويّة في العراق والعالم العربي الشّرقمتوسّطي–، بغداد، دار الكلمة الحرّة، بيروت، ط4 مزيدة ومنقّحة. 2008م. ص:192.

الفصل الثّاني: البحث عن الذّات في رواية أولاد الغيتو اسمي آدم لإلياس خوري

في هذا الإطار، تتّضح أمامنا حقيقة تواجد اليهودي في فلسطين كمالك للأرض؛ حيث أُثبِتَ العكس؛ لأنّ فلسطين ملكٌ للعربي منذ التّاريخ القديم.

تأسيسا على ذلك، نقول إنّ: للحقيقة الصّادمة أثرا لا يُمحى من الذّاكرة، فمهما حاولنا الفرار وتناسينا أنّنا كُنّا يوما ما هكذا، إلّا أنّنا نعجز عن النِّسيان مهما ابتعدنا، فالذّكرى عبارة عن شبح يُلازمنا ما حَيِينا:" اعرف نفسك بنفسك"[1]، هذا ما يجب أنْ يعرفه كلّ إنسان عن ذاته الّتي باتت مُتأرجِحة بين الحُضور والغياب في واقع مأزوم.

فمسألة تشظّي الذّات صورة نفسيّة تعكس واقع الفرد العربي، وما يعتريه من انكسار الذّات؛ وتعني:" انهيار التّماسُك الذّاتي، وتُعدّ الفوضى الذّاتيّة مثل الرّيبة والقلق المُفرط الّذي لا يُقاوم"[2].

نفهم من ذلك؛ أنّ للواقع دورا فاعِلا في التّأثير على الذّات الفرديّة الإنسانيّة، بدْءًا من التّغييب الذّي يَرْمي بالفرد في متاهات الأسئلة والبحث المُستمرّ عن حقيقته الضّائعة.

إنّ فُقدان الذّات صُورة تُفَسَّرُ بواسطتها حِدّة الصّدمة جرّاء عامِلِ الضّياع، وهو ما يُعطينا تبريرا لحالة (آدم دنّون) حين إدراكه حقيقته المُزيّفة، يقول:" وحكى، استمعت إليه بعينيّ، ورأيتني رضيعا ومرميّا، أنام فوق صدر أمّي.. يا إلهي! من أين أتى الرّجل الأعمى بهذه الحكاية؟"[3].

فالصّدمة من الحقيقة صورة انطباعيّة لذاتِ إنسانٍ تفتّتت صورته، هذا ما فَسّره مشهد العُثور على (آدم) رضيعا مرميّا فوق صدر أمّه الميتة، على ذلك تساءل (آدم) في صمت من أين أتَى الأعمى بهذه الحِكاية؟

---

[1] عزيز لزرق ومحمّد الهلّالي: الشّخص، ترجمة: عزيز لزرق، محمّد الهلّالي، دار توبقال للنّشر، الدّار البيضاء– المغرب، ط1، 2010م. ص:25.

[2] شيماء نجم صفر: تشظّي الذّات وتحلّل الشّخصيّة وعلاقتهما بالكرب النّفسي، المكتب الجامعي الحديث، الاسكندريّة– مصر، ط1، 2014م. ص: 14.

[3] إلياس خوري: رواية أولاد الغيتو اسمي آدم، ص:115.

الفصل الثّاني: البحث عن الذّات في رواية أولاد الغيتو اسمي آدم لإلياس خوري

مِن منحى الأسئلة المتكرّرة يَسقط الإنسان المتشظّي الذّات في حيرة البقاء والزّوال، ومنه يفقِد السّيطرة على نفسه مِن جهة، ومن جِهة ثانية يُجبُره التّفكير في الانتحار كحلّ نهائي يُعفيه من ألم البحث عن الأصل.

إذن، صارت الرّاحة النّفسيّة دليلا جليّا عن حُضور الذّات الأصليّة، لأنّ:" تشظّي الذّات يتفاوت في الشّدّة متراوحا بين التّشويشات الخاطفة للتّماسك الذّاتي، الّذي يعود لينشأ بسرعة نسبيّا إلى حالات طويلة من التّماسك الذّاتي المُشوّش، وتشظّي الذّات إذا كان ضعيفا أو شديدا قد ينتج أو يُؤدّي إلى نشاط مُضطرب أو جُنوني"[1].

من هنا، تبرز أبعاد تشظّي الذّات عند الإنسان الفاقد لأصله؛ حيث يقوده ضياع ذاته الأصليّة لارتكاب أبشع سُبل التّعذيب الذّاتي بحثا عنها.

ففي اللّحظة الّتي عَرَف فيها(آدم دنّون) حقيقته الزّائفة أُسْقِطَ قسرا في متاهات الأسئلة؛ إذْ صار ضائعا مُضطربا كانعكاس لتشظّي الذّات، يقول:" لكن ما إنْ عثَرْت على مأمون، صديق طفولتي ومُعلّمي الّذي خانني وأنا في السّابعة، ومضى إلى مصر كي ينهي تعليمه الجامعي، وتركني وحيدا مع أمّي، حتّى أضعْتُ كلّ شيء من جديد، وأحسستُ أنّ هذه الأنا الّتي عثرتُ عليها، كانت وهما، لأنّني لم أكُن بالنّسبة إلى مأمون سوى حكاية تستحقُّ أنْ تجد من يكتبها"[2].

نستشفّ من قول آدم مدى تأثّره بالحقيقة الّتي جاء بها مأمون؛ إذْ نلمس شيئا من الحُنقة والألم لمآله كإنسان دون ذات.

وعليه، تتمظهر ملامح الذّات المنكسرة كتعبير مباشر يعكِس أرقا نفسيّا، أثّر بالسّلب على حقيقة الإنسان، هذا ما صوّرته لنا حقيقة آدم الّتي أضاعته.

---

[1] شيماء نجم صفر: تشظّي الذّات وتحلّل الشّخصيّة وعلاقتهما بالكرب النّفسي، ص:14.

[2] إلياس خوري: رواية أولاد الغيتو اسمي آدم، ص:114.

الفصل الثّاني: البحث عن الذّات في رواية أولاد الغيتو اسمي آدم لإلياس خوري

وهكذا، دفع (آدم) حياته مقابل فقدانه لذاته؛ حيث قال:" روى مأمون حكايتي الّتي لا يعرفها سوى شخصين هو ومنال، وعندما فوجئ بأنّني فوجئتُ بها، أبدى استغرابه لأنّ منال لمْ تُخْبرني، قال إنّه أخذ منها وعدا بأنْ تُخْبرني الحقيقة عندما أصير في الخامسة عشرة، لأنّ على الإنسان أن يعرف حقيقته، لا أنْ يعيش في الوهم"[1].

من هنا، خَطَّ (مأمون الأعمى) مصير (آدم) بالاشتراك مع منال، بإخفاء حقيقة العثور عليه مرميّا على صدر امرأة ميتة تحت شجرة زيتون.

فعادة ما يبدأ الإنسان بسؤال لحظة وقوع الصّدمة استدراكا لذاته والواقع، فهو غريب مع ذاته وغيره وما سؤال الذّات إلّا مُحاولة جادّة منه لإبقاء حُضوره الرّاهن.

وكما، أشرنا سابقا لعلاقة الصُّدفة بالصّدمة، يقول آدم:" ما هذه المُصادفة العجيبة الّتي قادتني إلى مأمون؟ أو قادت مأمون إليَّ في هجرتي من نفسي وبلادي إلى نيويورك؟"[2].

إذن، هي المُصادفة الغريبة الّتي قادت (مأمون) لمكان تواجُد (آدم) الجديد، هذا ما قاله آدم فالحقيقة تبقى موضِعا للشّكّ ما دام هنالك أشخاصٌ يتقاسمون تفاصيلها معنا.

أمّا عن حقيقة وفاة(مفيد شحادة) الفتى الّذي عُلّق على الأسلاك الشّائكة مُغطّى بدمائه كطائر تناثر ريشه، تنعكس دلالات صورة نفسيّة مُترامية الأبعاد، فهكذا:" سقط الفتى كان كأنّه سقط من الأعلى، ذِراعاه ممدودتان كأنّهما مُعلّقتان على صليب لا وُجود له، ارتطم رأسه بالأرض وهَمَدت حركته"[3].

إذن، هي صورة الحرب وتَمَثُّلاتها، فهذا ما لاحظناه مع الفتى (مفيد شحادة)، الّذي بقيت صورته عالقة بذوات الفلسطينيّين لسنين طويلة، فحقيقة الموت جاءت مُفاجئة وصورة الإسرائيلي انطبعت بالذّاكرة.

---

[1] المصدر نفسه، ص: 115.

[2] إلياس خوري: رواية أولاد الغيتو اسمي آدم، ص:179.

[3] المصدر نفسه، ص: 242.

الفصل الثّاني: البحث عن الذّات في رواية أولاد الغيتو اسمي آدم لإلياس خوري

وهكذا، هي الصّورة الّتي أَوْقَفَتْنا عند مفيد شحادة، كتمثيل لمشاهد الألم من زاوية واقِعيّة:" في تلك اللّحظة حصلت المأساة الأولى في الغيتو، وسوف تبقى مأساة هذا الفتى الّذي كان في السّابعة عشر من عمره محفورة في وجدان النّاس، لمْ يتمالك مأمون نفسه من البكاء وهو يروي لي هنا في نيويورك ذكرياته عن مشاعره ومشاعر أمّي، بعد أكثر من خمسين عاما على مقتل الفتى بتلك الطّريقة المُحزنة، عصَفت به ذاكرته إلى ذلك اليوم الأوّل، حين مات مفيد شحادة معلّقا على الأسلاك الشّائكة مثل عصفور انطعجت رقبتُه وتناثر ريشه، وهو فاتح ذِراعيه"[1].

ويبقى القول، إنّ: صورة المأساة لا تُمحى من الذّاكرة؛ إذْ تبقى لحظتها كما هي لا يَأخُذُ الزّمان فيها ولا يجيب، فهي باقِية لا تزول.

وعن، مشهد رقص خلود تجلّت حقيقة الفقد واللّا مبالاة بالموت، لأنّ الفلسطيني أُريق دمه وهُدِمَتْ ذاته حينما وُضِع داخل قفص كالحيوان.

وهكذا، عبّرت (خلود) عن ضياعها كامرأة قُتل زوجها وسِيق ابنها للأسْر بالرّقص، يقول آدم:" اسْتَمعت إلى ما فَعلتْه خلود من عِدّة أشخاص، والجميع أكّد أنّها حملتْ طِفلتها ومَشَتْ في الموكب وهي ترقُص، وعِندما منعها الجنود من اجتِياز الأسلاك مع الموكب الصّغير، رَفَعت ابنتها إلى الأعلى ورَقَّصَتها وهي تَطلُب من الجُنود أخذها؛ ومرّة جديدة زجرها إيليا بطشون، وجرّها إلى المنزل حيث قرّر أنْ يُقيم"[2].

ما هذه إلّا صورة نفسيّة توضّح شدّة الألم الّذي أحسّته امرأة فلسطينيّة فاقدة لذاتها وأهلها وأرضها.

من ذلك، تتجلّى الصّور النّفسيّة بكثرة عبر صفحات الرّواية، موزّعة بين الذّوات الفلسطينيّة الشّاهِدة على مأساة شعب ضاعت ذاته وهُويّته.

3/الصّورة الاجتماعيّة:

[1] المصدر نفسه، ص:237.

[2] إلياس خوري: رواية أولاد الغيتو اسمي آدم، ص: 257-258.

الفصل الثّاني: البحث عن الذّات في رواية أولاد الغيتو اسمي آدم لإلياس خوري

تُعدُّ الصّورة الاجتماعيّة من المظاهر، الّتي تعكس أبعاد العلاقة بين البشر ضمن نطاق الواقع.

وبهذا تتجلّى، مشاهد الظّلم المُختلطة بألوان الألم النّابع من حقيقة الواقع المَعيش، فيحِقّ القول، إنّ:" الهُويّة الاجتماعيّة النّفسيّة كلّ انتماءات إنسان ما للجماعة"[1]؛ والمعنى أنّ الصّورة الاجتماعيّة تنعكِس من خلال الانتماء للجماعة، وهذا ما تُثبِتُه الهُويّة الاجتماعيّة الّتي ترسُم أبعاد العلاقة بين مجموعة أفراد ضمن حدود مُشْتركة.

تأسيسا على ذلك، فإنّنا نستطيع اعتبار الصّورة الاجتماعيّة تمثيلا لمَشاهد الواقع؛ حيث يُمكننا ربطها بحالة الانكسار الجماعي كمظهر من مظاهر تَشَتّت الذّات العربيّة.

لذلك، حملت الرّواية العربيّة صُورا اجتماعيّة تُحيل للفرد ضمن راهنه، انطلاقا من مبدأ الإنسان ابن بيئته يتأثّر ويُؤثّر فيها إمّا بالإيجاب أو السّلب.

من ذلك، انطلقت جلّ الكتابات الرّوائيّة العربيّة من الرّاهن، تصويرا للحقيقة الّتي يحياها الفرد العربي الضّائع الذّات.

هذا ما، صَوّرته لنا رواية(أولاد الغيتو اسمي آدم) كانعِكاس لحدود صورة اجتماعيّة مُزرية، الّتي رَسَمَ ملامحها شعب عربيّ ضَاع حُضوره فصار رمزا للشّتات.

فصورة، الفلسطيني تنطق لتُعبّر عن واقع الإنسان الضّائع داخل وطنه، يقول آدم:" ستكتشف أنْ يكون الإنسان ابن المنفى الدّائم، وهذا هو في رأيي الشّرط الوجودي لليهود، قبل أن تمحو إسرائيل هذا الشّرط لمصلحة وُجود عبثي لا معنى له"[2].

مَا هذا، إلّا رأي فرد سُلبت ذاته الأصليّة فاقتصر حُضوره على الافتراضات، فالفلسطيني صورة المنفى الدّائم حسب الاعتقاد اليهودي.

---

[1] بيتر كوزن: البحث عن الهُويّة(الهُويّة وتشتّتها في حياة إيريك إيريكسون وأعمال)، ص:112.

[2] إلياس خوري: رواية أولاد الغيتو اسمي آدم، ص:208.

الفصل الثّاني: البحث عن الذّات في رواية أولاد الغيتو اسمي آدم لإلياس خوري

ونحن هنا، إزاء تصوير لوحات بشريّة حُرِمت حُضورها، فالذّات الفلسطينيّة صورة اجتماعيّة مُثْقلة بالألم، هذا ما رسمه سُكّان لَدّ فلسطين الّذين أصبحوا رُسُومات لحقيقة مُنكسِرة.

هكذا، ارتسمت أبعاد الصّورة الاجتماعية المُترامية التّأويلات لشعب فقد ذاته، يقول آدم:" يذكر النّاس أنّ الطّقس كان حارّا ورطبا، وأنّهم لمْ يفهموا شيئا، فجأة رأوا رِتلا إسرائيليّا مُدرّعا يخترق شوارع المدينة وهو يُطلق النّار، المُدافعون عن المدينة تلاشوا فجأة، وصار النّاس مثل موج بشري يترنّح في مُواجهة الرّصاص والموت"[1].

هذه حقيقة الاحتلال دمار وانكسار وانتهاكات مُريعة، وما مشهد الهجوم اليهودي وإفراغ المدن والقرى الفلسطينيّة من سُكّانها إلّا صورة اجتماعيّة لذاكرة شعب مورِس بحقّه الإرهاب.

هي صورة اجتماعيّة تعكس همجيّة الاحتلال الإسرائيلي على الشّعب الفلسطيني المالك للأرض، وهكذا ارتسمت اللّوحة البشريّة الدّامية لسُكّان المدن الفلسطينيّة، كتدافع السّكان المذعورين تحت وابل من الرّصاص.

هنا، تتجلّى ملامح الرّعب الجماعي، الّتي تُفصِح عن حقيقة ذوات جُرّدت ذاتها بين عشيّة وضُحاها، فصارت انعكاسا لصُور بشريّة ملأى بمَظاهر التّعذيب.

انطلاقا من هذا الوعي بالذّات، يقول إدوارد سعيد:" حالة المنفى هذه(...) الّتي تُفصِح ببلاغة المأزق الفلسطيني الكبير للهُويّة المُشتّتة والمُتنازع عليها؛ لأنّها خُلِقت وأُعيد خلقُها"[2]؛ نفهم من ذلك أنّ حالة النّفي داخل الوطن تُعطي تمثيلا حاضرا للتّشظّي الذّاتي الجماعي لشعب فلسطين.

وما ملامح الجوع والعطش إلّا تصويرا لذات جماعيّة مُنْتَهكة، وخير تمثيل على ذلك شكل الجنود المنتشرين في كلّ مكان وعمليّات السّطو.

---

[1] المصدر نفسه، ص:302.

[2] بيل أشكروفت وبال أهلواليا: مفارقة الهُويّة، ص:175.

الفصل الثّاني: البحث عن الذّات في رواية أولاد الغيتو اسمي آدم لإلياس خوري

فهكذا، كان الجنود:" ينتشرون على الطّريق الوعر، ويستولون على ما يملكه سيلُ الهاربين من نقود ومصاغ، وينظرون إلى هذه الجموع التّائهة بلا مبالاة"[1]، هذه صورة اجتماعيّة لذات عربيّة ضاعت وسُلِبت ممتلكاتها من مُحتلّ لا يرحم، هذا ما دلّ عليه مشهد الجنود المُنتشِرين في كلّ مكان.

إذن، هي سِياسة الأخذ الّتي تُثبِتُ همجيّة الإسرائيلي، وتَصَوُّرُ مُعاناة جماعيّة لشعب أَعزل مُثقل بغياب الذّات والوطن.

وعليه، انعكست صورة الواقع وبقيت راسخة كحقيقة الألم المحفور في الذّاكرة وشبح الخوف من الموت، يقول(آدم) واصفا حالة العطش أيّام الغيتو:" خريطة الألم هي حِكاية العطش، وبراميل الماء الّتي تتدحرج من بئر بيّارة إبراهيم النّمر، والجرحى الّذين ينتظرون الدّواء، ودفء الحزن الّذي صار بديلا لحياة افترسها المجهول"[2].

هنا، تتجلّى دلالات الغِياب مُمثّلة في مشاهد العطش ونقص المؤونة والدّواء، فصورة الألم الجماعي صارت حِكاية أهل الغيتو المَجهولي المصير.

ومنه، حمل العطش أبعادا تجاوزت حيّز الفِعل المُعتاد(نَشرب لنرْتوي فيذهب العطش) إلى الانكسار الذّاتي، وهذا ما توصّل له الفرد الفلسطيني مسلوبًا وأسيرًا؛ حيث أعطى للمفهوم صورة خاصّة انعكسَت بواسطتها حقيقة اجتماعيّة مُزرية اعتُبِرت مأساة الجميع، يقول آدم:" امرأة العطش الّتي تملأ جميع أوعية البيت بالماء؛ لأنّها تعلّمتْ في تجربة الغيتو أنْ تخاف من غياب الماء، وكان زوجها يتأفّف دائما من ولعها بالماء ويشتمها، لأنّها حوّلت بيته إلى مُستنقع"[3].

هو الخوف من الموت، هكذا رسمت منال لوحته الدّامية كانعكاس لتجربة جماعيّة خاضَتها أيّام الغيتو.

---

[1] إلياس خوري: رواية أولاد الغيتو اسمي آدم، ص:164.

[2] إلياس خوري: رواية أولاد الغيتو اسمي آدم، ص:292.

[3] المصدر نفسه، ص:133.

الفصل الثّاني: البحث عن الذّات في رواية أولاد الغيتو اسمي آدم لإلياس خوري

ومنه، كان العذاب أشدّ وقعا من الألم؛ حيث إنّ:" العذاب بمعناه القويّ يتدخّل حين يبدأ الألم في اشتغاله بالوخز والضّربات؛ بحيث يغدو غير مُحتمل فيُدمّر قُدرات الفرد على المُقاومة؛ أي هناك حيث يفقد التّحكّم في نفسه ويُحسّ بأنّ وُجوده يتفكّك، والعذاب يعني الهُويّة المُهدّدة والإحساس بالكارثة، هكذا تتحوّل الحياة إلى عذاب أليم"[1].

نفهم من ذلك؛ أنّ صورة الفلسطيني أيّام الغيتو حقيقة للعذاب الجماعي، الّذي يُفقِدُ الإنسان ذاته فيجعله أكثر عُرضة للانهيار.

فمهما يكن، فإنّ حقيقة الصّورة تكشف بدقّة عن حقيقة الشّخص وما يُعانيه من ألم، وما مشاهد العطش في غيتو اللّدّ إلّا انعكاس حاضِر لمآزق الذّات العربيّة، يقول إيليا بطشون:" ارتفع صوت خديجة: يا اللّه، يا اللّه، صرخت المرأة بصوت مليء بالنُّواح، بدنا ميّ يا اللّه، لم يأتِ صُراخ خديجة من فراغ، فبركة الوضوء كانت قد فرغت بعد يومين من الاستخدام، لأنّها كانت المصدر الوحيد للماء"[2].

وهكذا، عبّرت (خديجة زوجة الفرّان) عن خوفها من نفاذ الماء، كان كفيلا بإحداث حالة من الهلع والاستنفار لدى ضحايا الغيتو، الّذين صاروا جُثثا شبه حيّة تُعاني العطش والجوع في حدود قفص مُسيّج.

فما هذه، إلّا صورة اجتماعيّة من قلب الحدث تَكَشّفَتْ من خلالها حقيقة المُعاناة، الّتي رَسَم ملامحها شعب عربي أسير.

وكإضافة، تقول خديجة:" عم نموت من العطش(...) ورح نموت من الجوع كمان؛ لأنّه ما بقى فينا نخبز"[3]، هي أبعاد الصّورة الجماعيّة فخديجة لمْ تتكلّم بصيغة المُفرد؛ بل تحدّثت بلُغة الجميع وهذا دليل الرّوح الجماعيّة، الّتي عجز الإسرائيلي عن إزاحتها.

---

[1] دافيد لوبروطون: تجربة الألم، ترجمة: فريد الزّاهي، دار توبقال للنّشر، الدّار البيضاء– المغرب، ط1، 2007م.ص:19.

[2] إلياس خوري: رواية أولاد الغيتو اسمي آدم، ص:327.

[3] المصدر نفسه، ص:327–328.

الفصل الثّاني: البحث عن الذّات في رواية أولاد الغيتو اسمي آدم لإلياس خوري

على ذلك، يقول آدم:" مَشت خديجة صوب الأسلاك، فلحق بها الجميع، وضعت المرأة الخمسينيّة السّمراء الّتي كانت تُغطّي رأسها بشال أسود يديها على الأسلاك وبدأت تهُزُّها(...) تقدّم إيليا بطشون وبقيّة أعضاء اللّجنة من الأسلاك، وسمِع النّاس صوت إيليا قائلا: نحن نموت من العطش يا خواجة(...) مش رح نتزحزح من هون، صرخت منال، عنّا أطفال رُضّع، أطفالنا نشفوا، شوفوا ابني يا ناس، صار جسمه زي الحطبة، إيش أسقيه"[1].

ولعلّ ما يُفسّر؛ أبعاد الحقيقة المُزرية صورة الرّضيع آدم المُتَخشّب الجسد، وما فعلته خديجة زوجة الفرّان كان تحريضا مُباشرا لباقي سُكّان الغيتو؛ حيث عكس صورة التّكافل الاجتماعي بين أبناء الشّعب الواحد.

هي صور الاتّحاد بين الذّوات الفلسطينيّة الأسيرة بالغيتو، سمحت لهم فتح باب للنّقاش مع الكابتن الإسرائيلي وسماحه بجلب الماء من خارج الغيتو، يقول حاتم اللّقيس*:" أنا أعرف، قال حاتم، وروى أنّه وَجد حلّا لمسألة الماء، وأنّه على استعداد لتموين الجيش الإسرائيلي أيضا بمياه عذبة، شرط أنْ(...) وتضعون شُروطا، قال الضّابط(...) في تلك اللّيلة لمْ ينمْ أحد، عثر الشّباب على أحد عشر برميلا فارغا تُستعمل لتخزين النّفط فقرّروا أخذها في الصّباح إلى البيّارة وتنظيفها"[2].

وهكذا، رُسِمت دلالات الحضور الفلسطيني، كصورة التّعاون الجماعي بين أفراد الشّعب المُختلفي الدّيانات.

فمشاهد البحث عن براميل النّفط الفارغة، والتّخطيط لكيفيّة جلب الماء من البيّارة* المُجاورة للغيتو، دلالة واضِحة عن خلفيّات اجتماعيّة مُنطلقة بالأساس من روح وطنيّة.

---

[1] إلياس خوري: رواية أولاد الغيتو اسمي آدم، ص:328.

* حاتم اللّقيس: شابّ من أعضاء اللّجنة الفلسطينيّة أيّام الغيتو.

[2] المصدر نفسه، ص:330-331-332.

*بيّارة: تعني؛ حقل البُرتُقال بالعاميّة الفلسطينيّة.

الفصل الثّاني: البحث عن الذّات في رواية أولاد الغيتو اسمي آدم لإلياس خوري

أمّا بالنّسبة لصُورة البراميل الملأى بالماء الشّروب، فكانت كالعرس عند أهل الغيتو الّذين استقبلوها بالزّغاريد، يقول آدم:" قالت منال إنّ وُصول البراميل الممتلئة كان أشبه بالعرس، كان الجميع في حالة من الفرح الهذياني"[1].

تعكِسُ الصّورة الاجتماعيّة عند أهل الغيتو بالرّغم من سَلبيّتها دلالات إيجابيّة؛ تمثّلت في كيفيّة التّلاحم المنطلق من مبدأ الرّوح الجماعيّة والوطنيّة المُشتركة.

وبهذا، تُعدُّ التّعرية الوطنيّة مسألة شائكة وقضيّة العصر، كالسّياسات الاستعماريّة الّتي أَدَّتْ دورا رئيسا في طمس الذّات والهُويّة للشّعوب المُسْتَعمرَة، منه:" يُمثّلُ الصّراع العربي الإسرائيلي القضيّة المِحوريّة في حياة العرب"[2].

فحقيقة الصّراع العربي الإسرائيلي قضيّة تشغل بال الفرد العربي، وبها تتحدّد ملامح الذّات العربيّة الفلسطينيّة.

وعلى هذا الفهم، تقول يُمنى العيد:" حرب ليست حربا؛ بل مجزرة"[3]، هكذا صَرّحَت يُمنى العيد فحقيقة المستعمر الإسرائيلي تتجاوز الحرب العاديّة إلى المَجْزَرة.

انطلاقا من هذا، نورد ملمحا شاهدا يعكس مظاهر الذّات الضّائعة، كقضيّة سَلب الأرض من مُلّاكها الأصليّين، يقول شاهد عن الحكاية:" كانت حبّات البُرتقال واللّيمون تملأ أرض البيّارة، حبّات بعضها متعفّن وبعضُها الآخر ضامر مُتجعّد الجلد، تفرش أرضا امتلأت بالشّوك، انحنى إبراهيم والتقط برتقالة، شطرها إلى نِصفين بسكّينه ثمّ عصرها في فمه، فتساقط العصير الّذي تذهّب بالشّمس على لحيته وعنقه، وفاحت الرّائحة(...) وقبل أنْ يبدأ الشّباب في دحرجتها صوب الغيتو، رأوا إبراهيم يمشي خلف برميله حاملا على ظهره كيسًا كبيرا من الخيش، ملأه بحبّات اللّيمون والبُرتقال"[4].

---

[1] المصدر نفسه، ص:336.

[2] محمّد سيّد خليل وآخرون: صورة الذّات والآخر(دراسة في التّفاعل الاجتماعي)، ص:11.

[3] يُمنى العيد: الرّواية العربيّة(المُخيّل وبنيته الفنيّة)، ص:100.

[4] إلياس خوري: رواية أولاد الغيتو اسمي آدم، ص:334-335.

الفصل الثّاني: البحث عن الذّات في رواية أولاد الغيتو اسمي آدم لإلياس خوري

فصورة انتزاع الأملاك طُبّقت مباشرة بعد طرد السّكان الأصليّين وحبسهم بالغيتو، وهنا تعكس صورة إبراهيم النّمر* واقع الفلسطيني المُنكسر الذّات.

نُضيف لوحة أخرى تعكس صورة الضّياع الفلسطيني كمالك للأرض، يقول بعض الشّاهدين عن القصّة:" إيشْ هادا، صرخ الجندي، هادا هادا من بيّارتي، ارمي كلّ شي بالأرض وإمشي، لكنّ الرّجل الخمسيني الأصلع، الّذي كانت شفتاه تلتمِعان باللّون البُرتُقالي، رفض أنْ يرمي محتويات كيسه، هذه أرضي وأرض آبائي، وهذه بيّارتي، أمر الجندي الجميع بالتّوقّف وخيّرهم بين البرتقال والماء، يا بتِرْموا يلّي في الكيس يا ما فيش ميّ، ارميهم، صرخ الجندي، ارميهم وخلّصنا. صرخ حاتم، لكنّ الرّجل الخمسيني جلس على الأرض وأمامه كيسه، وضع رأسه بين يديه وبدأ جسدُهُ يرتعش"[1].

وهكذا، انطبعت صورة التّعرية الجماعيّة سَلبٌ بالقوّة، ومُساومات تُفصح عن سياسة الإذلال المُطبّقة بحقّ الشّعب الأعزل.

ونَخلص إلى أنّ: الهُويّة الوطنيّة تمثيل رَئيس لبناء أيّ فرد، فبواسِطتها تنعكس صور الشّتات الذّاتية كصورة الذّات الفلسطينيّة المُفْرَغة، هذا ما كَشَفت عليه حقيقة التّواجُد الفلسطيني ضمن راهنه المُضطرب، ما صوّر لنا مشاهد اجتماعيّة لشعب عربي أسير.

ثانيا/ مِحْنَةُ الشّتات:

يمتاز الرّاهن العربي بأحداثه وقضاياه المُتقلّبة، الّتي تحمل أبعادا تُؤثّر بالسّلب على الذّات العربيّة، كحقيقة النّكبة الفلسطينيّة وما أفصحت عليه من مُعاناة جماعيّة لشعب عربي سيق للأَسر.

من هنا، تتجلّى ملامح الضّياع لتُفصِح عن حقيقة الشّتات العربي، الّذي بات مُتأثّرا بالتّغيّرات العالميّة كالأزمات السّياسيّة والحُروب وانتشار الإرهاب، كحقيقة الفلسطيني ومُعاناته مع مِحنة الشّتات.

---

* إبراهيم النّمر: فلسطيني جُرّد أرْضه.

[1] إلياس خوري: رواية أولاد الغيتو اسمي آدم، ص:335-336.

الفصل الثّاني: البحث عن الذّات في رواية أولاد الغيتو اسمي آدم لإلياس خوري

هي النّكبة ومُخلّفاتها على الذّات العربيّة، كتصوير مُباشر لحالات الضّياع الذّاتي والجماعي، فبِها تتّضِح دلالات انكِسار الذّات الفلسطينيّة العربيّة، لذلك عُدّ الشّتات أشدّ وقعا من النّفي والهِجرة.

ومنه، حمل الشّتات مِحْنة أفراده، يرى في ذلك شريف كناعنة أنَّ الطّرق الأكثر مُباشرة مُتراوحة بين التّهديد والوعيد، ووضع موعد أقصى لإخلاء البلد، كما هدّدت القُوّات الإسرائيليّة سُكّان فلسطين بوضعهم في ناقلات ورميهم في مناطق بعيدة، وطردهم من قُراهم ومنازلهم وإطلاق النّار فوق رؤوسهم[1].

على ذلك، تتّضح مرامي الاحتلال الإسرائيلي من خلال ممارساته الجائرة في حقّ الشّعب الفلسطيني؛ حيث امتاز أسلوبه بالإرهاب والإجرام.

وهكذا، تفنّن الإسرائيلي في تطبيق سياساته الانتهاكيّة لحدود الإنسانيّة، وما حدث مع سكّان مدينة اللّدّ الفلسطينيّة إلّا شاهدا يُفصح عن حقيقة الشّتات، يُضيف شريف كناعنة:" ومن مثال ذلك ما دوّنه يتسحاق رابين في مذكّراته عن طرد سكّان اللّدّ إذْ يقول: مشينا إلى الخارج ومعنا بن غوريون(...) حرّك بن غوريون يده بشكل إشارة كان معناها أُطرُدوهم"[2].

نفهم من ذلك؛ أنّ أسلوب الإسرائيلي المُتمثّل في عمليّات طرد للسّكان الأصليّين، دليل قاطع عن تطبيقه سياسة التّطهير العِرقي في فلسطين.

هي الحقيقة الّتي كشف عنها التّاريخ كجريمة الإسرائيلي في فلسطين، وما رواية(أولاد الغيتو اسمي آدم) إلّا رَصْدا لمظاهر مُعاناة الشّعب العربي الفلسطيني.

وبالتّالي؛ كانت عمليّة طرد سُكّان مدينة اللّدّ الفلسطينيّة صُورة واضِحة لإرهاب الآخر الإسرائيلي؛ حيث انعكست بواسطتها خلفيّات المُحتلّ ومَراميه الاستيطانيّة، يقول آدم:" لا

---

[1] ينظر: شريف كناعنة: الشّتات الفلسطيني: هجرة أم تهجير؟، مركز اللّاجئين والشّتات الفلسطيني(شمل)، فلسطين، ط. جديدة منقّحة، 2000م. ص:25.

[2] شريف كناعنة: الشّتات الفلسطيني: هجرة أم تهجير؟، ص: 25.

الفصل الثّاني: البحث عن الذّات في رواية أولاد الغيتو اسمي آدم لإلياس خوري

يوجد إحصاء بِعدد الفلسطينيّين الّذين قتلتهم هذه القافلة الّتي كان يتطاير منها الرّصاص، وتَرمي القنابل اليدويّة بشكل عشوائي على كلّ من صادَفته في طريقها"[1].

هذا ما، رَسَت عليه حقيقة الاقتلاع الإسرائيليّة المُطبّقة بحقّ الشّعب الفلسطيني، فلا يوجد إحصاء لعدد الفلسطينيّين المقتولين من طرف قافلة الفرقة 89 الإسرائيليّة، الّتي لجأت للقُوّة مع سكّان اللّدّ وغيرها من القرى الفلسطينيّة؛ حيث كان الرّصّاص يتطاير هنا وهناك دون وُجهة مُحدّدة.

هي تمظهرات الحقيقة المُرّة النّابعة من سَطْوَة الآخر، يُضيف آدم:" حين نتذكّر أنّ شوارع اللّدّ وساحاتها كانت مُكتظّة بألوف اللّاجئين الهربين من قُراهم، نفهم ما جرى ولِماذا انهارت إمكانيّات مُقاومة مُقاتلي المدينة لاجتياح مدينتهم"[2].

وهنا، تتكشّف ملامح الذّات المُشَتّتة فصورة اللّاجئين دليل واضح يفسّر وقائع الحقيقة المُؤلمة لسكّان اللّدّ.

وبِهذا، تتجلّى صورة اللّاإنسانيّة كحقيقة الإسرائيلي الهادمة للحُضور العربي الفلسطيني؛ حيث:" كان عمل قافلة الفرقة 89 رمزيّا؛ لأنّ من قام باحتلال المدينة كانت فرقة يفتاح بقيادة شمولا كوهين، الّتي استطاعت قُوّاتها الانتشار في كلّ المدينة، واسْتُكملت مذبحة الفرقة 89 بمذبحة جامع دهمش، وبالقتل العشوائي الّذي مورس يوم الثّلاثاء؛ أي يوم الطّرد الكبير حين تشكّلت قافلة الموت الّتي خرجت من اللّدّ إلى المنفى"[3].

على ذلك، تتّضِح دلالات القمع والإرهاب حسب المُخطّط الإسرائيلي، انطلاقا من أعمال قافلة الفرقة 89 وفرقة يفتاح.

---

[1] إلياس خوري: رواية أولاد الغيتو اسمي آدم، ص:309.

[2] المصدر نفسه، الصّفحة نفسها.

[3] المصدر نفسه، ص:309.

الفصل الثّاني: البحث عن الذّات في رواية أولاد الغيتو اسمي آدم لإلياس خوري

فمذبحة جامع دهمش دليل يعكس نوايا الإسرائيلي المُنافية للإنسانيّة، وعليه:" كان قرار الإسرائيلي واضِحا، يجب طرد جميع السّكّان من المدينة"[1]، فمن هنا كان الشّتات الفلسطيني حاملا لأبعاد التّطهير العِرقي.

هو الطّرد لجميع سُكّان المدينة تطْبيقا للقرار الإسرائيلي، وهذا ما يُفسّر لُغز ضَياع الذّات في فلسطين، الّذي تتحدّد بِه أبعاد الشّتات الذّاتي والجماعي.

نُواصل مع انتهاكات إسرائيل فَفي:" يوم الإثنين 12 تمّوز، استفاق سُكّان المدينة على الهلع، الإسرائيليّون في كلّ مكان والموج البشري غارق في الدّم، لمْ يَعْرِف أهل المدينة ماذا عليهم أنْ يَفْعلوا، البعض احتمى ببيته بينما قرّر البعض الآخر ومن ضِمنهم اللّاجئون للمدينة، التّجمّع في الجامع الكبير وجامع دهمش والكنيسة، لاعتقادهم أنّ جيش الغزاة سيحترم حُرْمة المعابد، لكنّهم كانوا على خطأ"[2].

من هذا المنطلق، تبرُز همجيّة الإسرائيلي الّذي لا يحترم أحدا كحال المعابد المُدَنّسة، وصُور السّكان الأصليّين وما مرّوا به من حالات هلع؛ إذْ أُغْرِقت شوارع اللّدّ بالدّم فصار أهلها موجا بشريّا فارّا دون وجهة.

فصُور العُنف الإسرائيلي قَصْدِيّة الأهداف، جاءت بدافع محو الحُضور الفلسطيني، ما يُنِمُّ عن حِقد كبير للإنسان العربي.

إمعانا في التّوضيح؛ نجد أنّ مفهوم المِحنة تجاوز حدود الشّعور بالألم لمعنى أعمق بكثير؛ إذْ حمل أبعاد العذاب الفردي والجماعي المُثقَل بآهات الذّاكرة الجماعيّة.

وعلى ذلك، تتجلّى أمامنا صور للمِحنة الفلسطينيّة بواسِطة شعبها المُخْرَج من دياره قسرا، فمظاهر الموج البشري المُترنّح الرّؤوس دليل صريح عن حجم المأساة الجماعيّة.

---

[1] إلياس خوري: رواية أولاد الغيتو اسمي آدم، ص:309.

[2] المصدر نفسه، ص:310.

الفصل الثّاني: البحث عن الذّات في رواية أولاد الغيتو اسمي آدم لإلياس خوري

هذا ما، تُفصِح عليه الذّات الفرديّة الواقعة تحت عصفِ الرّاهن بِمُجرياته، ما أثّر بالسّلب على الذّات العربيّة الّتي أصبحت تُعاني الانكسار كحالة:" إحساس بالضّياع والفراغ والوحدة، وكذا اللّا معنى واللّا جدوى"[1].

هي حالة من الفراغ الذّاتي كانعكاس يُثبِتُ حقيقة الضّياع، وهذا ما نلمحه من خلال تجارب الإنسان العربي ووقوفه وجها لوجه مع مآزِق الذّات والهُويّة، لذلك فإنّ:" مسألة الهُويّة عندما تطرح نفسها على شعوب، كالشّعوب العربيّة الّتي اجتاحت تاريخها المديد تجارب قاسية(...) ما يتبدّى للبعض أنّنا نُعاني فعلا أزمة هويّة في الوطن العربي"[2].

وهكذا، تتّضِح دلالات الحُضور العربي الّذي بات رهينة لأزمات الواقع، فهو امتداد للتّجارب الحياتيّة القاسِية على مرّ العُصور، ما يُثبِت الفراغ العربي من جِذريّة مُحيلا بذلك لبوادر أزمات فقدان الذّات والهُويّة.

وما انعكاس ذلك الضّياع على الذّات الفلسطينيّة، إلّا تَمْثيل لحالة الشّتات الّتي عانى منها الشّعب الفلسطيني كمُشَتّت، يقول آدم:" أعرِف أنّ كلمة مذابح ثقيلة على الآذان في عالم اليوم، الّذي ينظر إلى إسرائيل بصفتها ابنة الهولوكوست، ووريثة الألم اليهودي الّذي صنعه الاضطهاد الوحشي والإبادة الجماعيّة، ومع ذلك لا أستطيع أن أستخدم كلمة أُخرى، فهذه الكلمة لا تلائم ما حصل في فلسطين عام 1948 فقط؛ بل تمتدّ مع هذه النّكبة المُستمرّة منذ أكثر من خمسين عاما في مذبحة متواصلة لمْ تتوقّف حتّى الآن"[3].

---

[1] الخواء: مدوّنة إلكترونيّة، نشرت يوم:2011/06/06م، modyabdry15.blagspot.com، اطّلعتُ عليها في:2022/06/30م، على السّاعة:10:40.

[2] محمّد عمر أحمد أبو عنزه: واقع إشكاليّة الهويّة العربيّة بين الأطروحات القوميّة والإسلاميّة (دراسة من منظور فكري)، رسالة ماجيستير، جامعة الشّرق الأوسط، كليّة الآداب والعلوم، 2012/01/21م. ص:02.

[3] إلياس خوري: رواية أولاد الغيتو اسمي آدم، ص:310.

الفصل الثّاني: البحث عن الذّات في رواية أولاد الغيتو اسمي آدم لإلياس خوري

ويُمكن القول، باختصار؛ إنّه امتداد للنّكبة والمَذبحة المُتواصلة، وهذا ما حملته إسرائيل كوريثة للهولوكوست* وسياسات الإبادة الجماعيّة.

بيدَ أنّنا، نرى أنّ نكبة فلسطين أشدّ ألما من مِحرقة اليَهود إبّان الحربين العالميّتين، فهي مَجْزرة مُستمرّة لحدّ الآن، يقول آدم:" بعد مذْبَحتَيْ الفرقة 89 وجامع دهمش أُصيب الجنود الإسرائيليّون بلوثة الدّم، فصاروا يُطلقون النّار على كلّ شيء، أَمروا السّكّان بالخُروج من بيوتهم واللّاجئين إلى اللّدّ بالخُروج من مُخيّماتهم العَشوائيّة، وأشاروا إلى الطّريق الموصل إلى رام اللّه"[1].

من هنا، نَلمحُ همجيّة الجنود الإسرائيليّين المُصابين بهِستيريا القتل، كما أشار إلى ذلك(آدم دنّون) نقلا لحقائق الإسرائيلي الصّادِمة.

فأمر الخُروج من اللّدّ لمْ يَأتِ عبثا، هكذا:" كانوا يصرُخون وهم يُطلقون النّار فوق الرّؤوس، يقرعون أبواب البيوت شاهرين سلاحهم ويأمرون النّاس بالخروج بثيابهم، اتركوا كلّ شيء، يَلّا، كانوا يَصرُخون وهم يُطلقون النّار، لنْ أروي ما سمعته عن اغتصاب النّساء، أو القتل العشوائي في داخل البيوت، فكلّها أمور يعرفها ضحاياها، وهم من سَكت عنها"[2].

فالواقع منْ يعكِسُ حقيقة الشّتات كصُور حيّة تَنطِق لِتُعبِّر عن مأساة أهلها، وهذه جُملة من جرائم إسرائيل في فلسطين(اغتصاب الأرض والممتلكات والنّساء).

هي حرب انتهاك الحُرُمات واسْتِنزافٌ للآخر حتّى السّقوط والزّوال، هكذا واصل الإسرائيلي عمليّة تَكْسير الذّات العربيّة الفلسطينيّة، مُتناسِيا بذلك تخطّيه لحُدود الإنسانيّة.

---

* ينظر: الهولوكوست: يُقصد به عمليّة الاضطهاد والقتل الممنهج، وهي كلمة عِبريّة تعني الكارثة والمِحرقة، موقع الهولوكوست الإلكتروني،https://encyclopedia.ushmm.org،اطّلعت عليه في:2023/01/26م. على السّاعة:19:30.

[1] إلياس خوري: رواية أولاد الغيتو اسمي آدم، ص:314.

[2] المصدر نفسه، ص:314.

الفصل الثّاني: البحث عن الذّات في رواية أولاد الغيتو اسمي آدم لإلياس خوري

بهذه الصّورة القمعيّة تشكّلت قافلة المِحنة الذّاتيّة وسارت دون وجهة، يُواصل آدم سرده للأحداث الدّامية:" ثلاث مذابح مُتتالية تمّت في ثلاثة أيّام، وقادت إلى تشكيل قافلة الموت؛ حيث مَشى النّاس في الوعر وتحت شمس حارقة ساعات لا تنتهي، وشقّوا بالألم والموت طريق المنفى الفلسطينيّ الّذي لا نِهاية له"[1].

نحن نُقدّم هنا، مشاهدَ توضيحيّة تعكسُ أبعاد الألم وحقيقة الطّرد، فمن هنا تشكّلت قافلة الموت كما أطلقوا عليها، كتمثيل حاضر لمُعاناة شعب ضائع الذّات.

ثلاث مذابح مُتتالية قادت لتشكيل قافلة من بشر احترقوا تحت شمس تمّوز المُلتهبة، هكذا سارت القافلة وسط الوَعر مُثْقلة بالألم دون وجهة.

هي تمظهُرات الحقيقة الظّالمة الّتي عاشها الفلسطيني، فطريق الموت منفى لا نِهاية له:" غادر النّاس وسط الصُّراخ والرّعب، اللّدّ تخرج من اللّدّ مثلما تخرج الرّوح من الجسد"[2]، إنّها المأساة هذا ما تُفسّره عبارة اللّدّ تخرج من اللّدّ، كتَصْوير لحالة الإفراغ الّذي شُوهِدت عليه المدينة لأوّل مرّة.

ويتبيّن هنا، حجم الكارثة الفلسطينيّة شتات ومِحنة:" هكذا أراها بعيْنَي غسّان بطحيش* الّذي وقف أمام مدخل المستشفى، ورأى كيف تشكّلت القافلة كسيل من النّاس وسط الرّصاص والرّعب والدّم، كان الممرّض الّذي لمْ يجرأ على مُغادرة المستشفى من أجل الاطمئنان على أبيه وأُمّه، يبحث بين وجوه المطرودين المُغطّاة بأصوات الطّلقات النّاريّة الّتي تمتزج بالأنين عن أهله"[3].

ولعلّ موقف (غسّان بطحيش) يكشف عن آثار النّكبة وتأثيرها المباشر في الحالة النّفسيّة، الّتي آلت إليها الذّات الفلسطينيّة وسط سيل بشري لا يخلو من مشاهد الدّم والعُنف.

---

[1] إلياس خوري: رواية أولاد الغيتو اسمي آدم، ص:316.

[2] المصدر نفسه، ص:316.

* غسّان بطحيش: مُمرّض فلسطيني.

[3] المصدر نفسه، ص: 316.

الفصل الثّاني: البحث عن الذّات في رواية أولاد الغيتو اسمي آدم لإلياس خوري

فمشاهد الشّتات الفلسطيني انعكست بالسّلب على الذّات الفلسطينيّة الطّريدة، وهذا ما يُفصِحُ عن حقيقة المأساة الّتي صارت فيما بعد تُعْرَف بهولوكوست فلسطين.

إذن، هي المأساة الفلسطينيّة كحُدود للأرض المُنتزعة والحقيقة الضّائعة، على ذلك يُضيف (آدم) بخصوص عائلة (غسّان بطحيش) وقافلة المطرودين من اللّدّ:" فجأة، رأى وجه أُمّه يتمايل بين الوجوه، فاندفع راكِضا ليجِد نفسه وسط عاصفة التّيه، الموج البشري ابتلع الوجه الّذي تراءى له في البعيد اختفت أُمّه وسط الجُموع، قرّر العودة إلى المستشفى لكنّ ضغط النّاس كان يدفع به إلى ما يُشبه المنحدر، مدّ يديه إلى الأمام كمن يُحاول أنْ يسبح، فسقط أرضا وشعر أنّه يختنق، وأنّ الأقدام تدوسه، صرخ طالبا النّجدة فضاع صوته في زُحام الأصوات"[1].

بهذه الصّورة تتجلّى ملامح الحقيقة المُرّة، وما(غسّان بطحيش) إلّا تمثيلٌ تنعكس بواسطته صُورة الفلسطيني الضّائعة وسط زحمة المجهول.

فهكذا، اختلطت الوجوه ببعضها البعض وضاعت (أمّ غسّان)، كحقيقة ابتلعها الإسرائيلي في قافلة المطرودين من الوطن.

يتّضح أنّ العدوّ الصّهيوني أراد ضرب الفلسطيني في هُويّته، كمحاولة صريحة منه تمثّلت في محو التّواجد العربي في فلسطين، وبهذه الكيفيّة يضمن حضوره بأرض ميعاده، لكنّ الحقيقة تُثبِت العكس حيث اعتمد أسلوب الطّرد والغيتو والمحرقة.

على ذلك، تتشكّل عندنا رؤيا خاصّة انطلاقا من مشاهد الحقيقة المُفزِعة لشعب انكسرت ذاته، فاختلطت حقيقة حُضوره بالوهم، يقول آدم:" لا يذكر غسّان بطحيش سوى سيل من النّاس والأنين المُتصاعد من حِجارة الأمكنة، لكنّه لمْ يشْهد المذبحة، ولن يعرف ماذا جرى إلّا حين سينضمّ إلى إحدى مجموعات لمِّ الجُثث من الشّوارع والبيوت[2].

[1] إلياس خوري: رواية أولاد الغيتو اسمي آدم، ص:316.

[2] إلياس خوري: رواية أولاد الغيتو اسمي آدم، ص:317.

الفصل الثّاني: البحث عن الذّات في رواية أولاد الغيتو اسمي آدم لإلياس خوري

هي الحرب النّفسيّة وسياسة الاقتلاع الذّاتي، وهُو بالضّبط ما عاناه الشّعب الفلسطيني كمسلوب للذّات.

وعلى أيّة حال، نرى أنّ التّعرية الذّاتيّة تُعْنى بمسألة الخواء من الذّات والانتماء، فهي إلى أبعد الحدود رُؤيا لتجلّي الحقيقة الأصليّة، يُصرّح (آدم دنّون):" حين قرّرتُ الهجرة إلى نيويورك، كُنتُ مُصمّما على نِسيان كلّ شيء"[1].

على ذلك، تتجلّى حقيقة عدم الانتماء للذّات والمكان كحقيقة الفرد الفلسطيني الضّائعة، على حدِّ قول(آدم دنّون) كفرد متشظّي الذّات.

هي حقيقة اللّا منتمي الّذي يُعاني فراغا جِذريّا حادّا ما انعكس عليه بالسّلب، فألم العثور على الحقيقة بِحدّ ذاته إشكال" يُريد اللّامنتمي أنْ يكون حُرّا"[2].

وبهذا، تكون صُورة اللّا منتمي دليلا واضِحا للفقد، لذلك فهو دائم البحث عن حُريّته النّابعة عن أصل التّحرّر من القيود الذّاتيّة والجماعيّة.

عليه، نُواصل مع أهل اللّدّ الّذين صاروا سُكّانا للغيتو الإسرائيلي:" فبعد ثلاثة أيّام اكتشف أهل الغيتو أنّ عليهم الاعتياد على نمط جديد وغريب من الحياة، بدأت الأمور تتّخذ شكلا أليفا، والضّياع يتلاشى أمام حقائق الحاضر، اسْتَفاق النّاس من الصّدمة ليجِدوا أنفسهم وقد تحوّلوا إلى سُكّان هذا الغيتو، الأسلاك الشّائكة الّتي تُحيط بالمكان صارت جزءا من المشهد الّذي بدأ النّاس يتعرّفون من خلاله على حُدود مدينتهم الجديدة"[3].

من هنا، تتّضح صورة الشّتات الفلسطيني من خلال الحقيقة، الّتي استفاق عليها أهلّ اللّدّ ليجِدوا أنفسهم بصدمة القفص والأسلاك الشّائكة.

---

[1] المصدر نفسه، ص:14.

[2] كولن ويلسون: اللّامنتمي، دار الآداب، بيروت، ط5، 2004م. ص:07.

[3] إلياس خوري: رواية أولاد الغيتو اسمي آدم، ص:318.

الفصل الثّاني: البحث عن الذّات في رواية أولاد الغيتو اسمي آدم لإلياس خوري

ففي هذا السّياق، نرى أنّ:" الحُريّة ليست سِمة ثابتة لدينا نحن نملك أو نحن لا نملك؛ ربّما هناك حقيقة واحدة؛ وهي فعل تحرير أنفسنا في سيرورة استعمال الخيارات"[1]؛ وعليه فالحريّة تعني إدراكنا لها كمُسَلَّمة وجب علينا تصْديقها، بغضّ النّظر عن خلفيّاتها فالذّات تبقى نفسها بالرّغم من تزييف الحقيقة، لكنّ الرّاهن يُثبِتُ العكس كحقيقة الفلسطيني وأزمة الانتماء.

وتَصويرًا للواقع الفلسطيني المُزري، نُدرج قولا لمُنيب السّيّد*الّذي عكس بواسطته أبعاد الفراغ الذّاتي عند الفرد الفلسطيني كتمظهُر للذّات المُنْكسرة، يقول:" تفو على الوطن وعلى هالعيشة، وتفو على الولاد اللّي بيتركوا أهاليهم كأنّهم كلاب، لا واللّه، بدّيش إيشي، لا الوطن ولا فلسطين ولا الولاد ولا كل هالأكل"[2].

وهكذا، عبّر الفرد الفلسطيني عن وطنِهِ وذاته الضّائعين، فلا معنى للحياة بحُضور ناقص وذات مُشتّتة.

أمّا بالنّسبة(لمنال) الّتي:" لا تعرف (...) معنى كلمة غيتو، أو من أين أتَتْ، كُلّ ما تعرفه أنَّ سُكّان اللّدّ سمِعوا الكلمة من الجنود الإسرائيليّين، فاعتقدوا أنَّ كلمة غيتو تعني حيّ الفلسطينيّين، أو حيَّ العرب، وحده مأمون كان يعرف"[3].

فبذلك، تكون الحقيقة أكثر رُعبا من كونها مُجرّد عمليّة طرد ووضع داخل قفص مُسيّج؛ إذْ تتّضح دلالات المعنى لتُفصِح عن مُعاناة جماعيّة.

هذا ما، حملته حقيقة النّكبة الفلسطينيّة كصور للشّتات الذّاتي، ففلسطين مِحنة ذاتيّة وجماعيّة وراهن مأساوي لشعب قِيدَ للأسْرِ داخل غيتو.

ثالِثا/ ثنائيّة الأنا والآخر:

[1] إيريش فروم: كينونة الإنسان، ترجمة: محمّد حبيب، دار الحوار للنّشر والتّوزيع، سوريا، ط1، 2013م. ص:114.

* مُنيب السّيّد: عجوز فلسطيني عُثر عليه مُختبئا في سطح منزله بعد عمليّة إفراغ المدينة من سُكّانها.

[2] إلياس خوري: رواية أولاد الغيتو اسمي آدم، ص:346.

[3] المصدر نفسه، ص: 318-319.

الفصل الثّاني: البحث عن الذّات في رواية أولاد الغيتو اسمي آدم لإلياس خوري

تُعدّ ثنائيّة الأنا والآخر من أشهر الثّنائيّات، الّتي توقّفت عندها الدّراسات المُعاصِرة، إذْ ظَلّت العلاقة بينهُما جدليّة؛ فقد تكون(الأنا) على حِساب(الآخر) أو يكون العكس.

وقد اقترن الحديث عن الآخر في النّصّ الإبداعي العربي- خاصّة الرّواية- بالآخر(الغرب).

وهكذا، تشكّلت ملامح التّفاوت والاختلاف بين الأنا العربيّة كانعكاس للضّياع والآخر المُتمايز عنها، وعلى ذلك تطرّق الكاتب العربي لمواضيع الأنا والآخر بهدف رَصْد دوائر الاختلاف بينهما.

هذا ما لمسناه، من خلال رواية إلياس خوري الّتي بين أيدينا(أولاد الغيتو اسمي آدم)، كاختِصار لثُنائيّة الأنا والآخر في شكلها الدّامي.

فحقيقة العلاقة بين الأنا والآخر تكشِف عن صور الاختلاف والصّراع ضمن واقع مأزوم، هذا ما رسمته ثنائيّة الأنا الفلسطينيّة والآخر الإسرائيلي؛ إذْ:" اتّسمت مسألة الآخريّة وأسئلة الهُويّة والاختلاف في الفكر العربي الحديث، بطابع التّوتّر الّذي يتجلّى أحيانا في التّمزّق بين ماضي الذّات وحاضر الآخر، وهو التّمزّق الّذي يعكس وضعيّة سيكولوجيّة وصفها بعض الباحثين بأنّها مأساويّة انفصاميّة؛ حيث الذّات تشعر بتمزّقها بين الحاضر الّذي يبرُز فيه الآخر"[1].

هي العلاقة الثّنائيّة الّتي تكشِف أبعاد الانكسار بين الأنا العربيّة وآخرِها، الّذي يتفوّق عليها في شتّى مناحي الحياة، لذلك امتازت الأنا العربيّة بانفصاميّتها تأثُّرا بمُجريات الرّاهن، الّذي تميل كفّته لجِهة الأقوى.

فماضي الأنا العربيّة يُحيل لمسألة فقدان الذّات والهُويّة، الّتي صارت انعكاسا لأبعاد التّغييب الحُضوري على مرّ الأزمنة، وعليه كشَف حاضِر الأنا العربيّة عن تأزّماتها وهذه عين الحقيقة.

---

[1] نادر كاظم: تمثيلات الآخر(صورة السّود في المُتخيّل العربي الوسيط)، المؤسّسة العربيّة للدّراسات والنّشر، بيروت، ط1، 2004م. ص:15.

الفصل الثّاني: البحث عن الذّات في رواية أولاد الغيتو اسمي آدم لإلياس خوري

وهكذا، حملت حقيقة الرّاهن انفصاليّة الأنا العربيّة وآخرها في ظِلّ الهامِشي والمركزي، فطمسُ الهُويّة العربيّة دلالة واضِحة على ذلك، وهذا واقع فلسطين والعرب.

بناء على ذلك، يرى(آدم دنّون) أنّ: حقيقة النّكبة الفلسطينيّة انعكاس للمأساة، الّتي دفعت به للفرار والنّسيان فلا حياة له داخل وطن دون هُويّة، يقول:" قادتني البداية إلى استعادة كلّ شيء نسيته، والبداية كانت الغيتو، حيث ولدتُ، أو قيل لي ذلك، وفي أوّل الغيتو، مات الفتى معلّقا على الأسلاك، وظلّ جسمه يرتعش في ذاكرة النّاس"[1].

ففي ذلك، تقود البِداية إلى التّذكُّر؛ والمقصود بالبداية تذكّر حقيقة الغيتو ومأساة الطّرد وطريقة موت الفتى مُعلّقا على الأسلاك.

هذا ما أفْصَحت عنه حقيقة الفلسطيني كذات مجرّدة الحُضور مُثقلة بآلام الماضي، فهو الشّعب المُتشظّي الأنا.

إذْ تدُلّ ملامح الطّرد والإخراج القسري من القرى والمدن الفلسطينيّة على صور همجيّة، فالإسرائيلي تمثيل للآخر المُغتصِب للحقيقة والهُويّة، وما الأنا الفلسطينيّة إلّا ضحيّة للآخر.

نفهم من ذلك؛ أنّ: الآخر تمثيل للأنا كانعكاس يُثْبِتها، لكنّ حقيقة العلاقة بين الأنا العربيّة والآخر تبقى مُتأزّمة بالمُوازاة مع مُجريات الرّاهن المُتقلّبة القِوى، على ذلك:" فالأنا تفرض وُجود الآخر، والآخر بدوره يفترض بدوره وجود الأنا من حيث؛ كونه هو أنا وهو آخر"[2].

هذه فرضِيّة انبنت عليها جِواريّة الأنا والآخر، لكنْ في حالات المُواجهة بين الأنا العربيّة والآخر، أو كانعكاسات للحروب والتّفاوت العلمي والتّكنولوجي تخْتلّ العلاقة بينهما لتُصبح عِدائيّة.

ومن هذا المنظور، يُمكننا الحكم أنّ الأنا تحتاج آخرا يُحدّدها، لكن وللأسف سقطت الأنا العربيّة تحت سَطوة الآخر، فبالرّغم من حاجتها للآخر: كمُنعكس عن الأصل في شكله

[1] إلياس خوري: رواية أولاد الغيتو اسمي آدم، ص:240.

[2] بيتر كوزن: البحث عن الهُوّية (الهويّة وتشتّتها في حياة إيريك إيريكسون وأعماله)، ص:26.

الفصل الثّاني: البحث عن الذّات في رواية أولاد الغيتو اسمي آدم لإلياس خوري

الضّائع؛ أي منسوخ عن هُويّة، فالأشباح تمثّلات للذّوات مثلما تتبع الأصداء الأصوات، أو انعكاس صورة المرء في المرآة، فهو لا هو الشّيء هو؛ لأنّ صورته طبق الأصل، لِما هو عليه من ملامح وعلامات[1].

وهنا، تتّضِح جدليّة الأنا والآخر في شكلها التّعاكُسي بين الذّاتين المُختلفتين، فالتّمثيل الفلسطيني العربي يُفصِح عن أبعاد التّأزّم بين ثنائيّتي الأنا والآخر.

إذن، هي الحقيقة الكارثيّة الّتي تكشف عن سوء العلاقة بين الأنا العربيّة وآخرها، كعلاقة الفلسطيني بالصهيوني الّتي تنعكس من خلالها تمظهُرات الصّراع والاختلاف.

فحقيقة العلاقة بين الأنا العربيّة والآخر تجسيد لحُضور واقعي مُضطرب، من ذلك يُضيف(آدم) عاكِسا حقيقة الضّياع الذّاتي، الّتي يُعانيها كأنا فلسطينيّة واقعة تحت تعرية الآخر الإسرائيلي، فيقول:" أنا لا أملك قبرا في بلاد لمْ تَعُد بلادي كي أطلب أنْ أُدفن فيه معانقا أرواح أجدادي، سوف أُعانق في هذا النّهر أرواح الغرباء، وسألتقي بمن يجد في لقاء الغريب بالغريب نسبا يُغْنيه عن نسبٍ أضاعه"[2].

وهكذا، قام(آدم) بتصوير حالة الضّياع الذّاتي، الّتي يُعانيها كأنا فلسطينيّة فقدت حُضورها جرّاء سَطْوة الآخر.

وبهذا؛ نُفسّر لا انتماءه للمكان حتّى فلسطين صارت غريبة عنه، فهو لا يملك قبرا في بلاد ليست له.

ومن هنا، تتجلّى تمزّقات الأنا الفلسطينيّة غائبة مع آخرها السّالب لذاتها، كحقيقة عدم الانتماء للمكان الّذي يُحيل لفقدان الأنا العربيّة.

---

[1] ينظر: محمّد بكّاي: أرخبيلات ما بعد الحداثة(رهانات الذّات الإنسانيّة من سطوة الانغلاق إلى إقرار الانعتاق)، دار الرّافدين للنّشر والتّوزيع، بيروت– لبنان، ط1، 2017م. ص:17.

[2] إلياس خوري: رواية أولاد الغيتو اسمي آدم، ص:21.

الفصل الثّاني: البحث عن الذّات في رواية أولاد الغيتو اسمي آدم لإلياس خوري

ومنه، امتازت الحياة بالسّوْداويّة حسب تصوّر الإنسان اللّامنتمي، فهو بنظر الآخر إنسان ليس من هذا العالم؛ بل هو رجل غريب يُحيطه السّواد من جوانبه الأربعة[1]، إذن؛ هي الرّؤيا السّوداويّة للواقع عند الإنسان اللّا منتمي، كتعبير يعكس حقيقة بُعدِه عن الآخر الغريب عنه.

هذا ما، رآه الآخر في الأنا اللّامنتمية كتجلّي للضّياع الذّاتي، لكن في حالة الفرد الفلسطيني تُصبِح دلالة اللّاانتماء مفروضة عليه قسرا، كتمثيل لصورة الغياب ووحشيّة الآخر؛ حيث نرى الحقيقة العارية للأنا العربيّة.

بهذا تتجلّى، حقيقة المنتمي واللّامنتمي، وما(آدم دنّون) إلّا حقيقة للّا حُضور، لذلك عُدَّ الإنسان الفاقد لأناه ضائعا، لأنّ الحياة بالنّسبة إليه واهِية وفوضويّة[2].

وهكذا، تمثّلت حُضُوريّة اللّامنتمي المُرتكزة على تغييب الآخر لها: فاللّا منتمي يلوح من النّظرة الأولى إلى مُشكلة اجتماعيّة، فهو الرّجل الغامض الميّت منذ زمن، والّذي يعيش حياة بعد الموت[3]؛ وتفسير ذلك أنّ الإنسان الفاقد لأناه شبيه بالميّت الّذي يعيش حياةً بعد الموت.

من المُلاحظ هنا، وصف الأنا الفلسطينيّة باللّاانتماء كصورة تعكِس ضياعها، من ذلك يقول (آدم):" أنا لمْ أعش تجربة الغيتو، بلى عِشْتها، لكنّي لا أذكرها فقد أُزيلت أسلاك الغيتو من دون أن نُغادره"[4].

على هذا الأساس، تَثْبُت عندنا تمظهُرات التّعسّف الآخري ومدى تأثيره على الأنا، حتّى بعد إزاحة الأسلاك الشّائكة وزوال الغيتو بقيت مشاهد المأساة عالقة بالذّاكرة الفلسطينيّة.

---

[1] ينظر: كولن ويلسون: اللّامنتمي، ص:52.

[2] ينظر: المرجع نفسه، ص:05.

[3] ينظر: المرجع نفسه، ص:09-13.

[4] إلياس خوري: رواية أولاد الغيتو اسمي آدم، ص:176.

الفصل الثّاني: البحث عن الذّات في رواية أولاد الغيتو اسمي آدم لإلياس خوري

هذا ما، تُفصِح عليه العلاقة المُتأزّمة بين الأنا الفلسطينيّة والآخر الإسرائيلي، فمشاهد الموت والخوف دليل قاطع على مشاكل حِواريّة بينهما، يقول(آدم):" استفاق النّاس بالخوف، فبعد ثلاثة أيّام من القتل العشوائي الّذي أطلقوا عليه اسم المذبحة، ناموا ليلتهم الأولى وسط سكون غريب، لمْ يكن يقطعه سوى نباح الكلاب الضّالّة الّتي كانت تجول في شوارع المدينة على غير هدى"[1].

وهنا، تتجلّى حقيقة الآخر المُنطلقة من مبدأ قمع الأنا الفلسطينيّة، بهدف هدم هُويّتها، فالإسرائيلي صورة عن الآخر الّذي لا يرحم.

وهكذا، استفاق النّاس على الخوف ممّا هو آتٍ، فثلاثة أيّام من التّقتيل العشوائي كفيلة بإثارة الرّعب عند الأهالي الفلسطينيّين.

بالرّغم من ذلك، نام أهالي اللّدّ ليلتهم الأولى بالغيتو وسط سكون، وهذه دلالة عن شدّة الإرهاق النّفسي والجسدي لدى الفرد الفلسطيني، فما مرّ به من قمع وتطهير جِذري ليس بالأمر الهيّن.

فالنّوم بعمق رغم نباح الكلاب يُفسّر حالة التّعب الّتي عاناها شعب فلسطين، وهكذا اتّضحت أبعاد العلاقة بين الأنا وآخرها.

فصورة الإسرائيلي كمركز للقوّة دليل واضح عن مُعاناة هامشه الفلسطيني، ولعلّ حقيقة الطّرد تُفصِحُ عن ثنائيّة الأنا والآخر في شكلها المُضطرِب.

هي العلاقة المُمزّقة والحقيقة العارية لأنا جُرّدت هُويّتها، فما جرى مع الأنا الفلسطينيّة دليل واضِح عن أبعاد العِداء.

من هذا المنطلق، تتّضح أمامنا صورة الأنا والآخر، وما تُفصِحُ عنه هذه العلاقة من مشاهد بشريّة دامية، كتصوير للحقيقة المُضمرة والرّاهن المتصارع القِوى، من ذلك استطاع(آدم) تصوير حقيقة الأنا الهامِشية مع آخرها الظّالم، الّذي يُتقن ممارسة سياسات

[1] المصدر نفسه، ص:198.

الفصل الثّاني: البحث عن الذّات في رواية أولاد الغيتو اسمي آدم لإلياس خوري

العُنف وامتلاك ما ليس له، وعليه فإنّ:" النّزاع الإسرائيلي الفلسطيني، يزيد من صعوبة تطوير العلاقات بين الغرب والعالم الإسلامي"[1].

من هنا، تتبنى القَطيعة بين الأنا الإسلاميّة والآخر الغربي، كنتيجة لتأزّم العلاقة في فلسطين، فحقيقة النّزاع والأساليب الممارسة ضِدّ شعبها دليل جليّ عن إرهاب الآخر.

ومنه، نُواصل مع انعكاس آخر يُمثّل حقيقة العلاقة المُضْطرِبة، كصورة(الدّكتور ميخائيل سمارة) وزوجته الّتي تعكِس ملامح الفلسطيني المجهول المصير:" هذا قفص(...) ثْخافيش، مشْ رح يطردونا، حطّونا بالقفص زيّ الحيوانات"[2].

من هنا، تتّضِح حقيقة الأنا الفلسطينيّة كمُسْتَضْعَفة وهامِشيّة، مُقارنة بنظيرها الإسرائيلي كمُسبّب لألمها وشتاتها، فهكذا وُضِع الفلسطيني داخل قفص مِثل الحيوان.

لكن، من المهمّ هنا الخوض في غمار صُور الأنا والآخر(العربيّة/الإسرائيليّة) والكشف الحقيقي لطبيعة العلاقة الرّاهنيّة بينهما، وما يعتريها من شتات سببه الرّئيس الفكرة المُسبقة عن الآخر، وعليه:" كانت مرحلة المرآة الإنسانيّة الحقيقيّة تتمثّل في تأمّل الذّات في النّظير أو الشّبيه، ورؤية ما هو مُغاير للمرئي في المرئي القريب"[3].

وبالتّالي؛ تقودنا حقيقتنا لإعادة النّظر في علاقتنا مع الآخر، بتحديد أوجه التّشابه والاختلاف بتأمّل ذواتنا.

وبذلك، تتكشّف صورة الآخر بالنّسبة للأنا العربيّة مُشتّتة الحُضور، يقول(آدم):" يأتي وجه منال كي يكون الصّورة الأولى في خريطة الألم الّتي أُحاول استحضارها الآن، خريطة مرسومة بالأسلاك الشّائكة الّتي صنَعت حُدود الغيتو؛ حيث عاش من تبقّى من سُكّان اللّدّ في قفص تحُدّه أصْداء الموت من جِهاته الأربع، حتّى السّماء بَدَتْ مُغطّاة بِغلالة خفيّة

---

[1] حسن شحاتة: الذّات والآخر في الشّرق والغرب(صور ودلالات وإشكاليّات)، ص:63.

[2] إلياس خوري: رواية أولاد الغيتو اسمي آدم، ص:198.

[3] ريجيس دوبري: حياة الصّورة وموتها، ص:22.

الفصل الثّاني: البحث عن الذّات في رواية أولاد الغيتو اسمي آدم لإلياس خوري

حجبت النّور"[1]، هذا ما، أسْفَرت عليه علاقة الأنا بالآخر، وضْع داخل قفص شائك وتهديد بالموت.

هي حِكاية كحقيقة الألم الّذي لَبِسَ الفرد الفلسطيني فصارتْ(أنا) فارغة الحُضور، وما خريطة الألم إلّا وصف دقيق لحالة الفلسطيني الضّائع الأنا.

فمرآة الواقع مَنْ تُحدّد طبيعة العلاقة بين الأنا العربيّة وآخرها، ومنه تكون الحقيقة عارية من غموض الأسئلة:" خريطة الألم تبدأ في حيِّ المستشفى، حول الجامع الكبير والكنيسة، وتمتدّ في الأشلاء الّتي التصقت بحيطان جامع دهمش، والجُثث الّتي انتشرت على الطّرقات، وحوَّلَت شارع صلاح الدّين إلى شارع الذُّباب الأزرق، وتصِل إلى المقبرة، وتنعطف إلى داخل البيوت الّتي وُجِدت فيها جُثث مهترِئة وأطفال انتفخت أجسامهم بالجوع والموت"[2].

هي الأنا الفلسطينيّة المُضطهدة الّتي تتجرّع في صمت ألم الطّرد، وهكذا رسم الآخر ملامحها المُثقلة بالعَتمة دون هُويّة.

فصُور الذّباب الأزرق والرّوائح الكريهة المُنْبعثة من الجُثث المُتعفّنة، دليل واضح عن حجم المأساة.

هذا ما تدلّ عليه حكاية الأنا الفلسطينيّة الضَّائعة، ومن ذلك يقول(آدم):" لا نذكُر سوى حالات من الغموض، كالألم، فالألم ذِكرى شبه ممحُوَّة، نتلذّذ باسترجاعها لأنّه لمْ يبقَ منها سِوى كلمة مرسومة على ورق الذّاكرة، أو مصنوعة من صَدى صَوْت النّطق بها"[3].

هو الألم كَانعِكاس للذّكريات الّتي تسترجعها الأنا الفلسطينيّة؛ الّتي باتت لا تتذكّر إلّا فراغا يكسوه الغموض.

---

[1] إلياس خوري: رواية أولاد الغيتو اسمي آدم، ص:292.

[2] المصدر نفسه، الصّفحة نفسها.

[3] إلياس خوري: رواية أولاد الغيتو اسمي آدم، ص:294.

الفصل الثّاني: البحث عن الذّات في رواية أولاد الغيتو اسمي آدم لإلياس خوري

وعلى ذلك، قالت(منال):" إنّ اللّدّ فقَدَت رائحتها، حين جمعونا في ساحة الجامع داخل سِياج الأسلاك الشّائكة ماتت رائحة المدينة، اختفَى عطر زهر اللّيمون لِتَحْتَلَّنا رائحة الموتى الّتي هَبَّت من الجِهات الأربع"[1].

وعليه، فقدت المدينة رائحتها واختلطت برائحة الموتى، هي أبعاد الأزمة الفلسطينيّة/الإسرائيليّة فما حصل في فلسطين انعِكاس صريح لحجم الكارِثة الإنسانيّة.

وما مِحنة التّغييب التّعسُّفي للأنا الفلسطينيّة إلّا تجلّي لحقيقة الآخر، فهكذا:" اسْتفاق سُكّان الغيتو من الغيبوبة الّتي أصابتهم بعد يوم الشّمس الطّويل في باحة المسجد الكبير على الحَضيض، لا توجد كلمة أكثر دِقّة من كلمة الحَضيض"[2].

ومنه، نجد أنّ للمُرادفات والألفاظ معانٍ لا يُدركها إلّا من عاش وضعا مُعيّنا، وما حقيقة الغيتو وكلمة الحَضيض إلّا وصفا صريحا لمأساة الشّعب الفلسطيني المسلوب الأنا والهُويّة.

فحقيقة فلسطين رَسَمها الإسرائيلي مُخطّطًا تمّ تنفيذه؛ غَرضه انتزاع الأرض وتعرية الأنا العربيّة، ومِنْ ذلك نُدرج قولا يعكِس تمظهُرات الانكسار وتعسُّف الآخر، وهكذا:" استفاق سُكّان الغيتو على حقيقة أنّ عليهم تَدْبير أمور مَعيشتهم بأنفُسهم، فلقد أبْلَغهم الحاكم العسكري أنّ الدّولة ليست مسؤولة عنهم، وأنّ عليهم تأمين الطّعام والماء والطَّبَابة بأنفسهم، وأنّه ليس مُسْتعِدّا لسماع أيّ شكوى بهذا الخُصوص"[3].

وهنا، تتحدّد أبعاد الاحتلال الإسرائيلي المبنيّة على التّعرية والقمع، فكيف للشّعب السّجين تدبّر شؤونه الحياتيّة من طعام وشراب وغيرها من ضروريّات المعيشة، إنْ كان أعْزَلَ المقوّمات مُقيّدَ الحُريّة؟

---

[1] المصدر نفسه، ص:297.

[2] المصدر نفسه، ص:300.

[3] إلياس خوري: رواية أولاد الغيتو اسمي آدم، ص:322.

الفصل الثّاني: البحث عن الذّات في رواية أولاد الغيتو اسمي آدم لإلياس خوري

وبهذا، الخُصوص أجاب الكابتن الإسرائيلي(موشيه) رئيس اللّجنة الفلسطينيّة(إيليا بطشون)، أنّه ليس مسؤولا عن تأمين الطّعام والماء والطّبابة لسُكّان الغيتو، وأنّ عليهم تدبّر شؤونهم بأنفُسهم.

هي حقيقة الآخر عدُوًّا مُغتصِبًا للهُويّة الفرديّة والجماعيّة، وهذا ما اكتَشفناه من خلال تحليلنا لبعض المشاهد الدّامية، الّتي تُفصِح عن تطبيق سياسة قمع الآخر.

وعلى ذلك، يرى عبد الغني عماد، أنّ:" وجود الآخر المُختلف بالعقيدة والعِرق واللّون مُشكلة(...)؛ فالاختلافات بين بني البشر ظاهرة كونيّة(...) فمنذ كان للإنسان تاريخ، ومشكلة الجماعات الأخرى موضوع يستقطب اهتمامه، فهو إمّا ينظر لهذه الجماعات بالشّكّ والرّيبة، الّتي تتحوّل في بعض الأحيان إلى عُدوان أو صراع"[1].

وهكذا، تجلّت حقيقة الآخر عُدوان يَصْحَبه صراع مُسْتمرٌّ؛ لأنَّ الإنسان منذ وجوده يُعاني تأزّما بينه وغيره من البشر بسبب الاختلاف، انطلاقا من مبدأ الشّكّ والرّيبة.

من ذلك، يرى محمّد عماره أنّ:" حال الأمّة العربيّة في صِراعها الطّويل والحضاري والدّائم مع التّحدّيات، الّتي فرضت عليها(..) وأندر من ذلك وجود حالة خرجت فيها أُمّة أخرى، غير هذه الأمّة مثل صِراعها هذا مع تلك التّحدّيات دون أنْ تفنى أو تُمسخ هُويّتها الحضاريّة وتنْطمس معالمها القوميّة فتُصْبِح امتِدادا هامشيّا أو ذيلا لأعدائها، الّذين فرضوا عليها ما فرضوا من تحدّيات"[2].

نفهم من ذلك؛ أنّ الأمّة العربيّة دائمة الصّراع مع غيرها؛ خاصّة ما حمل طابع التّصادُم الحضاري معها نتيجة للتّفاوت العِلمي والفكري بينهما.

هذا ما، وُسِمت بِهِ علاقة الأنا العربيّة وآخرها المُغاير لها، حيث ارتكزت على تحدّيات الرّاهن وما تُعانيه الأمّة من تغيّرات جِذريّة، ما يُفسّر حالات التّبعيّة للآخر قسرا أو طَوعا.

---

[1] عبد الغني عماد: جينالوجيا الآخر المسلم وتمثّلاته في الاستشراق والأنثروبولوجيا والسّوسيولوجيا، مركز دراسات الوحدة العربيّة، بيروت، ط1، 2020م. ص:09.

[2] محمّد عماره: العرب والتّحدّي، المجلس الوطني للثّقافة والفنون والآداب، الكويت، دط، 1980م. ص:05.

الفصل الثّاني: البحث عن الذّات في رواية أولاد الغيتو اسمي آدم لإلياس خوري

وبالتّالي؛ تفقد الأمّة العربيّة معالمها القوميّة لِتُصبِح امتدادا للآخر، وهنا تكون التّعرية أو ما يُطلق عليه مُسمّى التّمزّقات الجِذريّة.

وعليه، تجلّت حقيقة التّعسّف الآخري في فلسطين من خلال ما حصل باللّدّ، يقول(آدم):" فهم النّاس أنّ العواقب الوخيمة تعني طردهم من المدينة، وهم قرّروا البقاء هنا، وأنا اليوم أشعُر بالحيرة نفسها الّتي شعر بها الجنود الإسرائيليّون أمام هذا الحشد من سُكّان الغيتو"[1].

هو الخوف من الطّرد والضّياع، هذا ما فعله الفلسطيني أثناء الطّرد؛ حيث رَفض الخروج من الغيتو بعد إصدار قرار إمكانيّة ترك المكان.

فحالة ذُهول الجنود الإسرائيليّين لمْ تَأتِ عبثا؛ إذْ جاءت من الكَمِّ البشري لِلمُتحاشدين داخل مساحة الغيتو الضّيّقة.

هذا في الحقيقة دليل يُثْبِت حجم المأساة؛ لأنّ:" رُؤية الذّات لذاتها ضبابيّا بما أنّ الغيريّة تُصبح بديلا منهجيّا ووجوديّا عن الذّات المُتماهية"[2].

وهكذا، تَجلَّت حقيقة علاقة الأنا بالغير، الّتي صارت بديلا وجوديّا للذّات الفرديّة الحقيقيّة، ما يُفسّر غلَبة الآخر وتجاوزه لحدود الأنا، الّتي اقتصر حُضورها على الضَّبابيّة والإبهام.

علاوة على ذلك، امتاز الإنسان الفاقد لأناه بنظرة سوداويّة، كتصريح منه عن إنكاره للحقيقة ومكان انتمائه، يقول(آدم):" كانت البداية أو ما اعتقدناه بداية هو نهاية، لكنّ النّهاية الواضحة الّتي قادتني إلى الهجرة من بلادي"[3]، هنا قادت معرفة الحقيقة إلى النّهاية، كحلّ يُريح الإنسان من فضاءات الأسئلة اللّا مُتناهية، فما كان بِداية صار نهاية بالنّسبة لآدم.

---

[1] إلياس خوري: رواية أولاد الغيتو اسمي آدم، ص:348.

[2] بول ريكور: بعد طول تأمّل...(السّيرة الذّاتيّة)، ترجمة: فؤاد مليت، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2006م. ص:11.

[3] إلياس خوري: رواية أولاد الغيتو اسمي آدم، ص:22.

الفصل الثّاني: البحث عن الذّات في رواية أولاد الغيتو اسمي آدم لإلياس خوري

هذا ما حملته حقيقة الأنا العربيّة في علاقتها مع الآخر، كانعكاس للأزمات والصِّدامات النّابعة من الاختلاف الحضاري والثّقافي، فحقيقة الآخر الإسرائيلي تبقى راسخة الحُضور داخل الأنا الفلسطينيّة مدى العُمر، فهي صورة واضِحة عن الآخر المُغتصِب واللّاإنساني.

رابِعا/الأنا عبر ضمائر السّرد:

مثّلت الأنا العربيّة الواقع المُزري الّذي تعيشُه بفعل تمرّد الآخر وظُلمه لها، هذا ما دفع بالكاتب العربي الانطلاق من صميم الواقع لعَكسِ حقيقة الأنا، لذلك نجِده نوّع من توظيف ضمائر السّرد المُحيلة للأنا العربيّة المُتشظّية.

انطلاقا من ذلك، قام الرّوائي العربي بتوظيف حقيقة الأنا العربيّة وما تُعانيه من تعسّف الآخر، كنقل منه لواقع الأنا العربيّة الضّائعة.

من ذلك، يرى حليم بركات، أنّ:" الأنا(...) قُطبيّة فعّالة تعيننا في البحث والاستكشاف"[1]، نفهم من ذلك، أنّ الأنا والآخر ثُنائيّة ضِديّة وجب على الكاتب العربي التّطرّق لموضوعها بغرض البحث والاكتشاف.

ومنه، امتازت الكِتابات العربيّة بقُربها من الواقع، فهي نقل لأحداثه بأعين كُتّابها، هذا ما لاحظناه مع كثير الرّوائيّين العرب؛ إذْ شكّلت مُجريات الرّاهن بفجواتها الثّنائيّة بين الأنا والآخر حقيقة التّغييب التّعسّفي للأنا العربيّة، ما أوقَعها في مشاكل الهُويّة.

وعليه، شَكّلت عمليّة الكِتابة الإبداعيّة بالنّسبة للأديب: فؤاد زكريّا انعكاسا للواقع فهي نقل لتجارب الإنسان ضمن مُحيطه؛ لأنّ:" الكتاب العظيم والفنّ العظيم يُكَدّران صفو حياتك(...) وليست أمانا واطمئنانا، وليست دعة وهدوءا، وإنّما هي العيش في خطر، وهي قلق وتوثّب دائم"[2].

---

[1] حليم بركات: غُربة الكاتب العربي، دار السّاقي، بيروت– لبنان، ط1، 2011م. ص:71.

[2] فؤاد زكريّا: خطاب إلى العقل العربي، الهيئة المصريّة العامّة للكِتاب، القاهرة، دط، 2010م. ص:11.

الفصل الثّاني: البحث عن الذّات في رواية أولاد الغيتو اسمي آدم لإلياس خوري

هذا ما، حملته أبعاد الثّقافة عند الكاتب العربي، الّذي ما يَبْرح أنْ يصبح جزءًا من العمليّة الإبداعيّة كمؤلّف للحقيقة الرّاهنة؛ إذْ يقتصر حضوره كأنا عربيّة مأزومة على نقل الواقع كما هو، فحقيقة الرّاهن العربي مليئة بالقلق المُستمر.

هي حقيقة الواقع وما يُخفيه للأنا العربيّة بوصفها موجودة ضمن حدوده، وهكذا انطلق الكاتب العربي من قضاياه ليُفصِح عن أناه الغائبة.

ولذلك، عَمَدَ الكاتب العربي إلى توظيف الأنا مُنقسِمة بين ضمائر السّرد، للدّلالة على تعدّد الأصوات داخل النّصّ الإبداعي، كما تعكس اشتراك الجميع في قضيّة الأنا العربيّة.

في وذلك، يقول علي حرب إنّ:" الكائن الإنساني رَهْن لإمكاناته على أنْ يُحوّل الواقع، وأنْ يتغيّر عمّا هو عليه فِكرا وهُويّة أو فعلا وممارسة، من خلال ما يخلقه من العوالم المُختلفة بِقِواها وعلاقاتها، أو المُتميّزة بلغاتها ورموزها، أو الفعّالة بأدواتها ووسائطها"[1].

وهكذا، عُدّ الإنسان الكائن الوحيد الّذي يُمكِنه تغيير مُجريات واقعه وذاته، انطلاقا من مبدأ الاختلاف لأجل الارتقاء وإثبات الحُضور الفردي والجماعي.

بيدَ أنّ، حقيقة تغييب الأنا العربيّة صورة جليّة تعكس مُنعطفات الرّاهن الآخري، هذا ما لمسناه في رواية(أولاد الغيتو اسمي آدم) لإلياس خوري، الّذي تعمّد كتابة الأنا عبر الضّمائر السّرديّة، إحالة منه على وضع الأنا العربيّة والفلسطينيّة المأزوم.

هذا ما، رَسَت عليه حقيقة الأنا العربيّة؛ بالأخصّ الأنا الفلسطينيّة الّتي صارت تتجرّع في صمت مرارة التّعرية الجِذريّة من آخر عدوّ مُنتهِك لحدود الإنسانيّة.

وعليه، يقول(آدم) مُشيرا لجميع الضّمائر السّرديّة، بَدءا من (آدم) أبًا للبشريّة وُصولا إلى أناه الفرديّة:" كان آدم صورة خلقها اللّه من الطّين، والصّورة لا ظِلّ لها، عاش آدم في الجنّة

[1] علي حرب: حديث النّهايات فتوحات العولمة ومآزق الهويّة، المركز الثّقافي العربي، الدّار البيضاء– المغرب، ط1، 2000م. ص:09.

الفصل الثّاني: البحث عن الذّات في رواية أولاد الغيتو اسمي آدم لإلياس خوري

بلا ظِلال، ولمْ يكُن يعرف الموت أو ينتظره، سُقوطه حوّله إلى إنسان؛ أي إلى كائن يموت ويعي أنّ الموت هو سرّ الحياة"[1].

وهكذا، انطلق(آدم دنّون) من الضّمير الغائب(هُوَ)؛ حيث لم يمنعه استخدام الضّمير من الكَشف عن صاحب الضّمير الّذي يَعود عليه كفاعل.

فالجنّة تدلّ على الأرض من مُنطلق الثّبات، أمّا السّقوط فيعني احتلال الأرض؛ وهنا نفهم أنّ فلسطين شُبّهت بالجنّة، وهذا واقع الأنا الفلسطينيّة كمطرودة من أرضها ومجهولة المَصير، وعلى هذا الأساس، فإنّ تمظهرات الأنا الفلسطينيّة تتشكّل بصُورها المُتكررة الملامح والمشتركة الحُضور والتّاريخ، وما هذا التّشابه إلّا تشابه واقعي ومُنعكَسٌ لِمرآة واحدةٍ؛ ألَا وهي مرآة الأنا الفلسطينيّة الغائبة.

ومنه، نُدرج قولا(لآدم) نُوضّح بواسطته تشابك الأنا الفرديّة كضمير مخصّص للمفرد مع جُملة من الضّمائر كضمير (هُوَ) للغائب المفرد، و(هُمْ) للجماعة؛ إذْ يقول:" كان أهل الغيتو عائلة واحدة، وأنا آدم دنّون، كنت طفل الغيتو الأوّل، فتبنّاني الجميع؛ لكنّ الرّجل الّذي انحفر في ذاكرتي بوصفه أبًا لمْ يلدني كان مأمون، الّذي أحاط بي من كلّ جانب، وعلّمني قراءة العتمة، قبل أنْ يتركني إلى مصيري ويمضي"[2].

يعني ذلك؛ أنّ أهل الغيتو المُمَثَّلين بهيئة الجمع الغائب(هُم) اشتركوا مع أنا (آدم دنّون)؛ حيث اعتبروه الطّفل الأوّل للغيتو ما جعلهم يولونه اهتماما خاصّا، لذلك عُدّ ابنا للجميع.

وبهذا، نفهم أنّ الغيتو أو حيّز المكان لهُ أثَره على الأنا الفلسطينيّة، الّتي اتّخذت من أنا (آدم) حُضورا للأنا المكسورة النّاقِصة؛ ونقصد بذلك قصّة استشهاد والد آدم ويُتمه، ما أعطاهم دافع تبنّيه كطفل الغيتو الأوّل.

أمّا بالنّسبة لضمير الغائب(هُوَ) الّذي مثّله (مأمون الأعمى)، فكان صورة تَسُدُّ فراغ الأب الحقيقي الغائب.

---

[1] إلياس خوري: رواية أولاد الغيتو اسمي آدم، ص:270.

[2] إلياس خوري: رواية أولاد الغيتو اسمي آدم، ص:134.

الفصل الثّاني: البحث عن الذّات في رواية أولاد الغيتو اسمي آدم لإلياس خوري

وفي هذا المضمار، نكتشف أنَّ صورة الأنا العربيّة تتشكّل في صيغة ضمائر متنوّعة للغائب، بدْءًا من ضمير الغائبة: (هي) كإحالة لانكسار الأنا ولا حُضورها، هذا ما انتبهنا إليه في رواية(أولاد الغيتو اسمي آدم) للكاتب الرّوائي إلياس خوري.

وعليه، تتجلّى أبعاد الغياب في الرّواية العربيّة المُعاصرة، كحقيقة الأنا العربيّة الّتي باتت قَيدا للانكِسار، فهي ضائعة أمام الآخر المُختلف عنها.

إنَّ طبيعة الرّاهن وما يعتريه من تطوّرات تكنولوجيّة وسياسيّة حَدّد عجلة سيْر الأنا العربيّة، الّتي صارت حلبة للصّراع الآخري ما أسقطها في متاهات الحُضور والغياب.

وما التّشظّي الذّاتي إلّا انعكاس لجميع الضّمائر السّرديّة انطلاقا من الضّمير الحاضر أنا، إذن؛ هي حالة الصّراع والحصار بين الأنا وآخرها عبر ضمائر السّرد.

في ذلك، يقول(آدم):" كُنّا حين نمرُّ أمام أمكنة السّياج كي نعبُر إلى المدينة، نَنْحني قليلا، كأنّنا سنمرّ من تحت الأسلاك الشّائكة، حتّى مأمون الأعمى كان ينحني من دون أنْ يقول له أحد إنّ السّياج كان هنا، ننحني ثمّ نتابع سيرنا كمن يتسلّل من مكان إلى آخر"[1].

ومنه، عُدّ الاضطهاد الفاصِل الّذي تُحدّد بِه طريق الأنا العربيّة، الّتي اقتصر حضورها الصّفّ على هامش الرّاهن، دلالة على غيابها على الرّغم من كَوْنِها حاضِرة.

وهكذا، تحدّدت ضمائر السّرد بأبعادها الحُضوريّة من خلال ما لمسناه في الأنا الفلسطينيّة، الّتي أصبحت تنحني أمام موقع الأسلاك الشّائكة بالرّغم من زوالها، وهذا يدلّ على سيطرة الأقوى الّذي يُمثّل الضّمير (هُم الغائب)؛ أي اليهود على ضمير(نحن) الّتي تُمثّلُ الأنا العربيّة الحاضرة.

ومنه، كانت الغَلَبة لضمير الغائب (هُمْ) على حساب (نحن)، وهنا يكمن الفرق بين الأنا الفلسطينيّة والآخر الإسرائيلي.

[1] إلياس خوري: رواية أولاد الغيتو اسمي آدم، ص:134.

الفصل الثّاني: البحث عن الذّات في رواية أولاد الغيتو اسمي آدم لإلياس خوري

إمعانا في التّوضيح؛ نجد أنّ حقيقة الأنا الفلسطينيّة مُنعكس للغياب، كحقيقة انتزاع الأرض من مُلّاكها، هذا ما حصل مع (إيليا بطشون) وغيره من الفلسطينيّين المسلوبي الرّسوخ.

إذْ نُلاحظ، أنّ الشّيخ مالكٌ لأرضٍ انتُزعت منه فصار عاملا أجيرا بمُلْكه عند الإسرائيلي، ونفهم من ذلك، أنّ الغلبة كانت للضّمير (هُمْ)؛ يعني اليهود، وعليه:" لم يخطر في بالهم أنّهم بعد أربعة أشهر من تغويتهم، وبعد أنْ تمّ تنظيف بيوت المدينة ومخازنها، سوف يُسمح لهم بالعمل كمياويّين في البيّارات وحقول الزّيتون، وعينكم تشوف إيش صار مع إيليا بطشون يلّي اضطرّ بآخر العمر أنْ يشتغل عاملا في أرض البيّارة الّتي يملكها"[1].

وهكذا، رُسِمت ملامح (إيليا بطشون) كالأنا فلسطينيّة مسلوبة ضمير الحضور (أنا)؛ إذْ صارت لا حاضرة وأجيرة عند الإسرائيلي بأرضها.

ففي هذه الحالة تكشّفت أبعاد التّعرية الذّاتيّة بالنّسبة للأنا الفلسطينيّة، الّتي عانت ألم التّغييب التّعسّفي كأنا حقيقيّة راسِخة.

يقول في ذلك إدوارد سعيد، إنّ :" لفقدان فلسطين(...) فلسطين أرض كان يعيش فيها الفلسطينيّون العرب، أرضٌ يحكمها الآن آخرون، أرض سُلِبت من الفلسطينيّين ويعيشون فيها الآن حالة من اسْتَعمروا الأرض من الدّاخل"[2].

هي الأنا الغائبة والأرض الضّائعة، فالفلسطيني حقيقة للإنسان الغائب مع ذاته وغيره، على الرّغم من أنَّ فلسطين في أذهاننا عربيّة فأصبحت مُلكا للآخر السّالب لحقيقة الفلسطينيّين كضمير جمعي (هُمْ) للدّلالة على الاستعمار من الدّاخل، وهذه حقيقة التّعرية سياسة إرهابيّة غرضُها ضرب الأنا والهُويّة.

---

[1] إلياس خوري: رواية أولاد الغيتو اسمي آدم، ص:352.

[2] إدوارد سعيد: الإسلام والغرب(مقالات ودراسات مُختارة)، ص:53-54.

الفصل الثّاني: البحث عن الذّات في رواية أولاد الغيتو اسمي آدم لإلياس خوري

ومن هذا المَنزع، تتّضِحُ ضمائر الأنا الفلسطينيّة الغائبة مع آخرها الحاضر، على الرّغم من عدم حُضوره إلّا أنّه أثْبَتَهُ، وفي ذلك يقول آدم:" من أنا حتّى أكون رحيما مع الضّحايا؟ وماذا تعني الرّحمة حين يكون التّاريخ الإنساني برمّته مصنوعا من القسوة والوحشيّة؟"[1].

يعني؛ ذلك أنّ الإنسان مهما كان لا يُمكنه تحديد ما سيكون عليه، كحال اكتسابه للصّفات البشريّة كالرّحمة والمودّة وغيرها من ملامح الإنسانيّة، فالرّاهن المُتحكّم الوحيد في انعكاسات الصّفات على الإنسان.

من هذا، تتّضِح حقيقة ممارسة الرّحمة مع الضّحايا، فقد باتت حُلما يبحث عليه كلّ إنسان مُسْتَعْمر فاقد لأناه الأصليّة.

وهنا، تتجلّى وحشيّة الآخر من خلال التّاريخ المُحدّد لتوجّهاته وأفعاله، فصفة الاستبداد مُتتالية زمانيّة تسمح له بمواصلة سيرورته الّتي لا تخلو من حقيقة الإرهاب.

بِناء على ذلك، يتعذّر إخراج الأنا من مجال راهنها المُتصارع، فهي والآخر مُشتركان بكلّ شيء، وما حُضورهما إلّا دليلا يوضّح طبيعة العلاقة، لذلك، فإنّ:" علاقة الأنا والآخر، ستكون علاقة صراع من أجل النّفي والإلغاء والإزاحة"[2]؛ والمقصود بذلك، أنّ علاقة الأنا بالآخر مُتَصارعة، فهي مُتأرجحة بين الحُضور كإثبات ونفي بدافع الإزاحة.

على ذلك، يقول آدم:" قال مأمون إنّ أفراد مجموعة العمل الّتي كان عُضوا فيها والمُكلّفة بِلَمِّ الجُثث تمهيدا لدفنها، أُصيبوا بالذّهول عندما دخلوا إلى جامع دهمش، قال إنّه لمْ يفهم ماذا جرى، كانت رائحة الموت تحتلُّ المكان، رفاقه خرجوا من الجامع فجأة دون تنبيه، فوجدَ نفسه وحيدا، واكتشف من دون أنْ يروي له أحد كيف كانت أشلاء النّاس مُلتصقة بالحيطان"[3].

---

[1] إلياس خوري: رواية أولاد الغيتو اسمي آدم، ص:351.

[2] حسن شحاتة: الذّات والآخر في الشّرق والغرب(صور ودلالات وإشكاليّات)، ص:150.

[3] إلياس خوري: رواية أولاد الغيتو اسمي آدم، ص:313.

الفصل الثّاني: البحث عن الذّات في رواية أولاد الغيتو اسمي آدم لإلياس خوري

يُفصِح (آدم) عن هَول الكارِثة الّتي حلّتْ بسُكّان اللّدّ (كَهُمْ) جَمعي لأنا واحِدة، مثّلتها فلسطين الجريحة الواقعة تحت سَطْوَة الآخر.

فصورة جامع دهمش والأشلاء المُتناثرة عبر الحيطان ورائحة الموت والعَفن، بقيت راسِخة بذاكرة مأمون الأعمى وفرقة التّنظيف.

وهكذا، ظلّت الأنا الفلسطينيّة منتقلة عبر الضّمائر السّرديّة الغائبة، كدليل يعكس غِيابها إزاء نظيرها الآخر، من ذلك يُواصل (آدم) حديثه عن المذبحة، يقول:" أعْتَقِد أنّ ضحايا هذه المذبحة لمْ يرْووها، لأنّها انحفرت في أرواحهم ورافقتهم طوال حيواتهم البائسة، ولمْ يجدوا هناك ضرورة لبرهنة البديهي الّذي عاشوه، ثمّ إنّهم أرادوا نِسيانها، وهذا حقّهم إذْ كيف يستطيع الإنسان أنْ يحمل جُثّته على ظهره ويُتابع حياته العاديّة؟"[1].

هي مشاهد المذبحة وحقيقة الموت الّذي صَنَعه الآخر بالأنا الفلسطينيّة العربيّة، فقضيّة جامع دهمش والنّكبة لهما أثر واضِح على الأنا الضّائعة.

ظلّت صور النّكبة والمجازر عالقة بالأنا الفلسطينيّة على مرّ الأزمنة، على الرّغم من مرور الوقت عليها إلّا أنّ نسيانها مُحال، هذا ما لا يستطيع الإنسان تجاوُزه من مبدأ ضمير الغائب (هُوَ) كالأنا الفلسطينيّة الميِّتة مجازيّا.

فحقيقة موت الإنسان وهُوَ حيّ وحمله لجُثّته على ظهره، دليل يكشِف حجم مُعاناة الأنا الفلسطينيّة داخل أرضها:" كان إبراهيم صديقا لمأمون، ولهذا صار صديقي؛ أمّا مأمون، فهو الّذي صنع ثُلاثيّة الصّداقة هذه الّتي تُشبه سلّما من الأعمار، كان مأمون أكبر منّي بثمانية عشر عاما، أمّا إبراهيم فكان يكبرني بخمسة أعوام، ومع ذلك، استطاع مأمون أنْ يبني هرما من الصّداقة، جمعنا في بوتقة لن تجد تفسيرها إلّا في ذلك الشّعور بالضّياع، الّذي حوّل سُكّان مدينة اللّد إلى غُرباء"[2].

---

[1] إلياس خوري: رواية أولاد الغيتو اسمي آدم، ص:315.

[2] المصدر نفسه، ص:128.

الفصل الثّاني: البحث عن الذّات في رواية أولاد الغيتو اسمي آدم لإلياس خوري

هي أبعاد الغياب كحال سُكّان مدينة اللّدّ الغُرباء، وما ذلك الشّعور إلّا انعكاس للحالة الّتي آلت إليها فلسطين؛ إذْ صارت مدينة بلا هُويّة.

وعليه، انبنى الهَرم الزّمني بين كلّ من (مأمون وإبراهيم وآدم) دلالة على سدّ فجوات الأنا الفلسطينيّة الضّريرة، أو ملء لفراغات الأنا المُثقلة بضياعها.

وهكذا، رُسِمت ملامح الإنسان الفلسطيني، انطلاقا من تعدّدت الضّمائر السّرديّة، كإحالة مباشرة لتأزّمات الأنا؛ لأنّ الهَدف واحد والمصير مُشْترك.

مثّلت ضمائر الأنا حقيقة الإنسان المُنكَسِر الذّات، فما يرتكبه الصّهيوني من مجازر كفيل بتَصوير وَضْعيّة الأنا الفلسطينيّة كحقيقة مطْموسة وتغييب قسري، على ذلك يقول سليم مطر:" إذا كان اليهود يبتغون العيش بسلام فعليهم مُجاراة منطق التّاريخ والقبول بكلّ بساطة بحقيقة انتمائهم للشّعب الفلسطيني بدلا من محاولة نفيه وطرده من أرضه وإلغاء تاريخه"[1].

والمقصود بذلك؛ أنّه وجب على اليهودي قبول الأنا الفلسطينيّة بدلا منْ طردها، لأنّ حقيقة انتمائه لفلسطين واقع حاصل عبر التّاريخ.

وهكذا، عُدّت الأنا الفلسطينيّة غائِرة دون ملامح وفراغا من ثبوتيّة، ومنه نُواصل مع (آدم) الّذي رأى في مأساته وشعبه ضمائر سرديّة لأنا غائبة، يقول:" ما أعْرفه هو أنّنا بَقينا في البيت الّذي وَجده مأمون لنا، فمنال تمتّعت بامتياز كونها زوجة شهيد سقط دِفاعا عن المدينة، فلم يجرؤ أحد من أعضاء اللّجنة على إجبارها على استقبال عائلة ثانية في منزلها"[2].

نتيجة لسُقوط المدينة وضياع حقيقة الأنا الفلسطينيّة، انعكست أبعاد التّشظّي الذّاتي عند الفرد الفلسطيني، وهذا ما لمسناه من خلال ما حصل مع (منال) كضمير سردي للغائب (هِيَ)؛ حيث تمتّعت بامتياز زوجة الشّهيد ما ضَمن حُصولها على سكن فردي.

---

[1] سليم مطر: الذّات الجريحة(إشكاليّة الهُويّة في العرق والعالم العربي- الشّرقمتوسّطي-)، ص:192.

[2] إلياس خوري: رواية أولاد الغيتو اسمي آدم، ص:321.

الفصل الثّاني: البحث عن الذّات في رواية أولاد الغيتو اسمي آدم لإلياس خوري

هي انعكاسات أزمة الأنا العربيّة وواقعها الّذي صار أكثر حِدّة، وما تأثيرها على الحقيقة العربيّة إلّا انكشاف يوصِلنا لغياب الأنا العربيّة.

ومنه، يقول علي حرب:" يضجُّ العالم اليوم بالأزمات والاضطرابات وأعمال العُنف المُتفاقم، اقتِتالا أو إرهابا خاصّة في المنطقة العربيّة الّتي تُمزّقها الصّراعات"[1].

ما هذا إلّا مُلخّص لوَضْعِيّة المنطقة العربيّة، الّتي مزّقَتها الصّراعات والأزمات في عالم مليء بالاضطرابات وأعمال العُنف.

وعليه، نستطيع القول: إنّ الأنا العربيّة ضائعة، نظرا لتفاقم المَشاكل العالميّة كالإرهاب وأعمال العُنف.

ولذلك؛ نُفسّر توظيف الرّوائيّين العرب لتعدّد الضّمائر السّرديّة داخل الرّواية، إحالة غير مباشرة منهم لصوت الأنا المَقْموع تحت سَطْوَة الضّمير الغيري.

خِتامًا هذا ما حملته الأنا كضمير سردي غائب، أو كضمير تشترك فيه كلّ الضّمائر السّرديّة داخل رواية(أولاد الغيتو اسمي آدم).

خامسًا/ السّرد والذّات:

الذّات العربيّة حقيقة غائبة يبحث عنها كلّ إنسان عربي، بدافع إثبات حُضوره الّذي بات يقتصر على تصوير وقائع الرّاهن المُتصارع القِوى.

هذا ما أثارته قضيّة الذّات العربيّة المُتشظّية، كجدليّة تبحث عن حلّ يُعيد للإنسان العربي مكانته.

ومنه، حمَلت الرّواية العربيّة دلالات حُضور الذّات العربيّة المُنكسرة ضِمن الرّاهِن، ومن هُنا انْبَنت العلاقة بين السّرد والذّات الّتي لَمْ تخرُج عن نِطاق المُسَايَرة.

وهذا ما تَبنّاه الكاتب العربي الّذي أَورد مُعاناة الذّات العربيّة داخل نُصوصه الإبداعيّة، من بابِ كشفِ ملامح الذّات الغائبة.

---

[1] علي حرب: تواطؤ الأضداد الآلِهة الجُدد وخراب العالم، الدّار العربيّة للعلوم ناشرون، بيروت– لبنان، ط1، 2008م. ص:13.

الفصل الثّاني: البحث عن الذّات في رواية أولاد الغيتو اسمي آدم لإلياس خوري

ففي ذلك، يقف الكاتب العربي المُعاصر عند قضيّة الذّات، لأجل عكس حقيقته الغائبة وحجم مُعاناة الإنسان العربي في ظلّ أزمة الهُويّة، ومنه يرى علي حرب، أنّ:" مِنَ المُفارقات أنّ ما أُريق من دماء، وما حدث من خراب في حروب الأسماء والرّموز والأفكار والهويّات، حول ما هو قُدُسي وإلهي(...) أو حول ما يتّصل يتّصل بالحقيقة والعقيدة والعدالة والحُريّة والتّقدّم، إنّما صَنَعه أصحاب الدّعوات والمشاريع، بشعاراتهم الدّينيّة القديمة أو بعناوينهم الأيديولوجيّة الحديثة"[1].

هي شِعارات الآخر ذات المُحتوى الدّيني القديم، أو الواقعة تحت العناوين العريضة للأيديولوجيّات الحديثة، هذا ما رَسَت عليه حقيقة الرّاهن الّذي صار يتخبّط في ملاحق الأسماء والرّموز والحقيقة والحُريّة وغيرها.

هذا ما صَنعته القِوى العالميّة مُسيطرة على الذّات العربيّة وراهنها، وهكذا:" حوّلوا الدّيمقراطيّة إلى استبداد، أو انتهكوا كلّ الحقوق والحرمات، ومُؤَدّى القول هنا إنّ المشكلات والأزمات تجري معالجتها أو تُركّب حلولها بِعُدَّة فكريّة جديدة من مفرداتها: النّسبيّة، الشَّراكة، التّسوية"[2].

نفهم من ذلك؛ أنّ صُنّاع القِوى العالميّة وأصحاب المشاريع، حوّلوا معنى الدّيمقراطيّة إلى معنى يحمل دلالات وأبعاد الاستبداد؛ حيث انتهكوا حُدود الحُرّيّات الإنسانيّة كحُريّة الإنسان العربي.

ومن هنا، تبرز حُدود الأزمات بأشكالها المُتعدّدة، الّتي لا تخلو من تفاسيرهم ذات المُعطيات الخادمة لمصالحهم.

يتّضح أنّ علي حرب أراد تبيين صورة الإنسان الغربي وتأثيراته على الذّات العربيّة، الّتي صارت قيد المُصطلحات والمفاهيم المُتوالدة المعاني الخادمة لمصالح الجميع دون استثناء، لكنّها تُخالف معانيها ودلالاتها الأصليّة لمعانٍ خفيّة لا يعلمها سِوى العقل الغربي.

---

[1] علي حرب: تواطؤ الأضداد الآلِهة الجُدد وخراب العالم، ص:23.

[2] المرجع نفسه، ص: 24.

الفصل الثّاني: البحث عن الذّات في رواية أولاد الغيتو اسمي آدم لإلياس خوري

ومنه، يقول علي حرب:" هكذا لمْ تعُد المسألة مسألة صِراع بين الإنسانيّة والعولمة، ولا مسألة صِدام بين الحضارات أو بين الإسلام والغرب، وإنّما هي صَدمة الإنسان لِنفسه ومشكلته مع ذاته"[1].

والمعنى؛ أنّ الإنسان العربي المُعاصر يُعاني حالة الصّدمة مع نفسه وذاته المُتشظّية، بغضّ النّظر عن خلفيّات هذه الأزمة الذّاتيّة.

ومنه، عَمَدَ الكاتب العربي إلى توظيف أزمة الذّات داخل أعماله الأدبيّة، كتوضيح لحقيقة انكسارها وغيابها الرّاهني، هذا ما حملته رواية(أولاد الغيتو اسمي آدم) لإلياس خوري.

على ذلك، عُدّت اللّغة مِداد الكاتب الّتي يَبُثُّ من خلالها صوته وصوت الجميع، كانعكاس لصورة الّذات ضمن نطاق واقع مليء بالأحداث والأزمات.

وعليه، يُفصح(آدم) عن فشله في الكِتابة، يقول:" أشعُر بأنّني لا أستطيع متابعة الكتابة، فبعد لقائي بمأمون، تغيّرت دلالات الأشياء، وصرت كالأعمى، الحكايات هذه المرّة صارت حقيقيّة، قال مأمون وهو يُودّعُني، إنّ حكاية اللّد كتبت على عينيه وأنّه لم يكتب حكاية مدينته؛ لأنّها انكتبت بحبر لا لون له، وما علينا سوى النّظر في عينيه المغمضتين كي نقرأ"[2].

هي حقيقة الواقع المليء بفجوات الذّات الإنسانيّة، وما تُعانيه من ألم كحال الإنسان الفلسطيني، الّذي صار يتجرّع في صمت مرارة الحياة.

فقِصّة (آدم دنّون) دفعته لجنون البحث عن الذّات الأصليّة؛ إذْ انبنى بحثه على تكرار الأسئلة الفارغة الإجابة، وهكذا توقّف (آدم دنّون) عن كتابته لقصّة الشّاعر الأموي (وضّاح اليمن)، لأنّه صار عاجزا عن مُواصلة الكتابة.

---

[1] علي حرب: العالم ومأزقه منطِق الصّدام ولغة التّداول، المركز الثّقافي العربي، الدّار البيضاء– المغرب، ط1، 2002م. ص:13.

[2] إلياس خوري: رواية أولاد الغيتو اسمي آدم، ص:137.

الفصل الثّاني: البحث عن الذّات في رواية أولاد الغيتو اسمي آدم لإلياس خوري

فحكاية لقائه بمأمون غيّرت ملامح إدراكه للحقيقة؛ إذْ قلبت حياته رأسا على عقِب، لأنّ قِصّة اللّدّ كُتِبت على عينيّ (مأمون) المُغمضتين، كمأساة تحكي حقيقة النّكبة الفلسطينيّة ومُعاناة شعب فقد ذاته وهُويّته.

ومنه، يرى بول ريكور أنّ:" النّصّ ينقل للقارئ تجربة وجود كاتبه وشكل تفاعله مع العالم"[1]، وهكذا يتحوّل النّصّ الكتابي إلى حقيقة تعكِسُ حضور الفرد والجماعة، داخل البِناء النّصّي الّذي يحمل معانٍ تدلّ على تجربة الكاتب الحياتيّة، من ذلك يتسنّى للقارئ الاطّلاع على تجربة الكاتب، الّتي تفتح له أبواب الأسئلة والمُشاركة النّصيّة.

وهُنا، تتجلّى حقيقة الكاتب الّذي عُدّ مرآة للواقع، فهو العين النّاقلة لأحداثه وأزماته بسلاح القلم والكلمة.

في كثير الأحيان تُشكّل اللّغة عائقا أمام مُستخدميها، كونها عاجزة عن إيصال ما يَصْبون قَوْله، هذا بالتّحديد ما حصل مع بطل الرّواية(آدم دنّون) حينما أراد الكتابة، يقول:" لا أُريد أنْ أسترسل في شرح دلالات نصٍّ، لستُ متأكّدا من قُدرتي على كتابته[2].

هذا ما، قادت إليه حقيقة الإنسان المُتشظّي الذّات، الّذي يميل لنوع من التّرك والشُّروع في الأمر نظرا لانقسامه على ذاته، الّتي صارت مِزْقا أمامه.

وعليه، يَعجز الفاقد لذاته عن مُواصلة الكتابة؛ لأنّ لُغته أصبحت مُتشظّية كحال حقيقته المُنكسِرة، هذا واقع (آدم دنّون) الّذي لا يستطيع شرح دلالات نصّه.

تدلّ حالة عدم الثّبات على انكسار في الحقيقة الذّاتيّة، الّتي تُوقِعُ الإنسان في متاهات الأسئلة والتّردّد.

فالألم مُعِيق مُجيد للذّات المُبدِعة في كثير الحالات، يقول(آدم دنّون) واصفا حالته أثناء عرض فيلم بقاعة السّينما:" كان المشهد غريبا، رأيتُ حياتي تتمزّق أمامي، ورأيتُ كيف تمّ

---

[1] بول ريكور: نظريّة التّأويل(الخطاب وفائض المعنى)، ترجمة: سعيد الغانمي، المركز الثّقافي العربي، الدّار البيضاء المغرب– المغرب، ط2، 2016م. ص:17.

[2] إلياس خوري: رواية أولاد الغيتو اسمي آدم، ص:30.

الفصل الثّاني: البحث عن الذّات في رواية أولاد الغيتو اسمي آدم لإلياس خوري

إخراج جثث أصدقائي من الذّاكرة كي يجري تشريحها أمام النّاس في صالة سينما نيويوركيّة، أحْسَسْتُ بالغضب، ثمّ تلاشى غضبي في دوار خفيف، صاحبه غثيان وشعور بأنّني أوشك أنْ أتقيّأ، لا يحقّ لأحد أن يُحوّل الذّاكرة إلى جُثّة، ثمّ يقوم بتشريحها وتمزيق أوصالها أمام النّاس، كي يصنع فيلم"[1].

وهكذا، تجلّت الحقيقة لتُزيح عُصابة الالتباس عند آدم، فتَسْتيقظ ذاكرة الألم بعدما ظَنّ أنّه نَسِيَ الغيتو وفلسطين، إلّا أنّ مشاهد الفيلم أعادته للخلف وهُناك شاهد حياته تتمزّق أمامه، بالتّحديد حينما رأى جُثث أصدقاءه تخرُج من ذاكرته ليتِمّ تشريحها في صالة السّينما الأمريكيّة.

على ذلك، تتجلّى صورة الألم لتُفصح عن حجم الكارثة الإنسانيّة في فلسطين، هذا ما لمْ يُفلح في تَصْويره كُلٌّ من الكاتب والمُخرج، فالحقيقة عكس ما كُتب وشوهِد داخل قاعة السّينما.

استيقظت ذاكرة آدم مُحيلة لحجم المأساة الجماعيّة، الّتي عاناها كلّ الشّعب الفلسطيني، من ذلك يرى عبد الرّحيم الكُردي، أنّ الرّواية:" من أكثر الفنون الأدبيّة قُدرة على التّعبير عن قضايا إنسان العصر الحديث، باعتباره فردا مَأْزوما يُعاني من حالات إحباط مُستمرّة، إزاء القِوى الخطيرة والشّرّيرة الّتي تَحْكُمُه"[2].

نفهم من ذلك؛ أنّ إنسان العصر الحديث مأزوم يُعاني مأساة مُسْتمرّة، فهو مُعرّض للإحباط نتيجة لتَصادُم القِوى العالميّة الخطيرة الّتي تَحْكُمه، وما الرّواية إلّا فنٌّ يَنقل حقائق الرّاهِن، وما الكاتب الرّوائي إلّا مُصوّر للحقيقة بقلمه.

من هذا المُنطلق، نُدرك أنّ مقْصِدِيّة النّصّ تُزيح لُبس الألفاظ والمعاني لِتَكشِفَ خبايا الذّات الكاتبة له، كَتوجيه غير مُباشر للقارئ أثناء عمليّة القراءة.

---

[1] إلياس خوري: رواية أولاد الغيتو اسمي آدم، ص:93.

[2] عبد الرّحيم الكُردي: السّرد في الرّواية المعاصرة(الرّجل الّذي فقد ظِلّه)، مكتبة الآداب، القاهرة، ط1، 2006م. ص:06.

الفصل الثّاني: البحث عن الذّات في رواية أولاد الغيتو اسمي آدم لإلياس خوري

لذلك، عُدّت العمليّة الكتابيّة إقرارا بتجربة الذّات ضمن راهِنها، على الرّغم مِمَّا حَمَلته من دلالات الرّوح الجماعيّة ذات الرّؤى الازدِواجيّة الفرديّة والجماعيّة، يقول في ذلك (محمّد بوعزّة):" إنّ السّرد يُسْتخدم كإستراتيجيّة مُضادّة لمواجهة استراتيجيّات الهيمنة والمركزيّة في سياق الاشتباك الإبستيمولوجي بين المركز والهامش، بين السّيّد والتّابع، بين السّلطة وضحاياها"[1].

هي إستراتيجيّات الكتابة الّتي تُفصِح عن المركزي والهامشي، في سِياق العمليّة الإبداعيّة ونقل تجربة الكاتب الواقِعيّة، الّتي تُحيل مباشرة لمبدأ السُّلطة الآخريّة.

هذا ما تعكِسه حقيقة انكسار الذّات العربيّة، الّتي تكشِف عن تناقضات قائمة بين هيمنة المركزي كسُلطة، وتشظّي هامشي مُبْعَد الحُضور بِدَور الضّحيّة.

مِنْ ذلك، يقول(آدم):" يبدو أنّني بدل أنْ أكتب القصّة أقوم بتحليل قصّة لمْ تُكتب، وهكذا من مساوئ المهنة الّتي اخترتها لنفسي، فقد قرّرت بلا سبب مفهوم، وبعد نَيْلي إجازة في الأدب العِبري من جامعة تل أبيب، أن أصبح مُدرّسان وبدلا من أنْ ألتحق بمدرسة عبريّة، أرسلوني إلى مدرسة وادي النّسناس في حيفا، وكلّفوني بتدريس الأدب العربي، فهربتُ من الصّحافة وانتهى بي المطاف ألّا أكون هذا ولا ذاك، وتلك حكاية أخرى لا مكان لها هُنا"[2].

انطلاقا من الحقيقة الكارثيّة الّتي يتخبّط فيها الشّعب الفلسطيني، اتّخذ آدم قرار دراسة اللّغة العِبريّة بدل العربيّة.

فحقيقة الوضع المأزوم في فلسطين حدَّدَ مصير آدم، كأيّ فرد فلسطيني أراد التّغيير هُروبا من الحقيقة الغائبة وردًّا للاعتبار الذّاتي، لكنْ لسوء حظّه كُلّف بتدريس الأدب العربي بجامعة حيفا الفلسطينيّة تارِكًا مجال الصّحافة، وهُنا انتهى بِهِ المَطافُ عاجزا عن الكتابة.

---

[1] محمّد بوعزّة: سرديّات ثقافيّة(من سياسات الهويّة إلى سياسات الاختلاف)، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2014م.38.

[2] إلياس خوري: رواية أولاد الغيتو اسمي آدم ، ص:42.

الفصل الثّاني: البحث عن الذّات في رواية أولاد الغيتو اسمي آدم لإلياس خوري

إذن، هو القُصور اللّغوي لا لعَدم تمكُّنِه من المادّة اللُّغويّة من ألفاظ ومعانٍ؛ بل كان نتيجة لفقدان الذّات والهُويّة، ففلسطين صورة للمأساة الجماعيّة، هذا ما يُثْبِتُه عجز (آدم) عن التّأليف النّصّي.

وعلى ذلك، عُدّت لغة الصّمت كلاما بِحدّ ذاتها، فبلاغتها أعمق بكثير من الكلام الحقيقي؛ حيث تُخفي ألفاظا يصعب تفسيرها.

ما يُفسّر؛ حالات الصّمت عند أهل الغيتو كإحالة لصوت الإنسان الفارغ الحُضور، ومنه يقول آدم شارحا أسباب فشله الكِتابي:" ما دفعني للهرب من ذاتي وذاكرتي، كَيْ أُؤَلِّفَ نفسي من جديد كبائع للفلافل يُحاول أنْ يكتب رواية عن شاعر مغمور لفّه الصّمت في حياته ومماته، وقادتني الكتابة إلى حيث تشاء، ووجدتُ نفسي أخرج من صندوق وضّاح اليمن كَيْ أدخل في صندوق حكايتي، وكان عليّ أنْ أصل إلى البِداية"[1].

تُؤثّر المشاكل الحياتيّة على الإنسان وتَجعله أكثر عُرْضة لتَشظّي الذّات، وهذا بالتّحديد ما حَدث مع(آدم دنّون) الفرد الفلسطيني المَسْلوب الحقيقة.

وعليه، تتجلّى ملامح فقدان اللّغة نتيجة لضياع الذّات الأصليّة، يقول آدم في ذلك:" أعود إلى الحكاية، لا أدري ماذا يجري لي وأنا أحاول أنْ أكتب، كأنّني لستُ أنا من يكتب، أو كأنّ الكلمات تَعْبُرُني وتمضي إلى حيث تشاء، وهذا ما نُطلق عليه اسم الاستطراد(...) لكنّني لا أكتب تيّار الوعي، الحقيقة أنّني لا أُبالي بالأشكال، أترك الكلمات تخْرج من بين أصابعي، وترتسم عتمة أحرفها السّوداء على الورقة البيضاء، وأتفرّج على روحي وهي تتفكّك تحت عصف ذاكرة قرّرتُ التّخلّي عنها"[2].

وهكذا، نُثْبِت ما قُلناه عن الإنسان المُتشظّي الذّات، الّذي يُعاني فقدان اللّغة المُتَضارِبة بين الحُضور الأصلي الغائب والحُضور المُلتَبس.

---

[1] إلياس خوري: رواية أولاد الغيتو اسمي آدم، ص:240.

[2] إلياس خوري: رواية أولاد الغيتو اسمي آدم، ص:239.

الفصل الثّاني: البحث عن الذّات في رواية أولاد الغيتو اسمي آدم لإلياس خوري

لذلك، كان الزّمن المُرتكز الرّئيس الّذي تنطلِقُ منه الكِتابة النّصيّة أوِ الحِكاية حسب جيرار جينيت الّذي يرى أنّ:" الحِكاية مقطوعة زمنيّة مرّتين(...) فهُناك زمن الشّيء المروي وزمن الحِكاية"[1].

وعليه، اسْتند جيرار جينيت على عُنصُر الزّمن، حيث ميّز بين أنواع الأزمنة كزمن الشّيء المروي؛ الّذي يقصِدُ بِه تحديد الفترة الزّمنيّة الّتي حدث فيها الشّيء المروي، أمّا بالنّسبة لزمن الحِكاية فيُمثّل مزيجا من الأزمنة حسب الضّرورة الحكائيّة.

وفي هذا الإطار، يرى فاضل ثامر، أنَّ:" الزّمن أُفق أيّ فَهْمٍ للوجود، ذلك أنّنا موجودون داخل الزّمن بوصفنا كائنات داخل الزّمن مُشتّتين بين ماضٍ يستذكر وحاضر يندثر ومستقبل يحدس، ولأنّنا محاصرون بالزّمن يستحيل علينا والحال أنْ نقف خارجه، وهنا تتجلّى قُدرة السّرد في الهيمنة على الزّمن، الّذي يبدو طاغيا ومُنفلتا وغير قابل للخُضوع إلى عمليّة تمثيل أو تشخيص ما"[2].

للتّوضيح أكثر، نجد أنّ: للزّمن حُضوره وتأثيره المُباشر على الذّات الإنسانيّة، الّتي تُعاني أزمات ومشاكل عبر خَطّ سَيْر الأزمنة، بصرف النّظر عن نوع الزّمن ماضِيًا أو حاضِرًا كُلٌّ ذلك حسب مقدار الألم.

ولذلك، يَصعب على الإنسان البقاء خارج الزّمن، ومنه كان السّرد المُهَيْمن الوحيد على الزّمن المُسْتَعْصي التّمثيل.

من ذلك، يقول آدم دنّون:" لن أكتب كناية، فالقارئ الّذي سيرى في حكاية وضّاح اليمن رمزا فلسطينيّا، سيجد في هذه القصّة استعارة إنسانيّة عن الفلسطينيّين، وعن كلّ المضطهدين في العالم؛ بل عن اليهود أيضا"[3].

---

[1] جيرار جينيت: خِطاب الحكاية بحث في المنهج، ترجمة محمّد معتصم وآخرون، الهيئة العامّة للمطابع الأميريّة، دد، ط2، 1997م. ص:45.

[2] فاضل ثامر: المبنى الميتاسردي في الرّواية، دار المدى للثّقافة والنّشر، بيروت، ط1، 2013م. ص:210.

[3] إلياس خوري: رواية أولاد الغيتو اسمي آدم، ص:29-30.

الفصل الثّاني: البحث عن الذّات في رواية أولاد الغيتو اسمي آدم لإلياس خوري

ولهذا، صرّح (آدم) عن الكِناية الّتي لا يودّ كتابتها، لأنّ القارئ الحاذِق سيكتشف من خلال ثغرات نصّه إحالة للقضيّة الفلسطينيّة.

نَزيد على ذلك، قوْلًا لآدم يَعكِس من خلاله عجزه الصّريح عن مواصلة الكِتابة:" بدا المطر يهطل غزيرا، حِبال من المطر تسدّ الأفق الرّمادي، وتنهمر على الأوراق، رأيتُ كيف سال حبر الكلمات وصار المطر أسود، حاولتُ أنْ ألتقط الكلمات الّتي سالت على الأرض، فتلوّث وجهي ويديّ بالحِبر (...) هذه المرّة لمْ أستطع أنْ أقرأ، بدل أن تمّحي الكلمات وتتحوّل إلى كُتل من النّمال السّوداء، انحلّت في الماء وسط قهقهات المُؤرّخ الّذي سخر منّي ومن كتاباتي"[1].

وهكذا، بَدا منام (آدم) الّذي رأى فيه هُطولا للمطر على الأوراق، الّتي سال حِبرُها فصار المطر أسودا، وضاعت الكلمات على الأرض.

هُناك، حاول آدم التقاط الكلمات السّائلة على الأرض، لكنّه عجز ولمْ يُمسِك سوى لَوْثة الحِبر، الّتي التصَقت بيَدَيه ووجهه.

أمّا عن المرّة الّتي لمْ يَسْتَطع فيها القراءة، فيرجع ذلك لامّحاء الكلمات وتحوّلها إلى نِمّال أسود مُنحلّ في الماء وسط ضحكات المؤرّخ الّذي سخِر منه وكتاباته.

كتفسير لمنامات آدم، نفهم أنّه يُعاني اضْطرابا نفسيّا بسبب فقدان الذّات والهُويّة، فحينما تتحوّل الحقيقة إلى كابوس يُطارد صاحِبَه، يَتدخّل الشّكّ ليُحيط الإنسان المُشَتّت الذّات من كلّ الجوانب، ليَسقط داخل متاهات العجز والتّفكير بالزّوال.

ومنه، يقول آدم:" ما همّني، فلن يقرأ أحد هذه الكلمات بعد موتي، لأنّني سأوصي بأنْ تُحرق هذه الدّفاتر معي كيْ تُرمى هي أيضا في النّهر، هذا هو مصير البشر ومصير الكلمات، فالكلمات تموتُ أيضا، وتتركُ أنينا نازِفا مثل الأنين الّذي ينبعثُ من أرواحنا، وهي تتلاشى في ضباب النّهاية"[2].

---

[1] المصدر نفسه، ص:185.

[2] إلياس خوري: رواية أولاد الغيتو اسمي آدم، ص:21.

الفصل الثّاني: البحث عن الذّات في رواية أولاد الغيتو اسمي آدم لإلياس خوري

وهكذا، خطّط (آدم) لموته وما سيفعله بكتاباته، الّتي سيوصي بحرقها مع جُثّته وأنْ تُنثرَ ورماده في نهر نيويورك؛ فهُو مصير الكلمات الّتي تموت كالبشر.

على ذلك، يُواصل آدم ككاتب فاشل وضَع حدٍّ لحياته، يقول:" جعلتُ من هذه النّافذة مرآتي، كي لا أنظر إلى وجهي في المرآة، يذوب وجهي في الوجوه، وتتلاشى ملامحي، هكذا أصنع نهاية للنّهاية الّتي اختارتني، وأنتهي من حُلُم كتابة رواية لا أعرف أنْ أكتبها، ولا لماذا عليَّ أنْ أفعل ذلك، ضاعت منّي الرّواية لحظة اعتقدتُ أنّني وجدتها، هكذا تضيع الأشياء، وهكذا ضاعت داليا المرأة الّتي اختفت من حياتي لحظة اعتقدت أنّه آن لي أنْ أكتُب حياتي في عينيها، ووافقت على أنْ نُنجب ولدا، ونبدأ"[1].

عادة ما تقود الحقيقة إلى الجنون والانتحار، فآدم دنّون انعكاس للحقيقة الغائبة الّتي دفعته لصُنع نِهايته، كحدّ يُريحه من ألم معرفة الحقيقة.

فالرّواية ضاعت منه فجأة كحُلم، وهذا ما دفعه للتّهرّب من النّظر للمرآة كيْ لا يرى صورته الّتي باتَتْ بلا ملامح، كحال الفلسطيني المُعرّى الذّات.

هي أبعاد الصّدمة جرّاء إدراك الحقيقة، الّتي جعلت من الإنسان المُتشظّي الذّات غائبا على الرّغم من حُضوره، من ذلك يقول آدم:" كانت البداية أو ما اعتقدناه بداية هي النّهاية، لكنّ النّهاية الواضحة الّتي قادتني إلى الهجرة من بلادي، بدت أشبه ببداية كاذبة، حين خُيّل إليَّ أنّني أستطيع الاستعاضة عن الحياة بكتابتها، لَبسني هذا الوهم بإيحاء من المخرج السّينمائي الإسرائيلي الّذي كان صديقي، لأنّه يتكلّم تلك اللّغة الّتي قرّرتُ أنْ أنساها، موحيا أنّ حياة كلّ إنسان تصلح أن تكون رواية أو فيلمًا سينمائيّا"[2].

هذا ما شَكّلته الصّدمة بالنّسبة لآدم دنّون كفرد فلسطيني بلا ذات، فحقيقة البداية كانت طريقا للنّهاية بالنّسبة إليه، فمُغادرته لوطنه فلسطين والتِباسه بهُويّة الآخر كانا سببا كفيلا بتَغييبه.

---

[1] المصدر نفسه، ص:22.

[2] إلياس خوري: رواية أولاد الغيتو اسمي آدم، ص:22.

الفصل الثّاني: البحث عن الذّات في رواية أولاد الغيتو اسمي آدم لإلياس خوري

ولذلك، لا يستطيع الإنسان أنْ يكتُب مأساة عاشها، بالخُصوص إنْ كانت السّبب الرّئيس في لا حُضوره، وهنا يكون للوهم أثره على الفرد الفاقد لذاته، يقول آدم:" نعم أخطأتُ، وما كتبته هنا هو سِجلّ أخطائي، كتبتُ الغضب والخطأ، قُلتُ هذا واجبي، يجب أن أُنهي حياتي بحكاية، فنحن نعيش كي نتحوّل إلى حكايات ليس أكثر، فكتبتُ كثيرا، لأكتشف أنّ الصّمت أكثر بلاغة من الكلام، وأنّني أُريد لهذه الكلمات أنْ تحترق"[1].

والمعنى؛ أنّ آدم لجَأ للصّمت؛ لأنّه أكثر بلاغةً من الكلام الّذي رأى فيه نوعا من الخطأ النّاجم عن الغضب من مآلِ الذّات العربيّة الفلسطينيّة.

خاتمة الفصل:

في نِهاية المطاف، نخْلصُ في هذا الفصل أنّ: البحث عن الذّات من بين المواضيع الهامّة الّتي تناولتها الرّواية العربيّة، فهي تعكِسُ صورة الذّات العربيّة المُتأزّمة، ومنه شكّلت الصّورة الجسديّة في رواية(أولاد الغيتو اسمي آدم) انعكاسا للذّات الإنسانيّة الجَريحة.

وهكذا، رَسمت الصّور النّفسيّة الموظّفة داخل رواية(اسمي آدم) واقِعًا مُعبِّرًا يعكِسُ مُعاناة الذّات العربيّة المسلوبة الرّسوخ كحال الشّعب الفلسطيني الأسير.

وبذلك، امتازت حقيقة مُعاناة الذّات العربيّة انطِلاقًا مِنْ معاناة الشّعب الفلسطيني أيّام النّكبة والطّرد والغيتو، حيث حَملت الرّواية محلّ الدّراسة صُورا اجتماعيّة تعكِسُ مظاهر التّكافل الاجتماعي على الرّغم من حجم الكارثة في فلسطين.

وعليه، عَكست رواية أولاد الغيتو صور الألم والنّكبة؛ لأنَّ حقيقة الآخر الإسرائيلي تعكِسُ تمَظْهُرات العُنف والاضطهاد.

ومنه، عَمد الرّوائي إلياس خوري مِيزة تعدّد أصوات الأنا عبر ضمائر السّرد داخل رواية(أولاد الغيتو اسمي آدم)، دلالة على حقيقة الأنا العربيّة الضّائعة.

[1] المصدر نفسه، ص:24-25.

الفصل الثّاني: البحث عن الذّات في رواية أولاد الغيتو اسمي آدم لإلياس خوري

وهكذا، لَخّصت صورة الذّات في رواية(أولاد الغيتو اسمي آدم)، الّتي باتت مَسْرحا شاهدا على حقيقة النّكبة والتّعرية الجِذريّة في فلسطين، وعلى ذلك نتساءل: أين تَكمُن تمظهُرات الهُويّة داخل رواية(أولاد الغيتو اسمي آدم) لإلياس خوري؟

الفصل الثّالث: الهويّة في رواية أولاد الغيتو

اسمي آدم لإلياس خوري

الفصل الثّالث: الهُويّة في رواية أولاد الغيتو اسمي آدم لإلياس خوري

تمهيد:

أوّلًا/ تشكّل الهُويّة في الرّواية:

1/ الهُويّة الفرديّة:

2/ الهُويّة الاجتماعيّة

3/ الهُويّة الوطنيّة

4/ الهُويّة الثّقافيّة

5/ الهُويّة الافتراضيّة

ثانِيًا/ بروز عناصر الهُويّة في الرّواية

1/ اللّغة العربيّة

2/ الدّين

3/ الوطن

4/ توظيف التّراث

ثالِثًا/ السّرد والهُويّة

خاتِمة الفصل

الفصل الثّالث: الهويّة في رواية أولاد الغيتو اسمي آدم لإلياس خوري

تمهيد:

سعت الرّواية إلى الاهتمام بقضايا الإنسان والمُجتمع، حتّى صارت مرآة عاكِسة لِهُموم النّاس وآمالهم وطموحاتهم، ومن بين القضايا الّتي عالجتها؛ قضيّة الهويّة، الّتي استقطبت اهتمام عديد المُفكّرين والمُبدِعين.

ومنه، تُعدّ الهُويّة إثْباتًا للحُضور الفردي والجماعي داخل حيّز جُغرافي يُدعى الوطن، بذلك تتجلّى حقيقة الانتماء للذّات والمكان.

من ذلك، يتمتّع الإنسان بحضوره مُعْتَرَفًا به من قِبل الدّولة المُنضَوي تحتها، وهذا ما يُجَنّبه السّقوط في متاهات البحث عن هُويّته.

وعليه، عُدّت الهُويّة قضيّة مثيرة للجدل حسب الرّاهن العربي، الّذي لا يخلو من الأزمات السّياسيّة وغيرها، وهذا ما يُصوّر حقيقة مُعاناة الإنسان العربي.

منْ ذلك، حملت رواية أولاد الغيتو اسمي آدم، قضيّة الهُويّة العربيّة الّتي مَثّل حُضورها هامشا للآخر المركزي، وهكذا ساهمت وبشكل لافت في سَرد الحقيقة الّتي تحياها الذّات العربيّة وسط أزمات الهُويّة.

أوّلا/ تشكّلات الهُويّة في الرّواية:

تُمثّل الهُويّة حُضور الشّخص مع ذاته وغيره ضِمن محيط ينتمي إليه، لكن في ظلّ الأزمات العالميّة أصبحت الهُويّة العربيّة تمثيلا للغياب والانكسار.

على ذلك، عُدّ الإنسان العربي مأزوما نظرا لما يعتري راهنه من صِراعات حضاريّة، أثّرت بالسّلب على حُضوره الّذي اقتصر على عكْسِ ملامح الشّتات.

منه، نجد أنّ الإنسان العربي تَمْثيل للهُويّة الضّائعة، مِنْ ذلك يرى علي حرب، أنّ: الشّأن البشري والكَوكبي في حاجة ماسّة إلى تدبّر إستراتيجي، يفتح له أبوابا فكريّة جديدة تُسْهم في إدارة الهُويّات وقضايا الدّول والعلاقات بين البشر[1].

[1] ينظر: علي حرب، تواطؤ الأضداد الآلهة الجُدد وخراب العالم، ص:14.

الفصل الثّالث: الهويّة في رواية أولاد الغيتو اسمي آدم لإلياس خوري

نفهم من ذلك؛ أنّ العالم يحتاج للسّير وفق إستراتيجيّة فِكريّة خاصّة، تسمح له بمُعالجة قضايا الرّاهن العالقة المُثيرة للجدل كأزمة الهُويّة وعلاقة الأنا بآخرها.

هذا بالتّحديد ما كشَفت عنه حقيقة الأنا العربيّة العارية الضّائعة، لذلك عَمَد الكاتب العربي إلى التّطرّق للمواضيع المثيرة للجدل العالمي كقضيّة الهُويّة، الّتي باتت حكاية العصر الرّاهن لِما حملته من دلالات وأبعاد الغياب.

تطرّق إلياس خوري من خلال رواية(أولاد الغيتو اسمي آدم) لقضيّة الهُويّة العربيّة الغائبة؛ بالأخصّ الهُويّة الفلسطينيّة ومُعاناة شعبها مع سياسة الإسرائيلي الظّالمة.

فالهُويّة؛ تعني شعور الفرد بانتمائه لذاته ولغيره ضمن نطاق معيّن، لذلك ربطها حسن حنفي بالحُريّة، يقول إنّ:" الهُويّة تعبير عن الحُريّة، الحريّة الذّاتيّة"[1]؛ والمعنى المُراد أنّ الهويّة شعور بالانتماء للذّات قبل كلّ شيء وإدراك للحقيقة؛ إذْ لا تتحقّق إلّا بالحُريّة ووعي الذّات لذاتها شرطًا أساسًا لحُضورها.

أمّا بالنّسبة لغياب الحريّة فيؤدّي لا مَحالة لضياع حقيقة الفرد كمُثْبت الحُضور، وعليه يشيد أمين معلوف، أنّ:" الهُويّة تتشكّل من انتماءات مُتعدّدة"[2].

مِنْ ثمّة، نجد أنّ الهُويّة تضافر لعدّة عناصر مُتلاحمة تسمح بتشكّلها، وهذا ما رَسَت عليه حقيقة الحُضور الفردي والجماعي.

بمُقابل ذلك، تتجلّى حقيقة الواقع القاسية ومدى تأثيرها على ترسيخ حُضور بعض الشّعوب، كصور للحقيقة المَهْدورة والهُويّة الضّائعة.

هذا ما، عكَسه الشّعب الفلسطيني المُشتّت الهُويّة، يقول في ذلك (آدم) مُحيلا لوحشيّة (العدوّ) مع الشّعب الفلسطيني، إنَّ:" الوَحشِيّة الكُبرى ليست تعبيرا دمويّا عن انفعال آنيٍّ، الوحشيّة هي تنظيم القتل والقمع بلا أيِّ انفعال، ووفقا لعقلانيّة باردة تسعى لتحقيق أهدافها"[3].

---

[1] حسن حنفي حسنين: الهُويّة(مفاهيم ثقافيّة)، ص:11.

[2] أمين معلوف: الهُويّات القاتلة، ص:27.

[3] إلياس خوري: أولاد الغيتو اسمي آدم، ص:215.

الفصل الثّالث: الهويّة في رواية أولاد الغيتو اسمي آدم لإلياس خوري

هي الوحشيّة الكُبرى في فلسطين كتمثيل يعكس مظاهر القمع والتّقتيل العشوائي، هذا ما شَمِلته سياسة الإسرائيلي اللّاعقلانيّة الأهداف.

وعليه، تتجلّى صور القمع من خلال مُجريات الرّاهن، وما يُعانيه الشّعب الفلسطيني من مأساة الهُويّة الضّائعة.

1/ الهُويّة الفرديّة:

إنّ نظرة الإنسان لذاته تُكسِبُه ثِقة عالية بالنّفس، وهذا دليل على حُضور الهُويّة الفرديّة، كما ينشأ عن فقدانها عديد المشاكل الذّاتيّة والجماعيّة، كأزمة الذّات وانكسار الهُويّة، هذا في الحقيقة واقع الإنسان العربي المأزوم.

من ذلك، ترى ماجدة حمّود، أنّ:" الهويّة ما يَصْمد من الإنسان عبر الزّمن؛ إذْ تُلازمه مكوّنة شخصيّته ومُحدّدة معالمه بشكل ثابت(...) لهذا تُعدّ شرطا مُلازما للفرد"[1]، نفهم من ذلك، أنّ الهُويّة الفرديّة ما تُبقي على حُضور الإنسان عبر الأزمنة المُختلفة، فهي مُلازمة له وإحدى مقوّمات بِنائه الشّخصيّة والجماعيّة.

هذا ما؛ يُفسّر تطرّق الكاتب العربي لقضايا راهِنه في مُحاولة جادّة منه للكشف عن الحقيقة المطموسة من قِبل الآخر، الّذي بات تهديدا مُستمرّا لحُضور الهُويّة الفرديّة العربيّة، لذلك وظّف إلياس خوري صورة الإنسان العربي المُشتّت الهُويّة من خلال روايته(أولاد الغيتو اسمي آدم).

فشخصيّة (آدم دنّون) كَشَفت عن الهُويّة الفرديّة الضّائعة تحت سَطْوة الآخر، وسياسات الإسرائيلي المطبّقة بفلسطين، يقول(مأمون) لآدم:" أنا الوحيد الّذي انْحفرت مأساة اللّدّ في أعْماقي، فالمذبحة الكبرى الّتي جَرت في اللّدّ في تمّوز 1948، كانت في حاجة إلى أعمى كي يراها، التّاريخ أعمى يا ناجي يا حبيبي، وهو في حاجة إلى أعمى مِثلي كيْ يراه، هلْ

[1] ماجدة حمّود: إشكاليّة الأنا والآخر(نماذج روائيّة عربيّة)، ص:15.

الفصل الثّالث: الهويّة في رواية أولاد الغيتو

اسمي آدم لإلياس خوري

فَهِمت الآن؟ أنا لمْ أترُكك؛ بل كان عليّ أنْ أمضي كيْ يَكْتمل عماء التّاريخ فينا نحن الثّلاثة أنا وأنتَ ومنال"[1].

تجلّت انعكاسات فُقدان الهُويّة على الإنسان الفلسطيني، في حقيقة ذلك النّاجي(آدم دنّون)، الّذي صار صورة تحكي مأساة شعب بأسره.

فمأساة اللّدّ خلَقت عند الإنسان الفلسطيني جَوّا يكسوه طابع الألم المُتواصِل، ما أثّر بالسّلب على الهُويّة الفرديّة الّتي صارت موضعا للشّكّ كحال بطل الرّواية(آدم)، وهُنا يكْمُن سرّ الأعمى والتّاريخ.

فتاريخ الهُويّة الفلسطينيّة ينقُصُه الحُضور، كالأعمى الّذي لا يُبْصِر الحقيقة ما دَلَّ على ضياع الهُويّة.

من هذا، تتجلّى حقيقة التّاريخ المَطموس والهُويّة الفرديّة المُنْكسرة، فالأعمى لا يُبصِر الحقيقة الواقِعيّة؛ بل يُحسّ ويعيش الوضع بحذافيره دون حاسّة الإبصار، الّتي صارت مفقودة كحال الهُويّة الفلسطينيّة.

ولذلك، عُدّ التّاريخ وحشا أعمى حسب رأي الإنسان المسلوب الهُويّة، يقول(آدم):" لستُ مؤرّخا ولا أدّعي ذلك مع احترامي وتقديري لأعمال المُؤرّخين، فأنا أشعُر أنّ التّاريخ وحشٌ أعمى"[2].

إذن؛ هو الواقع الّذي حَمَّلَ التّاريخ دلالات الإقصاء، وجعله شبيها بالوحش الأعمى الّذي يلتهم البشر دون أن يرى.

وهكذا، شبّه(آدم) التّاريخ الفلسطيني العاري من حقيقة، كحال الهُويّة الّتي اقْتَصر حُضورها على الغِياب.

ولذلك، صرّح أنّه ليس مؤرّخا ولا يكتُب تاريخا، فعادَة المُؤرّخين الزِّيادة على الحقيقة أو الإنقاص منها، وهنا تكْمُن المُفارقة بين الكاتب والمُؤرّخ.

---

[1] إلياس خوري: أولاد الغيتو اسمي آدم، ص:143

[2] المصدر نفسه، ص:293.

الفصل الثّالث: الهويّة في رواية أولاد الغيتو

اسمي آدم لإلياس خوري

لكنّه لا يَعيب المُؤرّخين ولا يتّهِمهم بالكذب؛ حيث اكتفَى بوصف التّاريخ بالوحش الأعمى الّذي لا يرحم أحدا كحال الهُويّة الفلسطينيّة المَمْحُوّة.

مِنْ دون شكّ، تتّضح ملامح الهُويّة الفلسطينيّة ضائعة بواسِطة أفرادها، انطلاقًا من ملامح الإنسان الفلسطيني وانعكاسات شعوره بالانتماء لوطنه ولذاته ما يَعكِس حُضور الهُويّة.

نقصد بذلك؛ الوصول لحقيقة الذّات والإحساس بوجودها، يقول(آدم):" لكن ما إنْ عثرتُ على مأمون، صديق طفولتي ومعلّمي الّذي خانني وأنا في السّابعة، ومضى إلى مصر كي ينهي تعليمه الجامعي، وتركَني وحيدا مع أمّي، حتّى أضعتُ كلّ شيء من جديد، وأحسستُ أنّ هذه الأنا الّتي عثرتُ عليها، كانت وهما، لأنّني لمْ أكن بالنّسبة إلى مأمون سوى حكاية تستحقُّ أن تجد من يكتبها"[1].

نفهم من ذلك؛ أنّ الهويّة الفرديّة تُؤدّي دورا هامّا في بناء ذات الإنسان، وبغيابها يفقد الإنسان حضوره ويشعر بالضّياع والانكسار.

هذا ما، عاناه (آدم دنّون) حينما عَثَر على (مأمون) والده الرّوحي، الّذي تركه بسنّ السّابعة ورحل لمواصلة تعليمه بمصر.

هي الخِيانة المُتكرّرة الّتي قادت (مأمون) لآدم، أو القدر الّذي جعل من (آدم) ضائعا دون هُويّة كحقيقة الأنا الشّبيهة بالوهم، فآدم لمْ يكُن سِوى حكاية تستحِقُّ أنْ تُكتب.

بناء على ذلك، يقول(آدم):" بدل أنْ أستمع إليه، سمعتُ صوت ذاكرتي، واكتشفت أنّ لا أحد يستطيع إيقاظ أصوات الّذين رحلوا سوى الشّعراء، ورأيتُ ذلك الطّفل الّذي كُنتُه في أحياء اللّد يعود إليَّ في غشاء من دموع تتجمّع في أطراف العينين، ولا تسقط"[2].

وهكذا، عادت الذّاكرة بآدم للخلف بالتّحديد لمدينة اللّد، حينما رأى صورته كطفل تَتْبَثِق من جديد بملامحها الشّاحِبة، كحقيقة الدّموع المُتجمّعة بأطراف العينين دون السُّقوط.

---

[1] إلياس خوري: رواية أولاد الغيتو اسمي آدم، ص:114.

[2] المصدر نفسه، ص:114.

الفصل الثّالث: الهويّة في رواية أولاد الغيتو

اسمي آدم لإلياس خوري

هي أبعاد الألم وحقيقة المُعاناة الفرديّة النّابعة عن فقدان الهُويّة الشّخصيّة، فلا يُمكن لِأحد إيقاظ أصوات الّذين غادروا سوى الشُّعراء.

من ذلك، ارتسمت ملامح الألم على وَجه (آدم) بعد عمليّة التّذكّر، فالماضي يبقى مرجِع الإنسان المُخَبّأ لحينه مهما تَغيّرت الأمكنة والأزمنة لا يزول.

لذلك، عُدّت الذّاكرة همزة الوصل بين الأزمنة المُختلفة، كلحظة لقاء آدم بمأمون وما لها منْ أبعاد انعكَسَت بالسّلب على نفسيّة (آدم).

يقول(آدم):" كُنتُ أُريد أنْ أُجاوبه بأنّ إسماعيل شمّوط الّذي رَسم أجساد الفلسطينيّات والفلسطينيّين المذهولة أمام رعب المذبحة والطّرد من اللّدّ هو الّذي رأى.. لكنّي لمْ أقُل، ففي ذلك اللّقاء الّذي ضَمّنا مع رجل آخر التَحق بنا في لوبي فندق واشنطن سكوير، في الحادية عشرة ليلا أُصِبْتُ بالعجز عن الكلام"[1].

وهكذا، أراد(آدم) إجابة (مأمون) المُشيد بحقيقة عمى التّاريخ، أنَّ الرّسّام إسماعيل شمّوط عَكس صور الفلسطينيّين المَذهولة أمام رعب الطّرد من اللّدّ والمذبحة، بهذا التّصريح تتجلّى حقيقة الملحمة التّاريخيّة الدّامية المُرتكبة في حقّ الشّعب الفلسطيني المُجرّد الثّبوتيّة.

لكنّ آدم، لمْ يقُل واكتفى بالصّمت؛ لأنّ لقاءه بذلك الرّجل الآخر أفقَدَهُ القُدرة على الكلام، فمأمون أتى بناجٍ آخر من مذبحة اللّدّ، وهُنا عرف (آدم) حقيقته لأنّه نَجَى من مأساة الشّتات الفلسطيني، يقول(آدم):" لنْ أتَحدّث عن هذا الرّجل الآن، أنا مُتأكّد من أنَّ مأمون استدعاه كيْ يَلُفّ حبل المرآة حول عُنُقي، ويُريني صورتي الأُخرى وقد تجسّدت في هذا الأستاذ الجامعي الّذي يُدرّسُ الفلسفة في جامعة بنسلفانيا، وقد قدّمه لي باسم الدّكتور ناجي الخطيب، روى مأمون عن هذا النّاجي الآخر الّذي التقطته أمّ حسن مرميّا تحت شجرة زيتون، ثمَّ أعادته إلى أُمّه في قرية قانا"[2].

[1] إلياس خوري: رواية أولاد الغيتو اسمي آدم، ص:143.

[2] إلياس خوري: رواية أولاد الغيتو اسمي آدم، ص:144.

الفصل الثّالث: الهويّة في رواية أولاد الغيتو

اسمي آدم لإلياس خوري

هنا، تَنْكَشِفُ حقيقة (آدم دنّون) ناجِيًا من مأساة اللّدّ، فمأمون أمّنَ طريقة لجمعه بناجي آخر من مجزرة فلسطين.

هي الحقيقة المُرّة الّتي كشفت عن مأساة الهُويّة الفرديّة الضّائعة، الشّبيهة بالحبل المَلفوف على الرّقبة.

خَلّفَت النّكبة الفلسطينيّة أطفالًا أيتامًا وآخرين تائهين، هي المجزرة والحقيقة القاتلة:" أنتما كمرآتين مُتقابلتين، يستطيع من يُريد أن يرى، أنْ يكتفي بكما كَيْ يقرأ النّكبة، قال مأمون"[1].

هي حقيقة النّكبة الّتي تجلّت في النّاجِيَيْنِ، صورة مرآويّة تنعكس من خلالها دلالات الألم والفقد.

لذلك، اعتبرَ (مأمون) كُلّا من (آدم) و(ناجي الخطيب) أنْموذجا كِتابيّا للنّكبة الفلسطينيّة، الّتي لا تُقرأ إلّا بالنّماذج الحقيقيّة.

في ذلك، يقول (آدم):" أُريد أنْ أَنْسى هذا النّاجي الآخر الآن، فأنا لا أُحبُّ هذا التّلاعب بالحياة، نحن لسنا أبطال روايات كَيْ يتِمّ التّلاعب بمصائرنا وحِكاياتنا بهذه الطّريقة، أنا لستُ بطلا وأكره الأبطال، أنا مُجرّد رجل حاول أنْ يعيش فاكتَشَف استحالة الحياة، أنا لا أقول إنّ الحياة بلا معنى؛ لأنَّ المعنى لا يعْنيني والبحثُ عنه يبدو لي مُمِلّا وتافها، أنا رجل عاش طوال حياته في المُؤجَّل والمُؤقَّت"[2].

هذا ما، حملته الصُّدفة لآدم انكسارًا بالهُويّة الفرديّة، فحقيقة اللّقاء بمأمون أَفْصَحت عن سِرٍّ ظلّ مخفيّا عليه أكثر من خمسين سنة، لذلك أراد نِسيان أمر النّاجي الآخر فهما ليسا بطَلَيْ روايات يتلاعب بمصيرهما؛ لأنّ حكايتهما تصوير للمُعاناة الفرديّة والجماعيّة.

يواصل(آدم) كلامه مُسْتذكرا كيفيّة العثور عليه، يقول:" شيء يُثير الأسى، ويأخذني إلى حافّة الميلودراما الّتي هربتُ منها، حين تعاليتُ على حكاية الطّفل المرمي فوق جثّة أمّه، المتروك لمصيره البائس، وقُلت إنّ هذه الحقيقة لن تُغيّر شيئا، فقد قرأتُ عشرات الحكايات

[1] المصدر نفسه، الصّفحة نفسها.

[2] المصدر نفسه، ص:144.

الفصل الثّالث: الهويّة في رواية أولاد الغيتو اسمي آدم لإلياس خوري

الّتي تُشبهها عن أطفال النّكبة، كما سبق لي أنْ قرأت حكاية الطّفل الّذي أطلقت عليه أمّ حسن اسم ناجي في رواية باب الشّمس، وسمعت قصّة الرّضيع الّذي تُرك للموت والدّود في أحد بيوت اللّد، الّتي كان سليم يرويها كلّما تحدّثت أمّي عن حنينها إلى أيام الغيتو"[1]، هكذا قادت الحقيقة إلى تذكّر النّكبة الفلسطينيّة، كحقيقة الأطفال المتروكين لقدرهم المجهول.

ومنه، نجد أنّ حقيقة إدراك الهُويّة الفرديّة يُكسِب الإنسان اعتزازا بنفسه؛ حيث يُقوّي هذا الشّعور حُضوره الفردي والجماعي، وما غيابها إلّا تصوير لحقيقة الانكسار والضّياع الذّاتي.

من هذا المنطلق، تعدُّ الحقيقة الفرديّة ضَرورة تُقاس بواسطتها سلامة الإنسان النّفسيّة، بعيدا عن مشاكل الهُويّة الّتي تعمل على هَدم الحُضور الفردي، كراهن الإنسان الفلسطيني المُشتّت الهُويّة.

2/ الهُويّة الاجتماعيّة:

تُعَدّ الهويّة الاجتماعيّة حضورا للفرد داخل الجماعة، كالانتماء للمجموعة في إطار مُحيط واحد شرط تمتُّع الإنسان بالحُريّة، الّتي تُفسح له مجال الشّعور بالمسؤوليّة اتّجاه ذاته وغيره، من هنا يكون الأمان الدّاخلي والخارجي في ظلّ التّكافل والتّآزر الاجتماعي، ومنه:" يُقابل الهُويّة الفرديّة؛ أيْ هُويّة الأنا الهويّة الاجتماعيّة النّفسيّة الّتي تشمل كلّ انتماءات الإنسان للجماعة، وهذه الهُويّة تتضمّن الكثير ممّا هو منسجم، ولكنّ الكثير أيضا ممّا هو متناقض ومتنافر، وكلّ بناء للهُويّة يعكسُ محيطا ثقافيّا واجتماعيّا وتاريخيّا لا يقارن بغيره"[2].

فالهُويّة الاجتماعيّة من جُملة التّيمات الّتي حملتها الرّواية العربيّة، انطلاقا من حقيقة الانتماء للجماعة في ظلّ الواقع المُتأزّم.

هذا ما، أوقع الإنسان العربي في متاهات الهُويّة والانتماء، يقول علي حرب:" باختصار نحن إزاء إرهاب مُركّب ومُضاعف"[3].

---

[1] إلياس خوري: رواية أولاد الغيتو اسمي آدم، ص:141.

[2] بيتر كوزن: البحث عن الهُويّة(الهُويّة وتشتّتها في حياة إيريك إيريكسون)، ص:10.

[3] علي حرب: العالم ومأزقه منطق الصّدام ولُغة التّداول، ص:24.

الفصل الثّالث: الهويّة في رواية أولاد الغيتو اسمي آدم لإلياس خوري

المُراد بذلك؛ أنّ الواقع يُعاني من تصادمات القِوى الّتي سرعان ما تحوّلت إلى مظاهِر عُنف، لكنّ حقيقة العُنف تبقى غامضة وقابلة للتّزايد من ناحية الحِدّة، على حِساب الشّعوب المُسْتَضْعفة كحال الرّاهن العربي.

وهكذا، أُعيق الرّاهن العربي من قِبل الآخر المُفتعِل للأزمات؛ حيث عمل على تغييب الهُويّة العربيّة بجعلها مُتَصدّعة يُعاني أفرادها من حالات الانكسار.

تأسيسا على ذلك، فالهُويّة مُرْتَكز لحُضور الإنسان مع ذاته وغيره؛ نقصد بذلك الانتماء للذّات والمُحيط الاجتماعي الّذي تُمثّله الفِئات الاجتماعيّة.

لكن في حال غياب الهُويّة الاجتماعيّة يقع الإنسان بمتاهات إثبات الهُويّة، هذا بالتّحديد ما عاناه الشّعب الفلسطيني الواقع تحت سُلْطة (الكيان الصّهيوني).

ومنه، حملت رواية(أولاد الغيتو اسمي آدم) أبعاد الهُويّة الاجتماعيّة، الّتي انعكست من خلال أفرادها الّذين صاروا أبطالا للنّكبة الفلسطينيّة.

وفي ذلك، يقول(آدم دنّون):" رَوَتْ منال أنّ بُكائي قطّع أوتار قلبها، وبدلا من أن تفعل شيئا بدأت دموعها تنهمر على خدّيها، فامتزجت دموعها بدموع طفلها الجائع(...) تقدّم أحد الجنود من منال وحاول أن ينتزع الطّفل من يديها، فركضت أمّ يحيى وأخذت الطّفل وبدأت تُهَدْهِدُهُ وأعطته ثديها رضع الطّفل وسكت، وبدأت الأصوات تخفت بكت منال وهي تشكر أمّ يحيى"[1].

حقيقة إنّ واقع الفلسطيني المُزري أوقع (منال) بمأزق مع الجُندي الصهيوني، الّذي رأى في بكاء آدم إزعاجا.

من ذلك، نَعِي أنّ هُويّة الفلسطيني صارت حِكرا على(العدوّ الصّهيوني)، الّذي جرّده كلّ شيء حتّى الصّوت، هذا ما لاحظناه من خلال فعل الجُندي مع منال وآدم، لولا تدخّل أم يحيى الّتي أنقذت الموقف بأخذِها لآدم وإرضاعه.

[1] إلياس خوري: أولاد الغيتو اسمي آدم، ص:202.

الفصل الثّالث: الهويّة في رواية أولاد الغيتو

اسمي آدم لإلياس خوري

نلمس نوعا من التّكافل الاجتماعي في ظِلّ الكارثة، الّتي راح ضحيّتها شعب بأسْره، يقول آدم:" كلّ حكايات اللّدّ الّتي سمعتها وجمعتها لها مرجع أساسي واحد هو منال، الّتي كانت حين تنهي رواية واحدة من حكايات أيّام الغيتو تِلك، تتنهّد وتقول: لازم ننسى، بس الأسى ما بينتسى"[1].

نفهم من ذلك؛ أنّ حقيقة الهُويّة الاجتماعيّة حقّ الفلسطيني المَهْدور؛ حيث سعى الإسرائيلي جاهدا لطمسها، لذلك كانت كلّ حكايات النّكبة واللّدّ روايات لا تُنسى.

على ذلك، تقول عهد كمال شلغين، أنّ:" من خلال وعي الهُويّة لابُدّ من وعي الانتماء؛ لأنّ وعي الهُويّة لا يتعيّن إلّا به، فالإنسان عندما يفقد شعوره بالانتماء يفقد شعوره بالهُويّة"[2]؛ إذن: يقود إدراك الهُويّة إلى وعي الانتماء، فالإنسان يفقد شعوره بالانتماء إنْ غابت هُويّته.

وهكذا، تمثّلت الهُويّة الاجتماعيّة حقيقةً مسلوبةً عند الإنسان الفلسطيني، الّذي جرّده الآخر حُضوره الانتمائي مُشَكّلا بذلك فراغا جِذريّا، وهُنا عُدّت الهُويّة بمثابة" الصّراع الّذي يتجلّى في جدل القيم الاجتماعيّة والثّقافيّة والتّاريخيّة/ الحضاريّة والدّينيّة؛ حيث يُحاول الآخر بسط بدائل أخرى لما هو مُتأصّل في الذّات الجمعيّة؛ ومن هنا ينشا ردّ فعل عكسي للذّات تُحاول من خلاله مُجابهة هذا الآخر"[3].

والمعنى؛ أنّه حينما يخلق الآخر نوعا من المشاكل كمحاولة تشتيت الهُويّة، ينشأ ردّ فعل عكسي من قِبل الذّات الّتي تسعى جاهدة للحِفاظ على مُقوّماتها.

لكن بمُجرّد التّصدّي للصّراع الحامل لأبعاد ثقافيّة /تاريخيّة وغيرها، تحدث أزمات وتختلّ الهُويّة الاجتماعيّة لدى شعب معيّن كواقع فلسطين وإسرائيل.

---

[1] المصدر نفسه، ص:207.

[2] عهد كمال شلغين: الهُويّة العربيّة صراع فكري وأزمة واقع (دراسة في الفكر العربي المعاصر)، منشورات الهيئة العامّة السّوريّة للكتاب، وزارة الثّقافة، دمشق، دط، 2015م. ص:30.

[3] عبد اللّه أو غرب: الذّات والآخر الغربي في روايتي"الغربة" و"اليتيم" لـ: عبد اللّه العروي، رسالة ماجيستير، جامعة أبو بكّر بلقايد، تلمسان– الجزائر، كليّة الآداب واللّغات، 2011م–2012م. ص:04.

الفصل الثّالث: الهويّة في رواية أولاد الغيتو اسمي آدم لإلياس خوري

هذا حال الشّعب الفلسطيني الفاقد لهُويّته الاجتماعيّة وانتمائه للوطن، من ذلك يواصل(آدم) سرد حكايته المُثقلة بآلام شعب ضاعت هُويّته، كحقيقة الكبش الّذي سيق للذّبح؛ حيث قال:" إنّها حكاية الخروف الّذي سيق إلى الذّبح ولمْ يفتح فمه.. هذه هي حكاية أولاد الغيتو"[1].

إذن؛ وكتفسير لما قاله (آدم)؛ نجد أنّ واقع الفلسطيني حقيقة غائبة كحكاية الخروف الّذي سِيق به للمذبح دون فتح فمه.

وبالتّالي؛ نلمس أبعاد فقدان الهويّة في فلسطين، ومدى تأثيرها على حياة الأفراد ضمن نطاق الغيتو.

هذا ما جرى مع سُكّان الغيتو لحظة مقتل(مُفيد شحادة)؛ حيث عملوا جاهدين على أخذ موافقة الضّابط الإسرائيلي بدفنه خارج الغيتو:" رجاه إيليا أن يسمح لهم بدفن الفتى في المقبرة، فقال القائد إنّ المسألة صعبة؛ لأنّ طُرقات المدينة ليست آمنة ومليئة بالجُثث، لكنّه في النّهاية وافق، سَمَح لخمسة من رجال بحمل الجُثّة إلى المقبرة؛ حيث سيُرافقهم ثلاثة جنود، وعليهم أنْ يُنهوا الأمر بسرعة[2].

نرى في طريقة ردّ الضّابط الإسرائيلي على (إيليا بطشون) نوعا من الإنسانيّة؛ بالخصوص حين سماعه للطّريقة الّتي مات بها الصّبي مُعلّقا على الأسلاك الشّائكة.

ومنه:" قال إيليا إنّ الضّابط تأثّر كثيرا عندما علم بأنّ جنوده كانوا السّبب في مقتل مفيد شحادة، وقال إنّها الحرب أنتَ تعرف ونحن لا خيار لنا سوى أنْ ننتصر"[3]، هكذا كان جواب الضّابط الإسرائيلي مُحدّدا بعبارة إنّها الحرب، كتَصريح واضح يعكس حقيقة الموضوع.

لذلك، عُدّت الهُويّة الفلسطينيّة العربيّة ضائعة عند (الصّهيوني)، كحقيقة الحرب الّتي لا تنتهي إلّا بالنّصر على حدّ تعبيرهم.

---

[1] إلياس خوري: أولاد الغيتو اسمي آدم، ص:411-412.

[2] إلياس خوري: رواية أولاد الغيتو اسمي آدم، ص:257.

[3] المصدر نفسه، الصّفحة نفسها.

الفصل الثّالث: الهويّة في رواية أولاد الغيتو

اسمي آدم لإلياس خوري

نُواصل، مع صورة تفصِح عن ملامح الهُويّة الاجتماعيّة، بالرّغم من غيابها إلّا أنّها ارْتَسَمت ملامحها من خلال موكب جنازة الصّبي (مفيد شحادة)؛ حيث:" قاد موكب الجنازة غسّان بطحيش، رَفعوا الفتى إلى الأعلى، داروا به في السّاحة ثمّ مضوا يُرافِقُهم الجنود، وسط صمت تخْترقه سوى خلود بِنحيبها"[1].

نرى، في صورة الجنازة حقيقة الإنسان الفلسطيني المُشتّت الهُويّة، بالرّغم من ذلك تجلّت أبعاد التّآزر والتّلاحم بين أفراد الشّعب الأسير.

في ذلك، يقول محمّد عابد الجابري:" ضِمن هذه الأحداث التّاريخيّة الكُبرى، ظَلّ السُّؤال التّالي يتردّد: منْ نكون؟ وماذا نُريد أنْ نكون؟ وبعبارة أخرى: ما هويّتنا؟"[2].

هي حقيقة الرّاهن الّذي بات مسرحا شاهدا لأحداث تاريخيّة كُبرى، كضياع الهُويّة الّتي أصبحت سؤالا مُحيّرا يشغل تفكير الإنسان العربي.

مِنْ ذلك، قادتنا حقيقة الهُويّة الفلسطينيّة إلى معنى وحيد، أنّ الهُويّة الاجتماعيّة موجودة والشّعب الفلسطيني موجود وفلسطين موجودة، لكنّ حُضور الإسرائيلي كان أكثر قُوّة من نظيره الفلسطيني، وبذلك تجلّى حضوره على حساب الحُضور الفلسطيني الّذي اتّسم بالغياب.

وهكذا، ارتسمت ملامح الهُويّة الاجتماعيّة الفلسطينيّة أيّام الغيتو، كحقيقة الحُضور والتّلاحم والمُشاركة بين الأفراد، بالرّغم من سياسات الاحتلال العامِلة على تهديم روح الجماعة عند الإنسان الفلسطيني، بدافع خلق فجوات بين أبناء الشّعب الواحد لضَرب الهُويّة العربيّة.

3/الهُويّة الوطنيّة:

تُعَدُّ الهُويّة الوطنيّة تمثيلا لحُضور الإنسان ضمن نطاق الدّولة، الّتي تُعطيه ميزة المُواطن المُتمتّع بجملة من الحقوق كحقّ الانتماء والأمان وغيرهما.

---

[1] المصدر نفسه، ص:257.

[2] محمّد عابد الجابري: إشكاليّات الفكر العربي المعاصر، ص:102.

الفصل الثّالث: الهويّة في رواية أولاد الغيتو

اسمي آدم لإلياس خوري

عُرِفت الهوية الوطنيّة أنّها قضيّة انتماء لمحيط دولة ما، ذات سيادة وطنيّة متحرّرة ومُعترف بها كدولة مستقلّة:" فالهُويّة إذا وَعْيُ الإنسان وإحساسه بذاته وانتمائه إلى جماعة بشريّة(...) في إطار الانتماء الإنساني العام"[1].

هو بالضّبط ما توصّل إليه عبد الحسين شعبان أنّ الهُويّة بصفة عامّة؛ تعني انتماء الفرد للجماعة البشريّة ضمن حدود جغرافيّة معيّنة، كما تدُلّ على وعي الإنسان الكامل بذاته وإحساسه بالانتماء للوطن والجماعة.

من هنا، تكون الهُويّة الوطنيّة أساسا للحُضور الفردي والجماعي ضمن حيّز الوطن؛ حيث يُصبح كلّ فرد مُنتمي للدّولة مواطنا مُعترفا بانتمائه، لذلك فإنّ:" الهويّة الجمعيّة(وطنيّة، أو قوميّة)؛ وهي تدلُّ على ميزات مُشتركة أساسيّة لمجموعة من البشر، تُميّزهم عن مجموعات أُخرى"[2]؛ إذن هي الهُويّة الجمعيّة هذا ما مثّلته حقيقة الانتماء للوطن، انطلاقا من مبدأ الاشتراك في مُحدّدات الانتماء لفئة معيّنة من البشر.

ومنه:" يعود جذر كلمة المواطنة إلى الوطن(...) الوطن هو المُتّحد الجغرافي الّذي تعيش فيه مجموعات بشريّة، قوميّة ودينيّة وسُلاليّة ولُغويّة مُتنوّعة ومُختلِفة؛ أي أنّ هُناك شعبا يسكن في أرض(...) ولديه سُلطة أي حُكومة ويَتَمتّع بالسّيادة"[3].

يعني ذلك؛ أنّ كلمة المُواطَنة تعود في أصلها لكلمة وطن، وعليه، عبّر عنْ ذلك المكان الجُغرافي الّذي تعيش فيه مجموعات بشريّة على اختِلافها؛ حيث تحكُمه سُلطة عليا تُدعى بالحُكومة وبها يتمتّع بالسّيادة والحُريّة.

---

[1] عبد الحسين شعبان: الهويّة والمواطنة البدائل الملتبسة والحداثة المُتَعَثّرة، مركز دراسات الوحدة العربيّة، بيروت، ط1، 2017م. ص:22.

[2] محمّد عطوان: صور الآخر في الفكر السّياسي العربي المعاصر(الإستشراق- العلمانيّة- الإيديولوجيا- الإستعمار)، دار الرّافدين للنّشر والتّوزيع، بيروت- لبنان، ط1، 2017م. ص:85.

[3] عبد الحسين شعبان: الهويّة والمواطنة البدائل الملتبسة والحداثة المُتَعَثّرة، ص:29.

الفصل الثّالث: الهويّة في رواية أولاد الغيتو اسمي آدم لإلياس خوري

عن الانتماء للوطن يقول (آدم دنّون):" وأعترف وأنا ابن المدينة الذّبيح، أنّني لمْ أكتشف حقيقة هذه النّكبة المستمرّة إلّا عندما صار في إمكاني أنْ أحكي"[1]؛ هو الاعتراف بالانتماء للوطن، على الرّغم من ضياع الهُويّة الوطنيّة للشّعب الفلسطيني.

فآدم انعكاس للنّكبة الفلسطينيّة، لذلك أطلق على نفسه لقب (ابن المدينة الذّبيح) كتعبير يُحيل لحجم المُعاناة.

يلي ذلك، اعتراف (آدم) الصّريح بهُويّته الوطنيّة، يقول:" آدم، أَيْ أنا، يتكلّم هُنا بصفته فلسطينيّا"[2]؛ وهنا تتجلّى حقيقة الانتماء للوطن والهُويّة الوطنيّة الفلسطينيّة، فآدم تكلّم بصفته مواطنا فلسطينيّا.

على الرّغم من الاعتراف بالانتماء للوطن فلسطين، إلّا أنّ حقيقة الاعتراف يُمكن أنْ تكون سببا رئيسا لمُعاناة الإنسان كمُنتمي لهُويّة وطنيّة معيّنة، ومنه كانت:" الاعترافات أزمة عمر"[3].

المُراد بذلك، أنّ مسألة الاعتراف بالحقيقة أمر في غاية الخُطورة على الإنسان؛ بالخصوص حينما يتعلّق الأمر بمسألة مرتبطة بهويّة إنسان.

دون شكّ، نستطيع اعتبار قضيّة الهُويّة الوطنيّة بالنّسبة للفرد الفلسطيني أزمة للعُمر، كحال (آدم دنّون) الّذي قاده اعترافه بوطنيّته الفلسطينيّة لنهايته كإنسان دون هُويّة برَغم انتمائه للوطن.

هذا ما دفعت إليه الوطنيّة الفلسطينيّة الضّائعة كحقيقة المواطن دون هُويّة، ولكي نُثْبِتَ ما قُلناه لجأنا لتصريح عبد الحسين شعبان، القائل:" لعلّ المَثل الأكثر سُفورا في الوطن

---

[1] إلياس خوري: أولاد الغيتو اسمي آدم، ص:311.

[2] المصدر نفسه، ص:289.

[3] جان جاك روسو: الاعترافات، ترجمة: خليل رامز سركيس، مركز دراسات الوحدة العربيّة، بيروت– لبنان، ط1، 2012م. ص:19.

الفصل الثّالث: الهويّة في رواية أولاد الغيتو اسمي آدم لإلياس خوري

العربي، هو تهجير الفلسطينيّين منذ عام 1948 وإسقاط حقّهم في وطنهم؛ وبالتّالي جعلهم عُرضة لحالات انعدام الجِنسيّة"[1].

حينما يُسْقَطُ حقّ الهُويّة عن المواطِنين، فاعلم أنّ الإنسان سيتعرّض لا محالة لانعدام الجِنسيّة والانتماء، كحال الشّعب الفلسطيني عام1948م وما عَقِبه من عمليّات تهجير للسّكّان، وهذا من أكثر الأمور الّتي هزّت الهُويّة الوطنيّة العربيّة.

وهكذا، وصف (مراد) المجزرة والنّكبة الفلسطينيّة؛ حيث قال:" عن النّار وإحراق الجثث(...) إنّها اللّحظة الّتي لا يُريد أنْ يتذكّرها، ولا يريد أنْ يرويها لأحد"[2].

هي النّكبة الفلسطينيّة والهُويّة الوطنيّة الّتي باتت تَروي مُعاناة شعبها، هكذا وصف (مراد) عمليّة حرق الجُثث المُتعفّنة بشوارع اللّد وضواحيها، فعندما تُصبح حقيقة الانتماء الوطني أرقا يُثير نفسيّة الإنسان ويؤثّر عليه بالسّلب، يُصبِح الإنسان مُنكسرا يُعاني مشاكل نفسيّة.

كل ذلك، يُحيل لقضيّة الضّياع الوطني الّذي أصبح مراد يتحاشى ذِكراه، لِما شاهده من صُور مؤلمة أثناء عمليّة التقاط الجُثث المُعَفّنة وحرقها.

هذا هو راهن فلسطين بعد النّكبة، وما طالها من تغييرات أجبرت الفرد الفلسطيني الرّضوخ لسياسة (المُحتلّ الصّهيوني) بالتّنازل عن أرضه وهُويّته الوطنيّة.

من ذلك، يُضيف(آدم دنّون) عاكسا حالة (مُراد) لحظة سرده لمُجريات الحِكاية، يقول:" اختنق الرّجل بكلماته وهو يروي، كان يتصارع مع المعاني، كي يقول حكايته مع النّار الّتي أحرقت آخر الجُثث والبقايا، ينطق كمن فقد القدرة على النّطق، ويبكي كمن فقد الدّموع"[3].

هي شدّة الألم النّابعة من حقيقة المُعاناة، هكذا كان يروي مُراد قِصّته مع النّار والجُثث، حيث تكلّم كمن فَقد القُدرة على الكلام.

هذا ما؛ يُفسّر تصارع الألفاظ والمعاني الّتي اختلطت ببعضها، لحظة سرد قصّة لمّ الجُثث وحرقها.

---

[1] عبد الحسين شعبان: الهويّة والمواطنة البدائل الملتبسة والحداثة المُتَعَثّرة، ص:40.

[2] إلياس خوري: أولاد الغيتو اسمي آدم، ص:397.

[3] إلياس خوري: رواية أولاد الغيتو اسمي آدم، ص:198.

الفصل الثّالث: الهويّة في رواية أولاد الغيتو

اسمي آدم لإلياس خوري

هي الهُويّة الوطنيّة الضّائعة، يقول (آدم) مُواصلا وصفه لحالة مُراد:" أردتُ أنْ أُقاطعه لأقول إنّ هذا يعني أنّ الاسم في نهاية المطاف هو مقبرة حامله، وعندما يُنسى الاسم، يختفي الحامل ويندثر الشّخص معه، لكنّني لمْ أقُلْ شيئا، أحسستُ أنّ تحويل أسمائنا إلى مقابرنا هو قِمّة الفظاعة"[1].

وهكذا، حوّل (الصّهيوني) الشّعب الفلسطيني إلى شعب دون هُويّة وطنيّة، شبيها بالمقبرة الجماعيّة الّتي جعلت من أسماء الأفراد الفلسطينيّين نهاية لحامِليها، فعندما يختفي حامل الاسم يندثر الشّخص مع اسمه ويزول، وهذا ما يُفسّر موضوع النّسيان عند الإنسان الفلسطيني كضائع للهُويّة.

من ذلك، يقول حليم بركات نقلا لحقيقة الهُويّة العربيّة المُشتّتة:" لا يقتصر التّفكّك على العلاقات بين الأقطار العربيّة فيما بينها؛ بل هو يسود داخل البلد الواحد في الوطن العربي، فتغلب النّزاعات الفِئويّة على حساب الإنسان والمجتمع، هذا ما يُفسّر كيف أنّ الجماعات التّقليديّة الوسيطة بين الفرد والمجتمع أو المواطن والدّولة(القبيلة، الطّائفة، الفئة، الجماعة)، لا تزال تزدهر في ظلّ الدّولة التّعسّفيّة على حساب الأمّة والإنسان معا"[2].

بهذا، تتّضح ملامح التّفكّك بين أبناء الهُويّة الواحدة داخل الوطن العربي، ما يفسّر بُعد المواطن عن ارتباطاته بالمُجتمع والدولة المُنتمي إليهما.

كلّ ذلك، بسبب المشاكل الفئويّة والنّزاعات الدّاخليّة، ما جعل الإنسان بعيدا كلّ البُعد عن ارتباطه كمواطن بوطنه.

على هذا المنوال، يُواصل (مراد) سرده لأحداث النّكبة الفلسطينيّة:" تفو علينا كيف صرنا، قال مراد. هل تصدّق؟ عليك أن تصدّق، لأنّني صدّقت، وهذا ما يحيّرني، كيف صرنا النّاهب والمنهوب، الحرامي والضّحيّة، شيء عجيب! هل جرّبت ذلك؟ لا أحد اختبر لحظة نشوة الضّحيّة وهي تجلد نفسها سوانا، ولا أحد يستطيع أنْ يفهم هذه المشاعر، حتّى أنا

[1] المصدر نفسه، ص:198.

[2] حليم بركات: الاغتراب في الثّقافة العربيّة متاهات الإنسان بين الحلم والواقع، ص: 08.

الفصل الثّالث: الهويّة في رواية أولاد الغيتو اسمي آدم لإلياس خوري

الّذي أرويها لكم لا أفهمها"[1]، هكذا تشكّلت حقيقة الفلسطيني المُشتّت الهُويّة داخل أرضه، الّتي جعلته ضحيّة بعد أنْ كان سيّدا.

فسُرعان ما تحوّل من الضّحيّة إلى النّاهب، الّذي يسرق نفسه بأمر من الإسرائيلي، هذا ما دفع (مراد) للحسرة على راهن الفلسطيني العربي، فكلمة (تفو علينا) خير دليل على الشّعور بالخِزي من مآل الفلسطيني.

هذا ما، أراده الإسرائيلي فلسطين:" قال الشّابّ الّذي نسينا اسمه إنّهم بعدما انتهوا من المحالِّ التّجاريّة، بدأت المهمّة الأصعب(...) هي تفريغ البيوت من أثاثها بشكل كامل، قال لنا الضّابط الإسرائيلي إنّه يُريد كلّ شيء من داخل البيوت"[2]، هو إذن (العدوّ) الّذي يُريد كلّ شيء حتّى أثاث البيوت لمْ يسلم.

يُعيننا هنا، الإشارة لرأي إدوارد سعيد الّذي يعكس حقيقة (الصّهيوني) في فلسطين، عليه:" فإنّ غرض سعيد، هو التّأكيد على أنّ الوجود المستمرّ لفلسطين وواقع الشّعب الفلسطيني معرّفان، إنّه بإيجاز، يضع القضيّة هكذا؛ بأيّة سُلطة أخلاقيّة يُحتّم على الفلسطينيّين أن يزيحوا جنبا لمطالبهم بوجودهم الوطني وأرضهم وحقوقهم الإنسانيّة"[3].

فعندما تسقط الدّولة بأيادي (المُحتلّ) لا يحقّ لمواطنيها المُطالبة بحقوقهم الوطنيّة؛ بل وَجَب عليهم الإزاحة لجنب كَيْ لا يُزعجوا المُستعمِر، الّذي أصبح مالك الأرض وكلّ شيء.

هذا ما، حتّمته السّلطة(الصّهيونيّة) على المواطن الفلسطيني، الإزاحة إلى جنب وعدم المُطالبة بهُويّتهم الوطنيّة.

تأسيسا على ذلك؛ فإنّ: حقيقة الانتماء للوطن تغيب لحظة ضياع الهُويّة، في ذلك يقول(آدم):" كما ترون فأنا أيضا، على الرّغم من كلامي القاسي، ضحيّة تقديس الماضي، ولو بشكل موارب ولا واعٍ، وهنا تكمن المشكلة، قالت لي دالية: عنْ ما أُسمّيه مشكلة العرب

[1] إلياس خوري: أولاد الغيتو اسمي آدم، ص:399.

[2] إلياس خوري: رواية أولاد الغيتو اسمي آدم، ص:399.

[3] بيل أشكروفت وبال أهلوايا: مفارقة الهُويّة، ص:167.

الفصل الثّالث: الهويّة في رواية أولاد الغيتو اسمي آدم لإلياس خوري

هو أيضا مشكلة اليهود، الّذين نجحوا في بعث دولتهم من ركام أساطيرهم، ودالية معها حقّ كالعادة، لكن من قال إنّ النّموذج الإسرائيلي الّذي يحمل بذور فنائه في داخله، يجب أنْ يتكرّر؟ ولماذا على العرب، وخصوصا الفلسطينيّين أنْ يتعلّقوا بحبال ماض مضى ولن يعود؟، قُلتُ لدالية: إنّ مُشكلتنا الكبرى هي خوفنا من نقد الماضي، لأنّنا إذا خسرنا وهمَ الانتماء فقدنا كلّ شيء"[1].

لذلك، فإنّ عمليّة تقديس الماضي لمْ تأتِ عبثا؛ حيث جاءت وفقا للخلفيّات الماضية الّتي ينطلق منها الإنسان.

وهكذا، كان كلام (آدم) كإنسان عربي يُعاني ضياع هُويّته، ما دفعه للعودة للماضي من أجل إثبات انتمائه، وهنا يشترك الإنسان العربي واليهودي من ناحية تصديقهم للأساطير الّتي تمنحهم انتماءهم الحقيقي للوطن.

من ذلك، تتّضح حقيقة الهُويّة الوطنيّة الضّائعة في فلسطين، الّتي بات شعبها مُشتّتَ الانتماء الوطني.

4/ الهُويّة الثّقافيّة:

تُعَدُّ الهويّة الثّقافيّة لَبِنة أولى في بناء الأمم والحضارات، ومقوّما رئيسا يُحَدَّدُ به الانتماء الجماعي للبشر ضمن حدود وطن.

هذا ما؛ يُفسّر استمراريّة الأمم والحضارات عبر الأزمنة، انطلاقا من ثقافتها الّتي تُبرِزها وتُبقي عليها، في ذلك يقول فؤاد زكريّا:" الثّقافة(...) ذلك الكلّ المُعقّد الّذي يشمل المعرفة، والاعتقاد والفنّ والقانون والأخلاق والعُرف وأيّة قدرات وعادات أخرى يكتسبها الإنسان بوصفه فردا في المجتمع"[2].

---

[1] إلياس خوري: أولاد الغيتو اسمي آدم، ص:288.

[2] فؤاد زكريا: خطاب إلى العقل العربي، ص:16-17.

الفصل الثّالث: الهويّة في رواية أولاد الغيتو

اسمي آدم لإلياس خوري

نفهم من ذلك؛ أنّ الثّقافة كُلٌّ معرفي شامل؛ حيث تدلّ على كلّ ما يتعلّق بالهويّة الجماعيّة لشعب معيّن، كالمعتقدات والأعراف والفنون بأنواعها وغيرها من العادات الّتي يكتسبها الإنسان كفرد بالمجتمع.

وفي الآونة الأخيرة أصبحت الثّقافة تُعاني المشاكل بسبب الهُويّة العربيّة الضّائعة، بناء على ذلك يقول فؤاد زكريّا، إنّ:" في وطننا العربي إحساس بأنّ الثّقافة في أزمة(...) لأنّ لأزمة الثّقافة أبعادا أساسيّة مُتعلّقة بطرق تفكيرنا التّقليديّة، ووضع المُثقّف في المُجتمع"[1].

أصبح وطننا العربي يُعاني أزمة ثقافيّة، بسبب الوضع الثّقافي المتأرجح بين طرق تفكيرنا التّقليديّة ودور المثقّف داخل المجتمع الّذي ينتمي إليه.

من ذلك، نلفت الانتباه لما عاناه إدوارد سعيد كمثقّف فلسطيني الأصل، الّذي دَفَعَ" ثمنًا باهظا بسبب مكانه البارز في مشهد القضيّة الفلسطينيّة، فَوُصِم بأنّه بروفيسور الإرهاب، ودعته قائمة الدّفاع اليهوديّة بالنّازي، وتمّ إحراق مكتبه في كولومبيا وتلقّى هو وأفراد عائلته تهديدات بالموت لا حصر لها"[2].

هذا ما عاشه المُثقّف العربي داخل الرّاهن الّذي يُعاني سيطرة القوى الاستعماريّة، كحال إدوارد سعيد وغيره من المُثقّفين الّذين تعرّضوا للظّلم من قِبل المحتلّ.

هذا ما دلّت عليه الهُويّة الثّقافيّة الضّائعة كواقع الفلسطيني الّذي أصبح دون هُويّة، وعليه فإنّ:" كلّ بناء للهُويّة يعكس محيطا ثقافيّا اجتماعيّا وتاريخيّا ليس كمثله شيء"[3]؛ إذن هي الهويّة الثّقافيّة الّتي تأتي نتيجة لحمولات اجتماعيّة وتاريخيّة؛ إذْ تعني البناء الحضاري

---

[1] فؤاد زكريا: خطاب إلى العقل العربي، ص:16.

[2] إدوارد سعيد: الثّقافة والمقاومة، ترجمة: علاء الدّين أبو زينة، دار الآداب للنّشر والتّوزيع، بيروت– لبنان، ط1، 2006م. ص:14.

[3] بيتر كوزين: البحث عن الهُويّة(الهويّة وتشتّتها في حياة إيريك إيريكسون وأعماله)، ص:112.

الفصل الثّالث: الهويّة في رواية أولاد الغيتو اسمي آدم لإلياس خوري

للأمّة؛ حيث يكون لكلّ أمّة ثقافة خاصّة بها تعكسها مع غيرها من الأمم والحضارات الأخرى.

يُضيف حليم بركات متحدّثا عن معاناة الإنسان العربي مع ذاته وتراثه الثّقافي وهُويّته، يقول إنّ:" العربي يُعاني في علاقته بنفسه وتُراثه وهُويّته"[1]؛ نفهم من هذا أنّ الإنسان العربي يُعاني ضياع الهُويّة، الّتي جعلته مُضطرب العلاقات مع ذاته وغيره.

كلّ هذا يُفصح عن أزمات الرّاهن وما تُعانيه الهُويّة العربيّة في ظلّ الصّراع العالمي، ما جعل الإنسان العربي مُشتّت الهُويّة، من هنا كانت علاقته بتُراثه وهُويّته غير ثابتة.

دون شكّ، فالإنسان العربي مشتّت الهُويّة والتّاريخ والانتماء؛ حيث يتبيّن لنا أنّ: الثّقافة العربيّة الفلسطينيّة ضائعة كالهُويّة، على ذلك يقول (آدم دنّون) مبرزا ما جاءت به الهُويّة الثّقافيّة العبريّة:" أعلن يزهار أنّ على الشّعب اليهودي أنْ يصنع يهوده الّذين يُشبهون صورته، الّتي قرّر التّخلّص منها كي يدخل في دائرة الشّعوب المتحضّرة، هذه هي عبقريّة يزهار، المسألة ليست تطهّرا أرسطيّا كما كتب البعض، المسألة تقع في مكان آخر، كان لابُدّ من هذا المشهد التّوراتي الّذي يتلاشى في ضباب التّاريخ، كي يبدأ الزّمن الإسرائيلي الجديد"[2].

على هذا الأساس، تتّضح ملامح التّشتّت الإبداعي الفلسطيني الّذي أصبح ضائعا كالهُويّة الفلسطينيّة العربيّة، الّتي استُبدلت بالأدب العِبراني الإسرائيلي.

وهكذا، تتجلّى الهُويّة الثّقافيّة الفلسطينيّة الضّائعة كحال الفلسطيني، ما دفع بالكاتب اليهودي يزهار للتّساؤل الآتي:" هل على الفلسطينيّين أنْ يجدوا نبيّا للمراثي والهزائم؟"[3].

---

[1] حليم بركات: الاغتراب في الثّقافة العربيّة متاهات الإنسان بين الحلم والواقع، ص: 09.

[2] إلياس خوري: أولاد الغيتو اسمي آدم، ص:260.

[3] المصدر نفسه، ص:260.

الفصل الثّالث: الهويّة في رواية أولاد الغيتو

اسمي آدم لإلياس خوري

والمعنى؛ أنّ الشّعب الفلسطيني صار دون هُويّة مهزوما، كانعكاس للنّكبة والطّرد والوضع داخل الغيتو المُسيّج.

فعندما يُصبح الآخر عدُوّا لنا نعجز ونترك كلّ ما يُحيل إلينا من هُويّة وتاريخ وثقافة، بدافع الخوف من خطره علينا كحال الوضع الفلسطيني الرّاهن، ومنه يقول محمّد ناجي أحمد، إنّ:" مُبرّرات الخوف من استهداف الآخر لهُويّاتنا الثّقافيّة والجغرافيّة غافلين أنّ هُويّاتنا الثّقافيّة تحتفي بالمستبدّ"[1].

هو الخوف من الآخر الّذي أصبح مُهدّدا لهُويّتنا الثّقافيّة والجُغرافيّة، كواقع الإنسان الفلسطيني والمحتلّ الّذي سعى جاهدا لتشتيت الهُويّة الفلسطينيّة.

لكنّنا صِرنا غافلين عن مسألة الآخر ودوره الرّئيس في تشبّث أبناء الشّعب بهُويّتهم الثّقافيّة، بدليل الاحتفاء بالمُستبدّ كمُحفّز للتّمسّك بملامح الهُويّة.

عن الهُويّة الثّقافيّة يقول علي حرب:" أرى أنَّ الثّقافة تتجلّى في النّهاية في النّصوص والخطابات، أو في المؤسّسات والمشروعات، أو في التّصرّفات والمُمارسات، فإذا كان المقصود بها النّصوص فلا خِشية عليها من شيء؛ إذْ هي روائع وآثار باقية، لا أحد سيقضي عليها"[2].

نفهم من ذلك؛ أنّ الهُويّة الثّقافيّة تتجلّى من خلال النّصوص الإبداعيّة، الّتي تُفصح عن الهُويّة الفرديّة والجماعيّة، وهذا ما أكسبها ميزة البقاء.

يقول آدم عن كاتب الرّواية الإسرائيليّة(خربة خزعة)، الّتي تعكس حالة الشّعب الفلسطيني المهزوم:" المسألة الّتي لَفَتَتْنِيْ في هذه الرّواية ليس اعترافها بالجريمة، على ما في ذلك من أهميّة، ولكن في قدرتها على صنع ترسيمة الفلسطيني الأخرس، الّتي ستُصبح إحدى ثوابت

[1] محمّد ناجي أحمد: الهُويّات الطّاردة (قراءات نقديّة للهُويّات المُتخيّلة)، دار الكتب، دب، ط1، 2010م. ص:16.

[2] علي حرب: حديث النّهايات فتوحات العولمة ومآزق الهُويّة، ص:50.

الفصل الثّالث: الهويّة في رواية أولاد الغيتو اسمي آدم لإلياس خوري

الأدب الإسرائيلي، وفي قُدرتها على استنباط المعنى العميق لإنشاء الدّولة الصّهيونيّة، فمن أجل أنْ يُصبح اليهود شعبا كباقي الشّعوب، وباقي الشّعوب تُحيل هنا إلى الشّعوب الأوروبيّة، كان لِزاما عليهم أنْ يخترعوا يهودهم"[1].

من أجل ذلك، سعى الكاتب الإسرائيلي لرسم أبعاد الفلسطيني العاجز، إحالة للهُويّة العربيّة الضّائعة فكاتب الرّواية الإسرائيلي لمْ يعْترف بالجريمة اليهوديّة؛ بل عمل على رسم الإنسان الفلسطيني الأخرس.

مِنْ ذلك، شكّلت صورة الفلسطيني العاجز أدب الإسرائيلي، فهي كفيلة بعكس قوّة المحتلّ الإسرائيلي الّذي لا يعرِف الهزيمة.

هذا في الحقيقة، دليل على غلبة الهويّة الصّهيونيّة بثقافتها اليهوديّة، على حِساب الهُويّة الفلسطينيّة العربيّة الّتي أصبحت مُشتّتة كحقيقة النّكبة.

وهكذا، عُدّ الخطاب الأدبي تمثيلا للهُويّة الثّقافيّة الواقعة تحت ضغوطات الواقع، في ذلك تقول يُمنى العيد، إنّ:" الدّمار العامّ والشّامل وضع الشّخصيّة الرّوائيّة أمام البحث عن ذاتها، وفي هذا البحث عن الذّات بدت معاني الوطن والهُويّة والانتماء مُرتهنة بمبدأ وُجود الأنا من حيث علاقته بذاته"[2].

لذلك، فإنّ هذه الأحوال العالميّة تعكس صُور الدّمار والعنف؛ حيث قامت بوضع الشّخصيّة الرّوائيّة العربيّة في حالة بحث مستمرّ عن الهُويّة.

---

[1] إلياس خوري: أولاد الغيتو اسمي آدم، ص:260.

[2] يمنى العيد: الرّواية العربيّة(المُتخيّل وبنيته الفنيّة)، ص:40.

الفصل الثّالث: الهويّة في رواية أولاد الغيتو اسمي آدم لإلياس خوري

وعليه، يقول آدم:" يزهار أعلننا يهودا ليهود إسرائيل، وهذه كانت رسالة روايته، أمّا أنا، فماذا أريد أن أقول من كلّ هذه الحكاية؟ هل أرثي شعبي كما رثى إرميا شعبه؟ هل كلّ كتابة فلسطينيّة عن النّكبة هي تنويع على المراثي الّتي صاغها نبيّ الهزيمة؟ أم ماذا؟"[1].

بهذا تتجلّى، حقيقة الإسرائيلي المُغتصب للأرض والهُويّة الفلسطينيّة، فالكاتب الرّوائي اليهودي أعلن شعب فلسطين يهودا ليهود إسرائيل كدليل يُثبِت الهُويّة العربيّة الضّائعة، لذلك يرثي (آدم دنّون) الواقع الفلسطيني المزري جرّاء النّكبة.

يقول(آدم دنّون) ككاتب فلسطيني مُشتّت الهويّة:" أشعُر أنّني أكتب بلغة قديمة تموت تحت قلمي، كلّ هذه الإحالات الأسطوريّة تُثير في نفسي شُعورا بالتّقزّز، الأكثر بشاعة من موت اللّغة هو أنّنا لا نجد لها قبرا تستريح فيه كي تتحلّل وتعود إلى ترابها، اللّغة ليست مصنوعة من التّراب، إنّها عكس كلّ الكائنات الّتي تموت، مشكلة اللّغة هي جُثّتها؛ لأنّها تبقى معنا، نرفضها فتعود بأشكال مختلفة، ونجد أنفسنا نمضغ موتها في أفواهنا"[2].

وهكذا، تموت اللّغة حينما تُصبح قديمة وعاجزة عن إيصال المعنى، هذا ما قاله آدم دنّون كفلسطيني ضائع الهُويّة.

لأنّ اللّغة العربيّة ماتت كفلسطين بالرّغم من ذلك ظلّت معنا دون قبر، فجُثّتها مُختلفة عن الجُثث الآدميّة ميتة لكنّها موجودة بأفواهنا نمضغُها ونتلذّذ بطعم موتها فينا.

نفهم من ذلك؛ أنّ الكاتب الفلسطيني يُعاني عجزا لُغويّا؛ حيث قام بربط اللّغة والكتابة بالهُويّة الثّقافيّة، الّتي ضاعت بفعل المشاكل والاحتلال.

ومنه، يأتي رأي(آدم) توضيحًا لقضيّة الهُويّة الفلسطينيّة الضّائعة، يقول:" لكن، مهلا، فالكاتب الإسرائيلي صنع ترْسيمة الفلسطينيِّ الأخرس، خرس الفلسطيني هو شرط ما يُمكن

[1] إلياس خوري: أولاد الغيتو اسمي آدم، ص:261.

[2] المصدر نفسه، ص:261.

الفصل الثّالث: الهويّة في رواية أولاد الغيتو

اسمي آدم لإلياس خوري

أنْ نُطلق عليه اسم يقظة ضميريّة إسرائيليّة؛ أيْ أنّ المعاناة في الجوهر هي معاناة الوعي اليهودي ولا علاقة لها بالضّحيّة، هكذا، يأخُذنا هذا الأدب إلى معادلة الجلّاد الّذي يمتلك وعي الضّحيّة الّتي استولتْ على ممارسات الجلّاد!"[1].

عندما يفقد الإنسان هُويّته يُصبح ضائعا هذا ما رسمه الكاتب الإسرائيلي، فلسطيني أخرس دون انتماء كحقيقة النّكبة الفلسطينيّة طرد وتقتيل من قِبل الإسرائيلي الجلّاد.

هي حقيقة الأدب الإسرائيلي الّذي ينطلق من مُعادلة وعي الضّحيّة مُسْتحوذة على مُمارسات الجلّاد، لكنّ حقيقة الوعي تعكس مُعاناة جماعيّة لشعب سيق للمجهول.

هذا ما قاله آدم:" كُنت أريد أنْ أكتُب عن هذا اللّيل الطّويل الّذي حاصر أهل اللّدّ في الغيتو، فإذا بالحكاية تقودني إلى حيث لا أدري، أنا لا أريد أن أتبنّى افتراض الكاتب الإسرائيلي، وأُدخل الحِكاية في المراثي التّوراتيّة، وأصبغ مأساة النّاس الّذين عشت بينهم بنكهة الأساطير، كي أُبرّر هزيمتهم وذلّهم وعارهم، الأساطير ليست بديلا من التّاريخ، ولنْ أسقط في مصيدة الافتراض أنّ معجزة الدّولة العبريّة هي قدرتها على تحويل الأسطورة إلى تاريخ، وأنّ علينا نحن أن نتبنّى أسطورتهم، أو أن نجد أسطورة خاصّة نلتجئ إليها، لغة العودة غلى الأساطير ماتت، وهي جزء من موت اللّغة، الّذي يُحوّل الكلمات من نقاط ضوء واستدلال في الصّفحة البيضاء إلى كلمات عمياء تشبه نجوم ليل اللّد المُطفأة"[2].

هذه حقيقة النّكبة الفلسطينيّة ومدى تأثيرها على المُثقّف الفلسطيني، الّذي يُعاني ضياع الهُويّة الثّقافيّة.

لذلك لا يُمكن للفلسطيني كتابة مُعاناته الشّبيهة باللّيل الطّويل، الّذي حاصر أهل اللّدّ في الغيتو؛ لأنّ الكاتب العربي لا يَبْغِي كتابة أدب مليء بالمراثي المصحوبَة بالذّلّ والهزيمة.

---

[1] إلياس خوري: رواية أولاد الغيتو اسمي آدم، ص:261.

[2] المصدر نفسه، ص:262.

الفصل الثّالث: الهويّة في رواية أولاد الغيتو

اسمي آدم لإلياس خوري

في ذلك، تقول يُمنى العيد، إنّ:" الدّمار الّذي يعيشه الواقع يطول أيضا الثّقافي، يمحو معانيه، ويُدمّر قيمه، ويهدم بناءه، وبذلك تعيش الكتابة جِذريّا صراع القيم الّتي تشمل الفكر والفن والسّياسة والإبداع"[1].

فحالة الدّمار الّذي يُعانيه الواقع مسّ الجانب الثّقافي، كالهُويّة العربيّة الّتي أصبحت مُشتّتة، من ذلك نلمس تأثّر الثّقافة بالسّياسة وغيرها.

وهكذا، شكّلت الهُويّة الثّقافيّة العربيّة غيابها الواقعي، نظرا للحالة الّتي يمرّ بها العالم ومدى انعكاسها على الإنسان العربي الّذي أصبح يُعاني مشاكل الهُويّة الضّائعة.

5/ الهُويّة الافتراضيّة:

في ظلّ العالم المليء بالمشاكل أصبح الإنسان يُعاني ضياع هُويّته، وهذا ما دفعه بحثًا عن هُويّة أخرى هروبا من حقيقته المُؤلمة.

ومنه، عُدّت الهُويّة الافتراضيّة كلّ ما يختلف عن الواقعي الحقيقي[2]، مِنْ هذا امتازت الهُويّة الافتراضيّة بالاختلاف عن الحقيقي؛ حيث حملت طابع الخيالي كبديل للواقعي.

ولهذا، حملت الرّواية العربيّة موضوع الهُويّة وما يعتريها من مشاكل، كقضيّة الهويّة الافتراضيّة النّاجمة عن ضياع الهُويّة الأصليّة جرّاء الحروب والأزمات النّفسيّة وغيرها من مُعيقات الحياة.

في رواية(أولاد الغيتو اسمي آدم) تجلّت صورة الهُويّة الضّائعة، كحصيلة للنّكبة الفلسطينيّة الّتي جعلت من الإنسان الفلسطيني عُرضة لمشاكل الهُويّة، من بينها الهُويّة الافتراضيّة هذا ما جرى مع (آدم دنّون) كفلسطيني أضاع ملامح هُويّته العربيّة الفلسطينيّة.

فرّ(آدم) من هُويّة أصبحت بفعل (الصّهيوني) ضائعة، في ذلك يقول (آدم):" دخلتُ في منعطف غير مُتوقّع، دالية ليست من أيقظ الفلسطيني النّائم في روحي، لكنّها رأته كان

[1] يمنى العيد: الرّواية العربيّة(المُتخيّل وبنيته الفنيّة)، ص:32.

[2] ينظر: علي حرب: حديث النّهايات فتوحات العولمة ومآزق الهُويّة، ص:199.

الفصل الثّالث: الهويّة في رواية أولاد الغيتو اسمي آدم لإلياس خوري

يكفي أن يُرى هذا الكائن المستتر الّذي أخفيته عمدا، بعيون الحبّ، كي يستيقظ من سُباته الطّويل، ويعيدني إلى أوّل الأشياء"[1].

نفهم من ذلك؛ أنّ شخصيّة (آدم دنّون) تميل للفرار من الواقع، كحقيقة الفلسطيني النّائم الّذي استيقظ بفعل الحبّ.

لكنّ علاقة الحبّ غير المكتملة جعلت من آدم يعود لهُويّته الفلسطينيّة؛ أي إلى أوّل الأشياء كقضيّة الانتماء لفلسطين؛ لأنّ داليا كَشَفت عن الإنسان الغريب المُستتر خلف الأقنعة.

عن أسباب هروب آدم من هُويّته واللّجوء لهُويّات افتراضيّة، تحقيق الاستقرار النّفسي بالفرار من المُعاناة والألم، يقول آدم:" تبدأ قصّتي بسقوط اللّدّ، لم تُحدّد أمّي متى ولدتُ، هل ولدت قبل سقوط المدينة أمْ بعده؟ لكنّها حين تروي عن أيّام الغيتو الأولى، فإنّها تُصوّر نفسها أمّا تحتضن طفلها الرّضيع، وهذا ما أكّده مأمون، حين روى لي حكايتي تحت شجرة الزّيتون، قال مأمون إنّني كنتُ رضيعا، لكنّه لم يُحدّد عمري، وأنا لمْ أسألهُ، سأفترض أنّ ولادتي تمّت في الغيتو، على الرّغم من أنّني متأكّد من أنّها تمّت قبل ذلك بشهر على الأقلّ"[2].

من هنا، تبدأ مُعاناة آدم مع الهُويّة الضّائعة؛ حيث اتّسمت مسألة بدايته بالغموض والتّخمينات، كما قال عن موضوع ولادته الّذي أحاطت به الشّكوك من جميع النّواحي، كتاريخ ميلاده الّذي حدّده بسقوط اللّدّ استنادا على أقوال مأمون، لكنّه افترض أنّ ولادته تمّت بالغيتو بالرّغم من يقينه التّامّ أنّه ولد قبل ذلك بشهر على الأقل.

[1] إلياس خوري: أولاد الغيتو اسمي آدم، ص:290.

[2] إلياس خوري: رواية أولاد الغيتو اسمي آدم، ص:306-307.

الفصل الثّالث: الهويّة في رواية أولاد الغيتو

اسمي آدم لإلياس خوري

يسعى الإنسان المُشتّت الهُويّة للافتراض كحلّ يُريحه من المعاناة والألم، ونحن هنا نتبنّى فكرة العقدة الأوديبيّة الّتي يقول عليها آدم:" من الآخر، أقول إنّني حين أخذتُ دروسا في علم النّفس في جامعة حيفا نقراتُ بشغف عقدة أوديب كما صاغها فرويد، لا لأنّني أشعر بضرورة قتل الأب؛ بل على العكس من ذلك، لأنّني اعتبرتُ نفسي حرّا من هذه العقدة؛ لأنّ هناك من تكفّل بقتل أبي قبل ولادتي، حتّى عندما تزوّجت أمّي وكنت في الثّامنة؛ أي بعد تجاوزي للمرحلة القضيبيّة الّتي تحتلّها عقدة أوديب، لم أشعر بالغيرة من ذلك الرّجل؛ بل شعرت بالاشمئزاز، والاشمئزاز لا علاقة له بالغيرة"[1].

وهكذا، وصف آدم حالته بعد زواج أمّه منال من (عبد اللّه الأشهل)، الّذي رأى فيه نوعا من الاشمئزاز.

ومن ذلك، لمْ يجد آدم ضرورة في تصوّره لقتل الأبّ، بناءًا على ماتلقّاه من دروس في علم النّفسّ وعُقدة أوديب الّتي تَدفع الإبن لقتل أبيه؛ لأنّه وَجدَ الّذي أراحه من عقدة قتل الأب قبل ولادته، وبهذا يكون قد تخلّصَ من هذه العُقدة النّفسيّة المعروفة عند الإنسان الّذي يُعاني ألما من إساءة الآباء.

غير بعيد على ذلك، نجد أنّ: إدراك الهُويّة أمر صعب بالنّسبة للإنسان المُشتّت، لذلك:" من المستحيل أن تتحدّد معرفة الذّات دون معاناة تجربتها الشّخصيّة"[2]؛ والمعنى أنّ الإنسان لا يُمكنه معرفة منْ يكون دون الوقوف على معاناته الشّخصيّة، وما مرّ به من دروس وتجارب حياتيّة.

هي طبيعة التّجربة وما تحمله للإنسان من مُعاناة، كحال الإنسان المُشتّت الهُويّة الّذي رأى في هُويّته الأصليّة ظلما له؛ لأنّها حمولة مُشْبَعة بالآلام، وبهذا وجد بالافتراض تنفيسا عن ذاته الضّائعة، وفي ذلك يقول آدم:" رَوَيْتُ عن مأمون حكاية أبي الأوّل، الّتي لا حكاية

---

[1] المصدر نفسه، ص:162.

[2] ماري مادلين داقي: معرفة الذّات، ترجمة: نسيم نصر، منشورات عويدات، بيروت، ط1، 1974م. ص:18.

الفصل الثّالث: الهويّة في رواية أولاد الغيتو اسمي آدم لإلياس خوري

لها سوى ذلك الشّعور الّذي انتابني بأنّني الابن القتيل، وبأنّ أبي قاتلي، قد يكون في هذا الكلام شيء من الظّلم للرّجل الّذي لا أعرفه، فهو ضحيّة وأنا ضحيّة الضّحيّة، هذا النّوع من التّبريرات لا أُحبّه"[1].

من هنا، تتجلّى صورة الأب المُفترض عند (آدم دنّون) كابن وُجد مُلقى على صدر امرأة ميتة، فحكاية الأب الأوّل لآدم لا أصل لها على حدّ تعبيره، لأنّه انعكاس للأب القاتل الّذي نجا بنفسه تاركًا زوجته وولده للموت.

لذلك التمس آدم الأعذار لوالده الأوّل كضحيّة للنّكبة والخوف من الموت، أمّا بالنّسبة له فاكتفى بتشبيه نفسه بضحيّة الضّحيّة بالرّغم من كرهه الشّديد للمُبرّرات.

هذا في الحقيقة افتراض بنى عليه آدم هُويّته، لذلك نورد قولا لداليا تفسّر بواسطته علاقة الضّحيّة بالجلّاد، يقول آدم:" كَيْ لا أكذب فوجئتُ بدالية حبيبتي وهي تتبنّى هذه المقولة؛ بل هي من صاغها ببلاغة، حين قالت: إنّ الفلسطينيّين هم ضحيّة الضّحيّة، ولا يحقّ للضّحيّة اليهوديّة أن تتصرّف كجلّاديها، لذلك أنا لستُ يهوديّة فقط؛ بل أنا فلسطينيّة أيضا"[2].

والمعنى المُراد؛ أنَّ الفلسطيني ضحيّة الضّحيّة مُقارنة بالضّحيّة اليهوديّة، الّتي اعتُبِرت ضحيّة تتصرّف كجلّاديها من خلال أفعالها مع شعب فلسطين، الّذي عُدّ ضحيّة للضّحيّة اليهوديّة، لذلك فضّلت داليا المرأة الإسرائيليّة أنْ تكون ضحيّة فلسطينيّة، لأنّها لا تُحبّ الانتماء اليهود الجلّادين.

دون شكّ، تسعى الضّحيّة للفرار من مُعاناتها، هذا بالتّحديد ما حدث (لآدم دنّون) كمُشتّت للهُويّة، يقول:" قلتُ إنّني خرجتُ من حكاية الرّجل، وهذا غير دقيق، تحرّرتُ من صورة

[1] إلياس خوري: أولاد الغيتو اسمي آدم، ص:166.

[2] إلياس خوري: أولاد الغيتو اسمي آدم، ص:166.

الفصل الثّالث: الهويّة في رواية أولاد الغيتو

اسمي آدم لإلياس خوري

الشّهيد من دون أن أتحرّر من تلك القصّة الّتي تُشبه المعجزات، والّتي أصرّت أمّي على روايتها من دون توقّف، حتّى بعد زواجها من عبد اللّه الأشهل، وانكشاف عجزها عن الإنجاب"[1].

وهكذا، خرج آدم من حكاية ابن الشّهيد (حسن دنّون)، وتحرّر نهائيّا من الصّورة المُعلّقة على الحائط ومن كذبة (منال) حول نسب آدم (لعائلة دنّون)، على الرّغم من عجز منال على الإنجاب إلّا أنّ كذبتها ظلّت.

من هنا، يكون:" القلق والقنوط أو اليأس؛ حيث إنّهما عنده لا يُمثّلان فقط مشكلة وإنّما يراهما بداية الحلّ، من خلال إنّ إدراك القلق وفهم اليأس المفضي إلى الموت يؤدّي إلى التّغيير وتدمير النّفس من أجل معرفة النّفس"[2].

تُؤدّي حالات اليأس والقلق من الهُويّة الضّائعة إلى تدمير الإنسان، من النّاحية النّفسيّة والجسديّة خلال عمليّة البحث عن الهُويّة الأصليّة، هذا ما يقود الإنسان المُشتّت للقلق المُميت.

قال آدم ناقلا لمُعاناته:" كان عليّ أن أرى كما قال الأعمى لكنّني رفضتُ، وها أنا الآن أرى تلك اللّحظات، وهي تنبثق من مكان لم أكن أدري بوجوده، أتذكّر كأنّني أتخيّل، أو كأنّ المشهد أمامي الآن، الأفضل أن أعود إلى أبي وأطلب من ذاكرتي أن تمحو هذا المشهد، وترمي به إلى مكبّ النّسيان"[3].

---

[1] المصدر نفسه، ص:269.

[2] بيتر كوزن: البحث عن الهويّة(الهويّة وتشتّتها في حياة إيريك إيريكسون وأعماله)، ص:26.

[3] إلياس خوري: أولاد الغيتو اسمي آدم، ص:170.

الفصل الثّالث: الهويّة في رواية أولاد الغيتو

اسمي آدم لإلياس خوري

نرى من ذلك، أنَّ مأمون الأعمى أراد إيصال آدم لهُويّته الأصليّة، انطلاقا من مشاهد واقعيّة حدثت مع منال بمراحل حياتيّة مُعيّنة، كليلة عُرسها وعبد اللّه الأشهل الّتي كشفت حقيقة عُذريّتها.

لذلك، فضّل آدم العودة بالذّاكرة للخلف من أجل محو مشهد العثور عليه وأمّه الميتة، يقول:" رميتُ الماضي بأسره في النّسيان وعشت حياتي، أو ما بدا أنّه حياتي كما أردت، لكنّني نادم الآن ما كان يجب أن أترك حياتي مليئة بهذه الثّقوب والفجوات الّتي تحوّلت اليوم إلى أشباح تُحاصرني"[1].

ولهذا، رَمى (آدم) ماضيه خلفه وتركه للنّسيان وواصل حياته، إلّا أنّ لقاءه بمأمون حوّل حياته للجحيم.

هذا ما دفعه للحديث عن الذّكريات الّتي صارت أشباحا تُحاصره، فالهُويّة الافتراضيّة لآدم دنّون سقطت حينما عادت به الذّاكرة لفلسطين.

إنّها حكاية (آدم) كصورة تتجلّى بواسطتها أبعاد النّكبة الفلسطينيّة، لذلك يقول:" الحقيقة أنّني كنتُ مفتونا بحكاية مولدي كما روتها منال صدّقتُها، واعتبرتُها قدري وعشت طفولتي مع صورة والدي الشّهيد الّذي اجترح معجزة ولادتي من قلب موته، لكنّ الحكاية تلاشت وتساقط نثارها في قلبي من زمان، لمْ يعُد أبي يعني لي شيئا خاصّا، كان مُجرّد قصّة خبّأتها في مكان سرّي نسيتُ أينَهُ، وحين انبثقت في هذه الأيّام من عتمتها تحوّلتُ رمادا"[2].

بهذا تتّضح، صورة المعاناة عند آدم إنسانًا دون هُويّة، فحقيقة نسبه لعائلة(دنّون) مُجرّد وَهْمٍ تلاشى مع حكاية استشهاد حسن دنّون وولادته، حيث اشتغل على تناسي هُويّته العربيّة بمُجرّد مغادرته لفلسطين صوب مدينة نيويورك.

---

[1] المصدر نفسه، ص:170.

[2] إلياس خوري: أولاد الغيتو اسمي آدم، ص:177.

الفصل الثّالث: الهويّة في رواية أولاد الغيتو

اسمي آدم لإلياس خوري

حينما تذكّر آدم هُويّته الفلسطينيّة وموضوع والده تحوّل إلى رماد، وهذا القول إحالة لما سيحصُل له لاحقا (كقصّة انتحاره)، من ذلك يَعترف:" قصّتي كالشّوك، وحياتي وكلماتي قبض ريح"[1].

وهكذا، وصف آدم قصّته الّتي صارت كالشّوك، لحِدّتها وقساوتها عليه كإنسان ضائع الهُويّة، من ذلك رأى في حياته اللّا جدوى كحال الإنسان السّاعي لقبضِ الرّيح.

وهذا وصف للحالة المُزرية الّتي وصل إليها جرّاء تشتّت هُويّته؛ إذْ صار ضائعا يُعاني ألم الذّاكرة والبحث عن الهُويّة.

من ذلك، يقول (آدم) عن مُصادرة (مأمون) لدوره كضحيّة للنّكبة الفلسطينيّة، بأسلوب يطغى عليه اللّوم والعِتاب:" يقتُلون كالآباء، ويبكون كالأبناء! كأنّ مأمون أراد أن يُصادر دوري، فهو الجلّاد والضّحيّة في آن واحد، وأنا لستُ سوى شاهد، هو إبراهيم الّذي وضع السّكّين على عُنق ابنه، وهو إسماعيل الّذي تُرك للعطش في الصّحراء فكانت دموعه ملاذه، وأسّس معموديّة الدّموع، الّتي صارت علامة للتّيه في الغُربة"[2].

لخّص آدم شدّة ألمه كإنسان ضاعت هُويّته، فحقيقة لقائه بمأمون الأعمى أفسَدت حياته وقَلبتها رأسًا على عقِب، من ذلك ثار على مأمون كمُصادر لدَوره فبدل بُكاء آدم بكى مأمون، منْ هُنا وَضُحتْ مسألة الضّحيّة وضحِيّة الضّحيّة، كحال مأمون وآدم.

على ذلك، لجأ آدم للتّشبيه عاكسا من خلاله أبعاد الألم، فمأمون هو إبراهيم الّذي وضع السّكين على رقبة ابنه إسماعيل، وما ذلك الآدم إلّا إسماعيل الّذي تُرك للقاء مصيره المَجهول بالصّحراء.

---

[1] المصدر نفسه، ص:26.

[2] إلياس خوري: رواية أولاد الغيتو اسمي آدم، ص:180.

الفصل الثّالث: الهويّة في رواية أولاد الغيتو

اسمي آدم لإلياس خوري

من هُنا، انعكست ملامح الهُويّة الافتراضيّة عند آدم كإنسان دون هُويّة؛ حيث أدّت الأقدار دورها بإزاحة الهُويّة المُفترضة عليه، وهذا ما رماهُ في فضاء البحث المُتواصل عنها.

ثانِيًا/ بروز عناصر الهُويّة في الرّواية:

تَشْتمل الهُويّة على تمظهرات للانتماء الفردي والجماعي، تحتوي على عِدّة عناصر تُساهم ببروزها كاللّغة العربيّة والدّين والوطن والتّراث الثّقافي وغيرها من مُكوّنات الهُويّة العربيّة.

ومنه، عُدّت الهُويّة حديثا للسّاعة في الأدب العربي وغيره من العلوم الأخرى، كالفلسفة وعلم النّفس، وعلم الاجتماع نظرا لأهمّيتها؛ حيث نرى أنّ:" الهُويّة هي مجمل السّمات الّتي تميّز شيئا عن غيره، أو شخصا عن غيره، أو مجموعة عن غيرها، كلّ منها يحمل عدّة عناصر في هُويّته"[1]؛ نفهم من ذلك أنّ للهُويّة وحدات تُكوّنُها ما يسمح بتمييز إنسان مُنتمي لهُويّة مُعيّنة؛ حيث حملت مجموعة من السّمات الخاصّة الدّالة على شخص أو مجموعة من الأشخاص.

لذلك، تَبنّت الرّواية العربيّة موضوع الهُويّة مُحيلة لمكوّناتها، كاللّغة العربيّة، والدّين، والوطن، والتّراث الثّقافي.

1/اللّغة العربيّة:

تُعدّ اللّغة من بين أهمّ مكوّنات الهُويّة العربيّة، لِما تحمله من أبعاد تُثْبِت هُوية الإنسان العربي.

[1] عبير بسيوني رضوان: أزمة الهُويّة والثّورة على الدّولة في غياب المواطنة وبروز الطّائفيّة، دار السّلام للطّباعة والنّشر والتّوزيع والتّرجمة، مصر – القاهرة، ط1، 2012م. ص:85.

الفصل الثّالث: الهويّة في رواية أولاد الغيتو

اسمي آدم لإلياس خوري

فهي أداة تُثْبَتُ بواسِطتها الهُويّة والانتماء للجماعة، وهذا ما؛ يُفسّر لجوء كثير الكُتّاب العرب لتناول موضوع الهُويّة العربيّة وعناصرها، بُغية الكشف عن مشاكل الهُويّة العربيّة الضّائعة، من ذلك يقول عبد السّلام المسدّي:" إنّ انعطاف الهُويّة على اللّغة في عبارة تركيبيّة واحدة يتضمّن تبايُنا في الجوهر، أَعانت على إخفائه العادة من حيث هي طبع ملازم(...) فاللّغة ظاهرة اجتماعيّة، وهي اصطلاحيّة بامتياز تَسْتند إلى مُكوّنين مُتلازِمين؛ مُكوّن مادّي حسّي ومكوّن ذِهني غير مادّي، أمّا الهُويّة فظاهرة رمزيّة مُجرّدة ليس لها أيّ تحقّق مادّي بربطها بعوالم الحسّ الوُجوديّة، الهُويّة انتماء بينما اللّغة اكتساب"[1].

نفهم من ذلك؛ أنّ اللّغة العربيّة مُلازمة للهُويّة العربيّة من ناحية الانتماء بغضّ النّظر عمّا تحملانه، فاللّغة ظاهرة اجتماعيّة نشأت في وسط الجماعة؛ أي هي أداة تواصل بين الأفراد مُكتسبة، أمّا الهويّة فذات أبعاد انتمائيّة.

لذلك، ارتبطت الهُويّة العربيّة باللّغة العربيّة وجعلت منها أساسا لقِوامِها؛ إذْ لا تتحقّق إلّا بواسطتها، وهذا ما يُوضّح دلالة الهُويّة العربيّة الّتي تسقُط حينما نحذف كلمة عربيّة كلغة تُمثّلها.

يُفسّر مُصطفاوي محمّد ظاهرة الضّعف اللّغوي الحالي عند العرب؛ قائِلًا:" تلك هي الأزمة اللّغويّة الّتي تمرّ بها اللّغة العربيّة في الوقت الرّاهن، وهي أزمة لا تقلُّ خطورتها عن سائر الأزمات من سياسيّة واقتصاديّة(...) لأنّ تأثيرها السّلبي يطال كيان الأمّة، فيُقوّض جملة الأواصر الّتي تربط بين أفرادها ويطمس هويّتها"[2].

[1] رمزي منير بعلبكي وآخرون: اللّغة والهُويّة في الوطن العربي إشكاليّات تاريخيّة وثقافيّة وسياسيّة، ص:283.

[2] مصطفاوي محمّد: حجيّة اللّغة العربيّة في سياق تجذير الهُويّة، مجلّة فصل الخطاب، جامعة تلمسان– الجزائر، 2017م.ع:19،م:05، ص:246.

الفصل الثّالث: الهويّة في رواية أولاد الغيتو

اسمي آدم لإلياس خوري

يقود المشكل اللّغوي الحاصل بالعالم إلى أزمة عالميّة، لا تقلّ خطورة عن سائر الأزمات الرّاهنيّة؛ كالسّياسيّة والاقتصاديّة فتأثيرها يَطَالُ الهويّة العربيّة؛ من حيث إنّه يُمزّق أواصر التّرابط بين أفراد المُجتمع العربي الواحد.

عَنِ اللّغة العربيّة كمقوّم رئيس للهُويّة العربيّة من خلال رواية(أولاد الغيتو اسمي آدم)، يقول(آدم دنّون) انطلاقا من كونه عربي الهُويّة واصفا بلاغة الصّمت في فلسطين:" بعد الطّعام والماء، جاء الخوف الّذي ارتسم على جدران الصّمت، فالمدينة الّتي عاشت في الأشهر الثّلاثة الأخيرة قبل سقوطها وسط عجقة اللّاجئين إليها من القرى المجاورة، وأصوات المعارك الّتي كانت مشتعلة على أطرافها، غرقت فجأة في صمت الخراب، لمْ ينتبه الغيتويّون إلى ثقل هذا الصّمت في الأيّام الأولى لإقامتهم في هذا المكان المسيّج بالأسلاك، لأنّهم كانوا يعيشون قلق البحث عن البقاء، لكن بعد احتفال براميل الماء الّذي تخلّلته زغردات متقطّعة، وبعد جلب الطّعام من بيوت المدينة القديمة بكمّيّات مقبولة، صحا النّاس على السّكون المخيف الّذي لفّ مدينتهم الّتي أُفرغت من سُكّانها، عشّش خوف النّاس في أصوات الصّمت الّتي احتلّت ليالي الغيتو ونهاراته الطّويلة، وأحسّ النّاس بالرّهبة فصاروا يتكلّمون كأنّهم يهمسون"[1].

يبدو أنّ لُغة الصّمت الأقرب للإنسان المُشَتّت الهويّة كحال الفلسطيني، وهو ما يُفسّر لغة الضّحايا فضياع اللّغة العربيّة بفلسطين ناتج لشتات الهُويّة العربيّة.

وهكذا، ارتسمت ملامح الخوف عند الفلسطيني الّذي ضاعت هُويّته، فبعد مشقّة البحث عن الماء والطّعام أتَى الخوف ليشُقّ صدر الشّعب الفلسطيني حبيس الغيتو.

يقود الخوف على الحياة إلى تشتّت اللّغة، حيث يُصبح الإنساني يُعاني حالات من الصّمت، هذا ما وقع مع الفلسطيني أيّام النّكبة والغيتو.

[1] إلياس خوري: رواية أولاد الغيتو اسمي آدم، ص:338.

الفصل الثّالث: الهويّة في رواية أولاد الغيتو

اسمي آدم لإلياس خوري

يواصل آدم وصفه للغة الفلسطيني الصّامتة، يقول:" لا أستطيع أن أصِف حياة الغيتو بغير عبارة همس الصّمت، حتّى بكاء الأطفال الرّضّع تحوّل إلى أنين خافت، أقول الرّضّع وأنا أعني رضيعا واحدا اسمه آدم دنّون لكنّني أشعر وأنا أنسج ذاكرة الصّمت من كلام أمّي أنّ الرّضيع الّذي كُنته لمْ يكن فردا؛ بل كان كلّ أطفال العالم، وأنّ الأطفال أصيبوا بالخرس، وأُجبروا على العيش بصمت والموت بصمت"[1].

يتّضح من كلام آدم، أنّ حياة الفلسطيني أيّام الغيتو لا يُمكن وصفها؛ حيث امتلأت بمشاهد الخوف من الموت كنفاذ الماء والطّعام، بذلك أصبح الفلسطيني أخرسا دون لُغة لأنّه أضاع لُغته حينما ضاعت هُويّته الفلسطينيّة.

هذا ما؛ يُفسّر هَمس الصّمت انطلاقا من الواقع المعيش المُزري، فحتّى الأطفال لمْ يسلموا من لُغة الصّمت؛ إذْ تحوّل صوتهم من صُراخ إلى أنين خافت لا يُسمع.

لذلك، أجبر الإسرائيلي الإنسان الفلسطيني على الصّمت والموت بصمت، فهو لا يملك هُويّة تُعطيه حقّ الكلام؛ لأنّ اللّغة للأقوى.

ننتقل مباشرة لعثرات اللّغة أثناء عمليّة الكتابة كما حصل مع آدم دنّون؛ إذْ يقول:" كَيْ نتحوّل إلى حكايات ليس أكثر! فكتبتُ كثيرا، لأكتشف أنّ الصّمت أكثر بلاغة من الكلام، وأنّني أريد لهذه الكلمات أنْ تحترق، لكنّني أشعر بالجبن، أنا عاجز عن الانتحار، وعاجز عن دفع هذه الدّفاتر إلى الانتحار، وعاجز عن العودة إلى بلادي كي أستعيد روحي(...)، لذا أعطيتُ سارانغ لي رسالة صغيرة وطلبت منها ألّا تفتحها إلّا إذا حصل لي شيء، وكلّفتها بالمهمّة الّتي عجزتُ عن القيام بها طالبا منها إحراق هذه الدّفاتر بعد موتي"[2].

[1] المصدر نفسه، ص:338 -339.

[2] إلياس خوري: رواية أولاد الغيتو اسمي آدم، ص:25.

الفصل الثّالث: الهويّة في رواية أولاد الغيتو

اسمي آدم لإلياس خوري

وهكذا، تحوّلت حكاية وضّاح اليمن إلى حكاية آدم والبحث عن الهُويّة، فبدل مُواصلة آدم كتابته لقصّة الشّاعر الأموي العاشق توقّف ليجد نفسه ضائع اللّغة، يكتُب قصّته وشعبه الفلسطيني أيّام النّكبة الفلسطينيّة الكُبرى.

من ذلك، يرى (آدم) أنّ الصّمت أكثر بلاغة من الكلام، وأنّه يُريد لكلماته الّتي كتبها الاحتراق، بالرّغم من شعوره بالجُبن حِيّال عمليّة الانتحار.

كلّ ما قِيل، يُعطينا معنى واضِحًا عنِ العجز بالقِيام بالأشياء، والعجز عن الانتحار، والعجز عن إحراق الدّفاتر، والعجز في التّفكير بالعودة لفلسطين.

كلّ ذلك، دفع آدم أنْ يُسَلِّم صديقته الكوريّة رسالة طالبا منها القيام بمهمّة الحرق بدلا منه، يقول آدم:" لستُ متأكّدا من أنّني أريد لهذه الأوراق أن تلتهمها النّيران، لكن فات الأوان الآن، وهذا أفضل وأنا متأكّد من أنّ القمر الأصفر الّذي أضاء جزء صغيرا من عتمة روحي سوف يفعل ما يجده ملائما"[1].

فحالة الضّياع الّتي مرّ بها آدم نتيجة ضياع هُويّته حَمَلَتْهُ على اللّقاء بمأمون في نيويورك؛ حيث جعل من آدم مُشتّت الهُويّة.

مِنْ ذلك، يتجلّى عجز (آدم) عن مُواصلة الكتابة المُنطلق من ضياع اللّغة والهُويّة، يقول:" حين خُيّل إليَّ أنّني أستطيع الاستعاضة عن الحياة بكتابتها، لبسني هذا الوهم بإيحاء من المخرج السّينمائي الإسرائيلي الّذي كان صديقي؛ لأنّه يتكلّم تلك اللّغة الّتي قرّرت أنْ أنساها، موحيا أنّ حياة كلّ إنسان تصلح أنْ تكون رواية أو فيلما سينمائيّا"[2].

يُوضّح آدم عجزه عن الكتابة مُحَمِّلَها ضياع الهُويّة الفلسطينيّة؛ إذْ يراها لغة مُثقلة بالألم والمعاناة الفرديّة والجماعيّة.

---

[1] إلياس خوري: أولاد الغيتو اسمي آدم، ص:22.

[2] المصدر نفسه، ص:22.

الفصل الثّالث: الهويّة في رواية أولاد الغيتو

اسمي آدم لإلياس خوري

فالحياة تصلح أن تُكتب رواية أو فيلما سينمائيّا على حدّ قول المخرج السّينمائي اليهودي صديق آدم، مُعلِّقا على ذلك باللّغة العربيّة الّتي قرّر آدم نِسيانها كفلسطيني ضاعت هُويّته.

يتّضح ممّا تقدّم، أنّ لغة الفلسطيني ضاعت بضياع الهُويّة، في ذلك يقول آدم:" كتبتُ في البِداية الاستعارة الّتي اخترتها كي تكون تعبيرا عن حكاية البلاد الّتي أتيتُ منها، ثمّ حين قرّرتُ أنّ الاستعارة لا تُجدي لم أُمزّق ما كتبت؛ بل أعدتُ صوغ بعض أجزائه كي أروي ظروف ولادة الفكرة وأسبابها، ثمّ قرّرتُ وأنا في أقصى الغضب أنْ أتخلّى عن الاستعارة، وأتوقّف عن كتابة الرّواية وأنصرف إلى استعادة قِصّتي الشّخصيّة، كي أكتُب الحقيقة ناصعة بعد تعريتها من الرّموز والاستعارات، أغلبُ الظّنّ أنّني فشلت في الوصول إلى هدفي الجديد، لكنّني اكتشفت أشياء كثيرة غابت عن ذاكرتي، أو غادرت في تلافيفها، فالذّاكرة بئر لا ينضب، وهي تظهر وتختفي كي ننسى حين لا ننسى، أو كي لا ننسى حين ننسى، لستُ أدري!"[1].

هذا ما، تقود إليه الحِكاية عند (آدم) بالتّحديد حكاية البلاد الّتي أتَى منها؛ أي فلسطين، الّتي دفعته لتمزيق ما كتب والتّوجّه لكتابة قصّته الشّخصيّة، لكنّ استعادة القصّة الشّخصيّة لا تخرج عن كونها حكاية حدثت بفلسطين.

هي الاستعارة الّتي تحدّث عنها آدم دنّون، أنْ يَكتُب وفقا لأقوال الشّهود على الحادثة، ما يُثبت حقيقة الذّكرى الّتي لا تُنسى، هكذا عبّر آدم عن ضياعه فهو يدْري ولا يَدري.

لذلك، وجد آدم ككاتب عربي سرد قِصّته الشّخصيّة كثيرا من التّردّد بنشرها كرواية واقعيّة تعكس مُعاناته الذّاتيّة والجماعيّة؛ حيث يقول:" تردَّدتُ كثيرا، ثمّ قرّرتُ ألّا أبعث بهذه الدّفاتر إلى أيّ دار نشر عربيّة، لا لأنّني أعتقد أنّ ما كتبته ليس مُهمّا؛ بل يأسا من العلاقة مع عالم الكتابة والنّشر، حيث يتدافع الكتّاب إلى البحث عن خلود أسمائهم أو عن علاقة ما

[1] إلياس خوري: رواية أولاد الغيتو اسمي آدم، ص:24.

الفصل الثّالث: الهويّة في رواية أولاد الغيتو

اسمي آدم لإلياس خوري

بالخلود أنا لا أؤمن بالخلود، لا خلود الأرواح ولا خلود الكلمات، كلّه باطل الأباطيل هو نحن، كما كتب سيّدنا سُليمان لا أدري كيف جرؤ الشّعراء والأدباء على الكتابة بعد نشيد الأناشيد وكتاب الحِكمة! الكاتب الّذي كان نبيّا وملكا وشاعرا، العاشق الّذي أحبّ كلّ النّساء، القويّ الّذي سيطر على ممالك الجان، كتب أنّ كلّ شيء باطل، فلماذا أُضيف باطلي إلى باطله؟"[1].

كلّ ذلك يُفسّر تردّد آدم بنشر ما كتبه؛ لأنّه ليس صالحا للنّشر والقراءة، فهو يُعاني من حالة عدم الاستقرار النّفسي.

وهذا ما يُحيل، لمسألة البحث عن الشّهرة والخلود كما يفعل كتّاب العصر الحالي؛ لأنّ ما كتبه بعيد عن تخليد الأسماء المُنبثقة عن باطل الحياة، لذلك أعطى بُعدا آخر للكتابة الّتي وجدها غير عادلة كالباطل الّذي أضافه لباطل سيّدنا سُليمان.

نستنتج أنّ حقيقة مُعاناة الشّعب الفلسطيني حملت جزءًا من معاناة الشّعب العربي، وما يحدث معه من ضياع للهُويّة العربيّة انطلاقا من مشاهد الواقع" إنّ معاناة الشّعب الفلسطيني مُستمرّة، وهي جزء عُضوي من المعاناة العربيّة"[2].

نُواصل مع آدم الّذي يُفصح عن أبعاد الهويّة الضّائعة وعلاقتها بالحضيض، على حدّ تعبير (مأمون) الّذي رأى في الفرد الفلسطيني (حضيضا) مُقاما على أنقاض هُويّة مشتّتة، في ذلك يقول آدم:" لم يكن هناك أدنى علاقة بين عجز سليم عن القراءة لأنّه مهووس بكرة القدم، وبين كلمة الحضيض كما كان يتلفّظ بها مأمون، وهو يكُزُّ على أسنانه كأنّه يشتم

[1] المصدر نفسه، ص:25.

[2] حليم بركات: غربة الكاتب العربي، ص: 324.

الفصل الثّالث: الهويّة في رواية أولاد الغيتو

اسمي آدم لإلياس خوري

الدّنيا بمن فيها، حضيض مأمون كان الاسم الآخر للقفص الّذي عاش فيه سُكّان ما صار سيعرف تحت مُسمّى واحد هو(الغيتو)، أو (غيتو العرب)"[1].

دلّت لفظة (حضيض) على القفص المُسيّج الّذي قطنه سُكّان مدينة اللّدّ الفلسطينيّة، الّذي عُرف فيما بعد باسم الغيتو أو غيتو العرب.

إنّها الإهانة هذا ما حدث للشّعب الفلسطيني أيّام النّكبة والطّرد، لذلك امتازت اللّغة العربيّة بالضّياع كحال الهُويّة الفلسطينيّة.

2/ **الدّين:**

يُعدّ الدّين عُنصرا هامّا في تشكيل الهُويّة، لِمَا يحمله من أبعاد تُفصح عن توجّهات الإنسان ضمن مجموعة بشريّة.

ويظهر أنّ قضيّة الدّين أصبحت تُثير جِدالا راهنيّا واسعا، بدءًا من خاصيّة الاختلاف الدّيني داخل الوطن الواحد؛ كحقيقة التّعدّديّة الدّينيّة(إسلام، مسيحيّة، يهوديّة).

في ذلك، يقول لونيس بن علي، إنّ:" ما اعتقده البعض أنّه نهاية عصر الإله، أصبح عصرا دينيّا بامتياز حتّى أنّ روح الدّين أصبحت جزءًا لا يتجزّأ من الرّؤية الثّقافيّة للإنسان المعاصر، سواء أكان هذا الدّين من طبيعة توحيديّة أمْ من طبيعة وضعيّة"[2]؛ نفهم من ذلك أنّ الإنسان المُعاصر تبنّى فكرة الدّين ميزة ثقافيّة، على الرّغم من طبيعة الدّين توحيديّة كانت أو وضعيّة.

يتبيّن هُنا، أنّ مسألة الدّين أصبحت جزءًا من حياة الإنسان العربي، بغضّ النّظر عن نوع دينه ما يُحيلنا مباشرة لموضوع الهُويّة.

---

[1] إلياس خوري: أولاد الغيتو اسمي آدم، ص:300.

[2] لونيس بن علي: النّقد والمقدّس(المقدّس والتّاريخ)، سلسلة ملفّات بحثيّة، مؤمنون بلا حدود للدّراسة والأبحاث، دد، 2016م. ص:05.

الفصل الثّالث: الهويّة في رواية أولاد الغيتو

اسمي آدم لإلياس خوري

في ذلك، يقول علي شريعتي، إنّ:" الدّين ضدّ الدّين، وربّما يبدو هذا العنوان غامضا، وهذا الغموض ناجم عن قناعة عامّة لدينا بأنّ الدّين كان دائما ضدّ الكفر، وإنّ المعركة استمرّت تاريخيّا بين الدّين واللّا دين، فيكون التّعبير بالدّين ضدّ الدّين منطويا على قدر من الغموض والغرابة والاستنكار، بينما وقد توصّلتُ أخيرا وربّما من قبل ولكن ليس بهذا المستوى من الوضوح، إلى أنّ الحقائق التّاريخيّة تؤيّد عكس التّصوّر الآنف الذّكر وأنّ الدّين لم يكن يُواجه إلّا بالدّين، خلافا للتّصوّر السّاذج الّذي نحمله اليوم"[1].

إنَّ الحديث، عن الدّين اليوم بات مثيرا للجدال، وذلك لما يحمله من مشاكل واقعيّة كحالات الاصطدام الدّيني داخل وطن واحد، وهذا ما يجعلنا نقيس الموضوع أنّه صراع دين ضدّ دين.

الواقع أنّ قضيّة الدّين أصبحت لا تَحِيد عن المعارك التّاريخيّة بين أصحاب الدّين والكُفّار، على سبيل التّمثّل بيدَ إنّنا لاحظنا مواجهة بين أديان مُختلفة؛ لأنّ الدّين لا يُواجَه إلّا بدين آخر.

بهذا المنطق التّأويلي؛ تُبَرّر قضيّة الدّين ومدى علاقتها بالهُويّة؛ حيث عُدّ عنصرا رئيسا تُحدّد بواسطته الهُويّة العربيّة الواقعة تحت عِدائيّة الواقع، والفئات الإنسانيّة ضمن النّطاق المكاني الواحد.

حملت الرّواية العربيّة بعضا من عناصر الهُويّة العربيّة؛ حيث كان لقضيّة الدّين نصيبا من التّناول النّصّي.

أوّلُ المقاطع نستدلُّ بها عن حُضور الدّين في رواية أولاد الغيتو ما قاله آدم مُتَحَدِّثًا عن فَحوى اللّقاء الّذي جمعه و(راما أفيف) حول مقالاته المنشورة بإحدى المجلّات المتحدّثة عن علاقة الأدب بالفن العربي، لكنّ الرّجل تجاوز الوصف مُحيلا لقضيّة الدّين الإسلامي

[1] علي شريعتي: دين ضدّ دين، ترجمة: حيدر مجيد، مؤسّسة العطّار الثّقافيّة، دب، ط1، 2007م. ص:23.

الفصل الثّالث: الهويّة في رواية أولاد الغيتو اسمي آدم لإلياس خوري

واليهودي بفلسطين، انطلاقا من مشاهد الفيلم الّذي حزّه وجعله يُقرّ بهُويّته اليهوديّة:" أجابني أنّه أتى بسبب كلود لانزمان، واستفاض في الكلام على عبقريّة هذا المثقّف اليساري الكبير، صديق جان بول سارتر وسيمون دوبوفوار، قال إنّ فيلم شُواه للانزمان غيّر حياته، وكان أحد الأسباب الّتي جعلته يتماهى مع يهوديّته، ويقرّر العودة إلى أرض الميعاد"[1].

من خلال الحديث عن مسألة الدّين وعلاقته بالهُويّة نستنتج أنّ؛ اليهودي مُتمسّك بدينه وهُويّته بناء على مقولة فلسطين أرض للميعاد اليهودي، لما ورد عن ذلك الأمر بالأسفار اليهوديّة.

فلا غرابة بالأمر؛ حيث سنكتشف معا حقيقة اليهودي وأرض ميعاده، وما حمله من أساليب قلبت موازين القِوى بين الضّحيّة اليهوديّة ذات التّوجّه الدّيني والجلّاد اليهودي، وما فعله مع الشّعب الفلسطيني المُسلم والمسيحي، في ذلك يقول آدم، إنّ:" لقاءهما يُشير إلى المآل الّذي انتهت إليه القضيّة اليهوديّة على أيدي الحركة الصّهيونيّة، الّتي حوّلت اليهود من ضحايا إلى جلّادين وحطّمت فلسفة المنفى الوُجودي اليهودي؛ بل جعلت من هذا المنفى ملكا لضحاياها الفلسطينيّين"[2].

كما يتّضح أنّ القضيّة اليهوديّة تحوّلت من مشكلة بأبعاد دينيّة إلى قضيّة سياسيّة؛ ما يُفسّر التّحوّل الّذي طال الإنسان اليهودي؛ بالخصوص ما حَدث له على أيادي الحركة الصّهيونيّة، الّتي جعلت من الضّحيّة اليهوديّة جلّادة مُحطّمة بذلك حدود الدّيانات واحترام الإنسانيّة، هذا ما حصل بفلسطين حيث جعلت شعبها يُعاني حالة النّفي داخل أرضه.

[1] إلياس خوري: أولاد الغيتو اسمي آدم، ص:409.

[2] إلياس خوري: رواية أولاد الغيتو اسمي آدم، ص:412.

الفصل الثّالث: الهويّة في رواية أولاد الغيتو

اسمي آدم لإلياس خوري

فقضيّة الدّين من أبرز ما حمله الواقع العربي، انطلاقا من كونه:" لا يعني نظاما يتضمّن مفهوما مُعينا للرّبّ، أو لمعبودات بعينها، أو حتّى لنظام ينظر إليه باعتباره دينا، وإنّما هو نظام للفكر والعمل تشترك في اعتناقه جماعة من النّاس"[1].

يعمل الدّين على جمع طائفة من البشر تحت لِوائه، بغرض تجاوز حدود التّوجيه الدّيني والعبادة؛ حيث أصبح نظاما فكريّا وسياسيّا هذا ما حذاه الدّين، من مُعتقد إلى جدليّة راهنيّة تدخل فيها جميع الأصعِدة والتّوجّهات.

لذلك، لمْ يقِف الغرب عند حدود المشاكل العالميّة الرّاهنة؛ بل سعى جاهدا لخلق مشاكل داخل البلدان العربيّة، كمُشكلة الدّين وحقيقة الصّراع بين الأديان المُختلفة ضمن نطاق المكان الواحد.

هذا ما، لاحظناه بفلسطين وغيرها من البلدان العربيّة الواقعة تحت سُلطة الآخر، فمن المُثير للانتباه غزو الأفكار والمُعتقدات الزّائفة بذهنيّة الإنسان العربي، كحقيقة الأولياء الصّالحين والأضرحة بناء عليها أُبْعد الإنسان عن دينه الحقيقي ونسي أمر هُويّته الدّينيّة.

انطلاقا من التّصديق بما جاءت به الأديان السّماويّة، كالحديث عن عودة المسيح عيسى بن مريم (عليه السّلام) ونزوله بفلسطين، جعل من الشّعب الفلسطيني مُصدّقا أنّ:" في هذه المدينة، سوف يشهد العالم عودة عيسى بن مريم عليه السّلام، لذا كتب اللّه أن تكون عذاباتنا بداية طريق"[2].

---

[1] إيريك فروم: الإنسان بين الجوهر والمظهر، ترجمة: سعدون زهران، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، ع:140، 1989م. ص:127.

[2] إلياس خوري: أولاد الغيتو اسمي آدم، ص:276.

الفصل الثّالث: الهويّة في رواية أولاد الغيتو اسمي آدم لإلياس خوري

نرى؛ في الحديث تسليما كُليّا بقداسة المكان، لذلك أخصّ اللّه(سبحانه وتعالى) سُكّان فلسطين بالعذاب عن غيرهم من العرب، كبداية للنّهاية فالعالم سيشهد نزول سيّدنا عيسى بن مريم (عليه السّلام) هناك في فلسطين.

وهُنا، تتجلّى حقيقة فلسطين أرضًا مُقدّسة حسب الأديان السّماويّة، فالمُسلم يراها كذلك لأنّ عيسى (عليه السّلام) سينزل بها، وأنّ ما يمُرّون به من عذاب دليل قاطع يعكس حبّ اللّه لهم، أمّا اليهود فيرونها أرض ميعادهم.

بناء على هذه الأمور، زاد اعْتِقاد الشّعب العربي الفلسطيني بالأضرحة والأنبياء وُفقا للخلفيّة المُسبقة الّتي تقول بقداسة المنطقة، بغضّ النّظر عن دينه سواء أكان مسلما أو مسيحيّا من ذلك، يقول آدم عن الوليّ الصّالح أو (النّبي الأخضر) كما أُطلق عليه من قِبل الفلسطينيّين، إنّ:" النّبيّ الخضر أو الخضر الأخضر، هو في الذّاكرة الشّعبيّة الفلسطينيّة مزيج من رجلين، القدّيس جاورجيوس الّذي كان ضابطا رومانيّا اعتنق المسيحيّة، والنّبيّ إلياس الّذي قتل ثلاثمئة من أنبياء البعل بفكّ حمار دفاعا عن إيمانه بالواحد الأحد، قاتل التّنّين الّذي كان يفترس عذريّة فتيات المدينة، وقاتل الأنبياء الكذبة بطلان خرافيّان امتزجا في الذّاكرة ليجعلا من اللّدّ مدينة تحميها الحكاية"[1].

اختلطت النّظرة الدّينيّة عند الشّعب الفلسطيني بالخُرافات، انطلاقا من كون (الوليّ الأخضر) مزيج من رجُلين القدّيس (جاورجيوس والنّبي إلياس)، كأنموذج للبطل الأسطوري الّذي يحمي سُكّان اللّدّ الفلسطينيّة.

[1] إلياس خوري: أولاد الغيتو اسمي آدم، ص:279-280.

الفصل الثّالث: الهويّة في رواية أولاد الغيتو

اسمي آدم لإلياس خوري

لذلك، تساءل آدم دنّون عن غياب النّبيّ الأخضر أيّام النّكبة والشّتات، يقول:" لكن كلّ هؤلاء الأنبياء عجزوا عن منع الكارثة عام1948، بقوا في قبورهم في انتظار المدد الإلهي، وتركوا دموع نساء اللّدّ تتحجّر على أعتاب مقاماتهم الّتي اندثر معظمها"[1].

وهكذا، يشكّل عجز الأنبياء عن إيقاف النّكبة الفلسطينيّة عام 1948م، مِحور تساؤل (آدم دنّون) الّذي اعتبر الأمر مُجرّد تلفيق اعتقادي لا أساس له منَ الصّحّة.

إجمالا يُمكننا الحديث عن بعض أفعال النّساء الفلسطينيّات وولائهنّ للأضرحة، وما منال إلّا واحدة من النّساء اللّواتي أثبتن حقيقة اعتقادهنّ، في ذلك يقول آدم:" كانت منال تأخُذني صباح كلّ يوم جمعة إلى مقام النّبيّ دنّون، تُضيء ثلاثة شموع وتجلس صامتة بالبكاء، وتأمرني بأن أجلس إلى جانبها، هذا مقام جدّك الوليّ الطّاهر، قالت؛ عندما تُصيبك ضائقة تعال إلى هنا وتكلّم مع النّبيّ دنّون، واطلب منه ما تشاء وهو سيستجيب لطلباتك"[2].

كلّ هذه الحالات تُثبِت حقيقة الاعتقاد الدّيني الخاطئ؛ إذْ تبقى صور إضاءة الشّموع والإلحاح بالشّكوى أمام الضّريح طلبا يُرجى تحقيقه، وهكذا ضاعت عقيدة الفلسطيني بضياع الهُويّة، ولذلك نجد أنّ: مسألة الدّين كثيرا ما شكّلت عائقا يقف بوجه التّحضّر والتّمدّن، فهي دعوة تُجبر الإنسان على الرّكود كانكفاء على الذّات، أو بصيغة الحلال والحرام ما يجعل المُجتمع يُعاني في شتّى مجالات الحياة بصرف النّظر عن نوعها.

على هذا، يقول مصطفى الحسن انطلاقا من فكرة الأصالة والمُعاصرة الّتي رأى فيها:" الحداثيّون أنّ الدّعوة إلى الأصالة غالبا ما تكون مُؤشّرا إلى الانكفاء على الذّات أمام الدّعوة إلى التّقدّم والتّمدّن أو في مواجهة التّحوّلات المُنهمرة على المُجتمع في شتّى المجالات"[3].

---

[1] المصدر نفسه، ص:279-280.

[2] المصدر نفسه، ص:280.

[3] مصطفى الحسن: الدّين والنّصّ والحقيقة قراءة تحليليّة في فكر محمّد أركون، الشّبكة العربيّة للأبحاث والنّشر، بيروت-لبنان، ط1، 2012م. ص:40.

الفصل الثّالث: الهويّة في رواية أولاد الغيتو اسمي آدم لإلياس خوري

من هذا المنطلق، تمّ الالتفات لقصّة الأضرحة الزّائفة في فلسطين، يقول آدم:" مقام مُلفّق من ألفه إلى يائه لحكاية عائليّة لا أساس لها من الصّحّة فدنّون هذا ليس الجدّ الأكبر لوالدي حسن دنّون كما روت أمّي، وربّما لم يزر اللّدّ، ولا يعرف أحد شيئا عن سبب بناء مقام له في مدينتها؛ بل أغلب الظّنّ أنّه جزء من مطر الأنبياء الّذي هطل على بلادنا بعد نهاية الحروب الإفرنجيّة، الّتي يُطلقون عليها اسم الحروب الصّليبيّة، وملأ فلسطين مقامات وأضرحة"[1].

وبهذا، تكون قصّة (الولي دنّون) وغيره من الأنبياء، خُدعة هَطل ماؤها على فلسطين بعد الحروب الإفرنجيّة؛ حيث عملت على ملء فلسطين بالمقامات والأضرحة كخُطّة لإبعاد الشّعب الفلسطيني عن دينه وهُويّته.

في ذلك، يرى حسن حنفي أنّ: النّبوءة تظهر بعد المُعجزات والكرامات؛ حيث صارت تتجاوز بُعدها الدّيني إلى السّياسي والاجتماعي كموضوع فردي وجماعي ضمن الدّولة[2].

وبالتّالي؛ أصبح الفكر الإنساني العربي مُعتقِدا بوجود المُعجزات والكرامات، ما يحُزّ الجانب الدّيني الفردي والجماعي ضمن الدّولة؛ إذْ صار لهذه الاعتقادات أثرا سَلبيّا على جميع الأصْعِدة كالسّياسيّة والاجتماعيّة وغيرهما.

واضِح من كلّ هذا أنّ الإنسان حينما يتعرّض لمشاكل الهُويّة يُصبح أكثر تعلّقا بالمُعتقدات، على الرّغم من إدراكه أنّها بالية وتعمل على تشتيت علاقة الإنسان بدينه، كحال الواقع الفلسطيني الّذي بات مسرحا للأضرحة والأنبياء وغيرهم من صُنّاع المُعجِزات، بناء على ذلك، يقول آدم دنّون:" قال الشّيخ علينا الولاء لهذه الدّولة الجديدة، فهي لن تكون أسوأ من الغزاة الّذين سبقوها؛ بل إنّ اللّه عزّ وجلّ أقامها هنا كَيْ يكون مقتل عيسى للدّجّال

[1] إلياس خوري: أولاد الغيتو اسمي آدم، ص:286.

[2] ينظر: حسن حنفي: مِنَ العقيدة إلى الثّورة(4- النّبوءة- المعاد)، مؤسّسة هنداوي، دد، دط، 2020م. ص:13.

الفصل الثّالث: الهويّة في رواية أولاد الغيتو اسمي آدم لإلياس خوري

على أيدي أتباع النّبيّ العربي حدثا مشهودا به يعمّ السّلام في العالم، أدخل هذا الشّيخ طفولتي في ثنايا تاريخ من الدّم الّذي اصطبغت به المدينة منذ تأسيسها"[1].

ومن ذلك، تأتي مقولة شيخ الجامع الحاملة لنبوءة مقتل الدّجّال على أيادي أتباع النّبيّ العربي؛ ما يُحيل لقضيّة احتلال فلسطين من قِبل اليهود؛ حيث نرى في صورة المُحتلّ اليهودي انعكاسا لبداية الظّلم، لكنّ لهذه البداية نهاية بناء على ما جاءت به الأديان السّماويّة.

مِنْ هنا، يُمكن مُلاحظة ما يُمكن أنْ تُفصِح عنه حقيقة الاعتقاد بالنّبوءات، من باب حُصول المُعجزات كتحرير فلسطين من الغزو اليهودي.

لا شكّ، أنّ في هذه الاعتقادات نوعا من الدّمويّة، هذا ما حملته طُفولة(آدم) كفلسطيني عربي ارتَسَمت من خلالها صورة المُحتلّ اليهودي، فالتّاريخ لا يخلو من مشاهد الدّم والقتل.

الحقيقة أنّ لعلاقة الدّين بالهُويّة أثرا بارزا ينعكس من خلاله الواقع بأحداثه ومشاكله، من ذلك يرى حسن حنفي، أنّ:" هَمَّ الفكر والوطن، وهَمَّ الدّين والثّقافة والسّياسة، همٌّ مُستمرّ لجيلنا؛ فالأوطانُ مُسْتباحة، والدّين حنين إلى لماضي، والثّقافة عَجز عن التّعامل مع الحاضر وتَخَوّفٌ من المُسْتَقبل"[2].

من هذا؛ نفهم أنّ هَمَّ الرّاهن العربي لا يقتصر على ضياع الهُويّة العربيّة وحسب؛ إذْ تجاوزها لعناصرها المُحدّدة لها كمشكلة الفكر العربي وعلاقته بالهُويّة العربيّة المُشتّتة بين الأزمنة، ومُشكلة الدّين الّتي باتت تَهديدا للدّولة من الدّاخل، والثّقافة وعلاقتها بالسّياسة وما يعتريهما من مشاكل أشدّ خطورة من الاحتلال فالأوطان العربيّة مُسْتَباحة، ناهيك عن التّقيّد بالماضي وعدم مواكبة عجلة التّطوّر التّكنولوجي العلمي، كلّ هذه الأمور جعلت من الإنسان العربي مُتردّدا وخائفا من المُسْتقبل.

---

[1] إلياس خوري: أولاد الغيتو اسمي آدم، ص:279.

[2] حسن حنفي: عرب هذا الزّمان وطنٌ بلا صاحب، مؤسّسة هنداوي، دد، دط، 2021م. ص: مُقدّمة الكتاب.

الفصل الثّالث: الهويّة في رواية أولاد الغيتو

اسمي آدم لإلياس خوري

وعلى كلّ، إنّنا نخلص إلى القول: إنَّ عُنصر الدّين من بين ما حمله موضوع الهُويّة العربيّة، الّتي باتت تُعاني ضياعا مُسْتمرّا، بسبب المشاكل العالميّة ومدى تأثيرها على الإنسان العربي، الّذي أصبح ميّالا للتّعصّب.

3/ الوطن:

يُعدّ الوطن محلّ انتماء مكاني تتحدّد بواسطته الهُويّة الفرديّة والجماعيّة لفئة من البشر، ما أعطاه أولويّة التّميّز عن باقي عناصر الهُويّة.

فالوطن، مُكوّن رئيس للهُويّة انطلاقا من مبدأ الارتكاز الواقعي، كاشتغال حيّز مكاني من خلال عمليّة التّعمير البشري، من ذلك يرى فتحي المسكيني، أنّ:" الوطن هو نمط الإشارة الرّاهن إلى منطقة النّحن، الّتي لنا في كلّ مرّة، لكنّ الرّاهن ليس الإمكان الوحيد للوطن، لنقُل إنّ الوطن ضرب جذري من احتمال الرّاهن بوصفه نمط الوجود الّذي هو نحن"[1].

نفهم من ذلك؛ أنّ الوطن منطقة يقطُنها مجموعة من النّاس، يشتركون بالمكان الّذي عُدّ إشارة لمكان تواجُد الجماعة؛ أي البشر حيث لا يكون إنْ غابَت الجماعة الانتمائيّة.

تكمُن أهميّة الوطن من ناحية إبراز ملامح الهُويّة، الّتي أصبحت تتجرّع مرارة التّشتّت، وفي هذا النّطاق نُبيّن دور الرّواية العربيّة المُعاصرة وما أدّته من دور أساس في تناولها لمواضيع الرّاهن.

لعلّ ما يثير انتباهنا قضيّة فلسطين ومُعاناة شعبها من الغزو اليهودي، الّذي قام بانتزاع الوطن مِنْ بادئ ضرب الهُويّة العربيّة، هذا ما حَملته:" النّكبة والّتي نُلخّصها في مآسي،

[1] فتحي المسكيني: الهويّة والزّمان تأويلات فينومينولوجيّة لمسألة النّحن، ص:33.

الفصل الثّالث: الهويّة في رواية أولاد الغيتو اسمي آدم لإلياس خوري

وأوجاع الفلسطينيّين منذ 1948، اغتصبت أرضهم واستُبيح عرضهم، وصاروا عبيدا في وطنهم بعد أن كانوا سادة فيه"[1].

بمعنى؛ أنّ النّكبة الفلسطينيّة لخّصت أوجاع شعب دون هُويّة، تعرّض لاغتصاب أرضه وممتلكاته؛ حيث صاروا عبيدا عند الإسرائيلي.

وهذا ما يُحيل لمسألة ضياع الوطن، ففلسطين قضيّة الرّاهن العربي الّذي بات مركزا للأزمات بصَرف النّظر عن نوعها، لذلك طُرحت الأسئلة حول مسألة شتات الهُويّة الفلسطينيّة، حيث جاءت كتوضيح للمجازر المُرتكبة بحقّ الشّعب العربي، من ذلك يقول (آدم دنّون):" تبدوا هذه الأسئلة خارج السّياق؛ لأنّ البحث في تفاصيل المذابح ليس مُجديا، حين يأتي في سياق مذبحة شاملة تعرّض لها شعب كامل!"[2].

وبالتّالي؛ فإنّ المذبحة الشّاملة الّتي تعرّض لها الشّعب الفلسطيني عام 1948م، كانت كفيلة بنقل الصّورة كما هي دون إضافات، فحقيقة البحث عن حيْثيّات المذابح ليس بالأمر المُجْدي؛ لأنّ حجم الكارثة تجاوز معنى المذبحة العاديّة.

يأتي قول (آدم) كإنسان فلسطيني دون وطن وهُويّة:" وأعترف الآن، وأنا ابن المدينة الذّبيح، أنّني لم أكتشف حقيقة هذه النّكبة المُستمرّة إلّا عندما صار في إمكاني أن أحكي، اضطررتُ أنْ أقرأ كثيرا، وأَلتقي بالعديد من النّاس، وأعتصر ذاكرتي كي أصل إلى هذه المعرفة"[3]، هكذا تجلّت صورة الوطن الضّائع فلسطين، مع ذلك فآدم يعترف بانتمائه إليه كوطن، وكلّ هذا دفعه للبحث عن حقيقة النّكبة الفلسطينيّة كحادِثة أهلها المُسْتمرّة، لذلك

---

[1] عبد الرّحمان بن يطّو: السّرد التّوثيقي في الرّواية العربيّة بين المرجعيّة والواقعيّة والمُتخيّل التّاريخي مقاربة توثيقيّة لرواية(مصائر) لربعي المدهون، دفاتر مخبر الشّعريّة الجزائريّة، قسم الأدب العربي، جامعة محمّد بوضياف، المسيلة، الجزائر، أكتوبر 2019م.ع:10، م:03، ص:159.

[2] إلياس خوري: أولاد الغيتو اسمي آدم، ص:310.

[3] إلياس خوري: رواية أولاد الغيتو اسمي آدم، ص:311.

الفصل الثّالث: الهويّة في رواية أولاد الغيتو

اسمي آدم لإلياس خوري

اضطر لقراءة الكثير عن النّكبة، كما سعى للالتقاء بعديد الشّاهدين على الحكاية المُؤلمة، لكن لمْ يمنعه ذلك من اعتصار ذاكرته بتذكّر الحقيقة كما عاشها بفلسطين.

نفهم من ذلك؛ أنّ (آدم) لمْ يبنِ قصّة اللّدّ والنّكبة منْ فراغ؛ حيث كان للتّوثيق والاستدلال أثره الواضح من خلال عمله الإبداعي.

ومنه، حملت الدّولة أبعادًا انتمائيّة تُفْصِحُ عن العلاقة الوثيقة بين الإنسان والأرض، يرى في ذلك محمّد عابد الجابري أنّ الدّولة:" تنظيم اجتماعي سياسي طبيعي كامن أو ظاهر"[1]، مِنْ ذلك تتّضح دلالات الدّولة أو الوطن؛ حيث عُدّت تنظيما سياسيّا اجتماعيّا تبرز من خلاله الهُويّة الفرديّة والجماعيّة لفئة من البشر ضمن نطاق مُعيّن.

أمّا عبد اللّه العروي فيرى الدّولة:" مُستودع الهويّة الجماعيّة، ومجال ممارسة السّلطة ومبدأ الاندماج والتّوحيد للمجتمع الّذي بدون توسُّطها، سيتعرّض لا محالة للفوضى والانفجار والانحلال"[2]؛ يعني ذلك أنّ الدّولة حمولة تختصر الهُويّة الجماعيّة؛ حيث يقع المجتمع بحالة فوضى وانحلال بضياعها.

وفي حالة الشّعب الفلسطيني تُصبح الدّولة تعبيرا يدلّ على الإسرائيلي بفلسطين كصاحب أرض، في ذلك يقول (آدم):" الدّولة تعرف كيف تعتني بأملاكها"[3]؛ فالدّولة المَعْنِيّة هُنا إسْرائيل، الّتي تعْرِف كيف تسْتَخدم أملاكَها.

وهنا، تتجلّى هُويّة الفلسطيني الضّائعة جرّاء المُحتلّ الإسرائيلي، من باب امتلاكه للأرض والوطن فلسطين الّذي أصبح مُحتلّا من قِبل (اليهود)، ما جعل الإنسان الفلسطيني على هامش الهُويّة والوطن.

---

[1] محمّد عابد الجابري: العقل السّياسي العربي: محدّداته وتجلّياته، مركز دراسات الوحدة العربيّة، بيروت، ط1، 1990م. ص:49.

[2] عبد اللّه العروي: مفهوم الدّولة، المركز الثّقافي العربي، الدّار البيضاء– المغرب، دط، 2014م. ص:31.

[3] إلياس خوري: أولاد الغيتو اسمي آدم، ص:337.

الفصل الثّالث: الهويّة في رواية أولاد الغيتو

اسمي آدم لإلياس خوري

وهكذا، يُحافِظُ الإسرائيلي على أملاكه بفلسطين؛ بالخُصوص حينما:" أبلغَ الضّابط الإسرائيلي سكّان الغيتو أنّه في صباح الأحد18 تمّوز سوف يبدأ العمل، غدا السّبت في هذه البلاد صار السّبت يوم العطلة لا أحد يعمل، العمل يبدأ صباح الأحد ستسمعون صوت ثلاث رصاصات في السّادسة صباحا، من أجل البدء بتنظيف المدينة، شرح الضّابط بصوت هادئ ورتيب مهمّة المجموعات، وقال إنّ جُنديين مُسلّحين سيرافقان كلّ مجموعة(...) ومجموعة خامسة مهمّتها تنظيف مقرّ القيادة العسكريّة الإسرائيليّة الّتي تقرّر أن تكون في منزل حسن دهمش، وهو بيت كبير تحوطه حديقة فسيحة، وفي منزل سعيد الهنيدي المواجه له"[1].

هذه صورة كفيلة بعكس الواقع الفلسطيني كحقيقة السّيد المالك والعَبد المملوك، الأمر الّذي يُؤدّي إلى إدراك صاحب القُوّة والنّفوذ بفلسطين.

كلّ هذا جعلنا نرى في (الصّهيوني) صاحِبا للوطن الّذي صار حِكرا على الفلسطيني، وتمَّ اكْتِشاف هذا من مجموعة الأوامر الّتي أصدرها الضّابط الإسرائيلي بسُكّان الغيتو، أو بقايا الشّعب الفلسطيني النّاصّة على البدء بعمليّات التّنظيف لمقرّ القِيادة العسكريّة الإسرائيليّة، الّتي تقرّر جعلها بمسكن حسن دهمش لوساعته وانشِراحه.

من هذا المُنطلق، يتبيّن مالك الوطن من فاقِده، فمن الغريب أن نُسلّم بأنّ فلسطين أرض لليهود، هذا ما يُحتّم علينا المرور بتاريخ فلسطين للتّذكير أنّ فلسطين للعرب منذ العهد القديم، ومنه:" يعود الوجود العربي في أرض فلسطين إلى العصور القديمة؛ إذْ اتّخذ العرب فلسطين موطنا لهم منذ القديم"[2].

---

[1] المصدر نفسه، ص:349.

[2] علي أبو الحسن وآخرون: فلسطين العربيّة في ظلّ الاحتلال الصّهيوني منطقة نفوذ للولايات المتّحدة الأمريكيّة ، دار الحكمة ، بيروت– لبنان، ط1، 1990م. ص:13.

الفصل الثّالث: الهويّة في رواية أولاد الغيتو اسمي آدم لإلياس خوري

فلسطين ملك للإنسان العربي منذ القديم، لكنّ الواقع يُظْهر لنا العكس؛ إذْ باتت وطنا لليهود مُباشرة بعد وعد بلفور النّاصِّ بإنشاء وطن لليهود بأرض فلسطين، على ذلك:" بدأ الاستعمار والصّهاينة خطوتهم الأولى بعد وعد بلفور المشؤوم القاتل، بفكرة إنشاء وطن قومي لليهود"[1].

وهكذا، انتُزعت فلسطين من الإنسان العربي وقُدّمت (لليهود)، الّذي تفنّن بتعذيب شعبها لحدّ الآن.

هذا مشهد من مشاهد إسقاط مدينة اللّدّ الفلسطينيّة؛ حيث:" اختلطت أصوات المدافع والرّصاص بهدير الطّائرات الّتي قصفت المدينة، الطّائرات تحتلّ السّماء وتُرسل حممها والشّعور بالكارثة يلفّ الجميع، في حوالي الخامسة من بعد ظهر الأحد 11تمّوز تقدّمت قُوّة إسرائيليّة من الشّرق، من ناحية مستعمرة بن شيمين، مؤلّفة من رتل من السّيّارات العسكريّة، فاخترقت المدينة من شرقها إلى غربها، وهي تُطلق النّار بشكل عشوائي على كلّ شيء(...) يستطيع موشيه دايان أن يفتخر على أقرانه من قادة حملة داني، بأنّ قافلته أنهت المعركة في ساعة واحدة، هي المدّة الّتي استغرقها عبور القافلة الإسرائيليّة من بن شيمين إلى الجامع الكبير، وهو على حقّ فلقد حسمت قافلة دايان المعركة لصالح الهاغانا، لأنّها حوّلت احتلال اللّدّ من معركة إلى مذبحة"[2].

من هنا، تتجلّى حقيقة المُحتلّ، الّذي جعل من مدينة اللّدّ الفلسطينيّة تمثيلا للمذبحة الجماعيّة.

---

[1] صالح صائب الجبّوري: محنة فلسطين وأسرارها السّياسيّة والعسكريّة، المركز العربي للأبحاث ودِراسات السّياسات، بيروت، ط1، 2014م. ص:47.

[2] إلياس خوري: أولاد الغيتو اسمي آدم، ص:308.

الفصل الثّالث: الهويّة في رواية أولاد الغيتو اسمي آدم لإلياس خوري

ومن مثيل ذلك، اختلاط الأصوات كدويّ المدافع والرّصاص المَصحوب بهدير الطّائرات، إنّها الحرب وليست معركة فخلال ساعة من الزّمن سقطت المدينة بأيادي اليهود، لكنّ حصيلة القتلى والنّازحين قدّرت حجم الكارثة.

من ذلك، يقول آدم عن كيفيّة رد الفلسطيني على آخَرِه(الإسرائيلي):" هذا ما حاولت أن أشرحه لدالية، حين كنّا نناقش العمليّات الانتحاريّة، قُلتُ لها إنّني أرى أشباح الموت في عيون الانتحاريّين، فعيون هؤلاء الفتية مسكونة بالقتل ونقيضه، القتل موجّه نحو الآخر، تقتل الآخر كَيْ لا تموت، أمّا العمليّة الانتحاريّة فموت مزدوج، هذه الرّغبة في القتل ليست ابنة ذاكرة النّكبة، كما يظنّ البعض؛ بل هي النّكبة المَعيشة، فإسرائيل حوّلت حيوات ثلاثة أجيال من الفلسطينيّين إلى نكبة مستمرّة، الإسرائيليّون الّذين راهنوا على نسيان الفلسطينيّين لحكايات نكبتهم، قاموا بحماقة من يمتلك القوّة، بفرض نكبة مستمرّة على الفلسطينيّين، إسرائيل لا تزال تمارس فعل تنكيب الفلسطينيّين كلّ يوم"[1].

الواقع أنّ للعمليّات الانتحاريّة تَأْثير على الإنسان الفلسطيني، بحُكم أنّه فاقدٌ لحياته؛ لأنّ الإسرائيلي حوّل حياة أجيال من الفلسطينيّين إلى نكبة مُسْتمرّة.

لذلك، وجد الفلسطيني كمُشتّت للوطن والهُويّة لذّة في القيام بالعمليّات الانتحاريّة انتقاما من المُحتل.

وما زاد الطّين بلّة، مشكلة انتزاع الأملاك من الفلسطينيّين وجعلهم في عِداد الغائبين، هذا ما قامت به القوّات الإسرائيليّة مع الشّعب الفلسطيني، حينما انتزعت منه أراضيه وأملاكه بالقوّة، وعليه، فإنّ:" أراضي المدينة صارت في عهدة الدّولة؛ لأنّها سُجّلت في لائحة أملاك الغائبين"[2].

---

[1] المصدر نفسه، ص:282.

[2] إلياس خوري: رواية أولاد الغيتو اسمي آدم، ص:337.

الفصل الثّالث: الهويّة في رواية أولاد الغيتو اسمي آدم لإلياس خوري

بناء على ذلك، يقول (خالد حسّونة كعضو في اللّجنة الخاصّة برعاية سكّان غيتو اللّدّ)، مايلي:" إيش هاي غائبين، قال خالد بالغيتو أربع زلّام عندهم أراضي مزروعة زيتون، وهيّانا حاضرين، وبدناش إشي، بس الإذن بالوصول لأرضنا، كلّا قال الحاكم العسكري، أنتم قانونيّا غائبون؛ يعني مشْ موجودين؟ قال إيليا، بالضّبط، بس إحنا موجودين؛ يعني صرنا أشباح! أجاب الحاكم العسكري، أعتقد أنّ اسمكم القانوني سيكون الغائبون– الحاضرون"[1].

نفهم من ذلك؛ أنّ الشّعب الفلسطيني صار غائبا داخل وطنه، هذا ما اكتشفناه من قول الحاكم العسكري لخالد حسّونة عن وضع حقول الزّيتون؛ حيث أخبرهم أنّ اسمهم القانوني الغائبون/الحاضرون.

هذا يعني؛ أنّ: حقيقة تغييب الفلسطيني من ضمن ما نصّت عليه بنود السّياسة الصّهيونيّة المُطبّقة بفلسطين.

لعلّ ما يُفسّر ذلك الحوار الّذي دار بين (إيليا بطشون) بالنّيابة عن ملّاك الأراضي الفلسطينيّين والضّابط العسكري الإسرائيلي، يقول الضّابط الإسرائيلي:" هذا هو القانون، ومن غير المسموح لكم الوصول إلى حقول الزّيتون وقطفها"[2].

من هنا، تجسّدت وضعيّة الفلسطيني في ظلّ الدّولة الجديدة، اضطهاد وانتزاع للأملاك بالقُوّة، ناهيك عن جعلهم غائبين/حاضرين.

من ذلك، يُواصل إيليا بطشون مُحاورته والضّابط الإسرائيلي:" منقطفها ومنعطيكم ياها، بيسواش يضلّ الزّيتون على الشّجر، قال إيليا...، لا علاقة لكم بالموضوع، الدّولة تعرف

[1] المصدر نفسه، ص:337.

[2] إلياس خوري: رواية أولاد الغيتو اسمي آدم، ص:337.

الفصل الثّالث: الهويّة في رواية أولاد الغيتو

اسمي آدم لإلياس خوري

كيف تعتني بأملاكها"[1]، تجلّت حقيقة الإسرائيلي من خلال تصريحه لإيليا بطشون، أنّ الدّولة الإسرائيليّة تعرف كيف تعتني بأملاكها؛ ما يعني أنّ لا علاقة للفلسطيني بممتلكاته.

من هنا، تتّضح ملامح الوطن الضّائع، ففلسطين وطن دون هُويّة، لذلك اقتصر تواجد الفلسطيني على أرضه الرّضوخ لسياسات المُحتلّ من باب الحِفاظ على حياته، الّتي أصبحت مُثْقلة بالآلام والمُعاناة جرّاء ضياعِ الوطن والهُويّة.

4/ توظيف التّراث:

يُعدّ التّراث من عناصر الهُويّة باعتباره تمجيدا لرموز الثّقافة المَحليّة، من باب الحِفاظ على مُقوّمات الانتماء الفردي والجماعي.

على ذلك، كان التّراث الشّعبي أحد ركائز الهويّة الوطنيّة؛ حيث حمل في ثناياه مُجمل مأثورات الأمّة ومُؤصّلات بقائها؛ إذن هو كلّ ما يمثّل الأمّة ويعبّر عنها من أغانٍ شعبيّة ورقص وحكايات وأزياء ومأكولات شعبيّة، يقول في ذلك فوزي العَنتيل، إنّ:" التّراث هو الثّقافة، أو العناصر الثّقافيّة الّتي تلقّاها جيل عن جيل، أو الّتي انتقلت من جيل إلى آخر"[2]، وهكذا، اشتمل التّراث على مُحدّدات الثّقافة المُتواترة جيلا بعد جيل للحفاظ على الهُويّة المحليّة وحِمايتها من الاندثار.

من هذا المُنطلق، تبنّى الكاتب الرّوائي العربي مُحدّدات هُويّته داخل نصّه الإبداعي، بغرض الحفاظ على الهُويّة الّتي باتت تُعاني الشّتات.

هذا ما لاحظناه عند إلياس خوري في روايته(أولاد الغيتو اسمي آدم) وغيره كثير من الكتّاب الّذين تبنّوا نقل واقعهم بمشاكله، كقضيّة الهُويّة الفلسطينيّة الضّائعة ومعاناة الإنسان الفلسطيني مع شتاته الذّاتي والجماعي.

---

[1] المصدر نفسه، الصّفحة نفسها.

[2] فوزي العنتيل: الفولكلور ما هو؟ دراسات في التّراث الشّعبي، دار المعارف، مصر، دط، 1965م. ص:77.

الفصل الثّالث: الهويّة في رواية أولاد الغيتو

اسمي آدم لإلياس خوري

لذلك، ركّز إلياس خوري على توظيف عناصر الهُويّة كإشارة دالّة على حضور الهُويّة الفلسطينيّة، انطلاقا من اللّغة العربيّة، والدّين، والوطن، والتّراث الشّعبي كَمَدلولات ثقافيّة للمنطقة.

ونُميّز من خلال الرّواية بعضا من ملامح التّراث الثّقافي الفلسطيني، انعكست في عدّة مظاهر كالأزياء والأكلات الشّعبيّة الّتي تمَيّزت بها المنطقة، لذلك ذكر إلياس خوري أكلة الفلافل المُختلف بأصولها، في ذلك يقول:" قُلتُ لتلميذتي الكوريّة إنّني فهمتُ الآن سبب إعجابها بهذا المطعم الإسرائيلي، فالمسالة لا تتعلّق بالطّعام؛ بل بصاحب المطعم، لكنّني كنت على خطأ، ربّما كان هذا أطيب سندويتش فلافل أكلته في حياتي، نحن في بيروت ندّعي أنّنا أفضل من يصنع الفلافل في العالم، والفلسطينيّون يقولون إنّ الإسرائيليّين سرقوا الفلافل منهم، وهم على حقّ في هذا"[1].

وهكذا، أكّد الفلسطينيّون كأصحاب تُراث وثقافة أنّ أكلة الفلافل تخُصّهم، وأنّ الإسرائيلي عمل على سرقتها منهم كمُحتل.

بهذا، تتكَشِف دلالات الحُضور والغياب كحالة الشّعب الفلسطيني وتُراثه الثّقافي، الّذي أصبح حِكرا عليه ومَنسوبا لثقافة الآخر المُحتل.

من هذا المُرتكز، يحكي آدم قصّته وصديقه الإسرائيلي صاحب المطعم الّذي أصبح شريكا فيه:" في هذا اللّقاء، قرّرتُ الهجرة إلى نيويورك، عرض عليّ العمل في مطعمه النّيويوركي الّذي كان يواجه مصاعب ماليّة، دخلتُ شريكا بالمال الّذي كنت قد جمعته بنيّة الزّواج، وصرتُ بائعا للفلافل وشيفا حقيقيّا عبر الإضافات الّتي أدخلتها إلى قائمة الوجبات السّريعة في المطعم، من المناقيش الكبيرة الّتي أطلقنا عليها اسم بيتزا الشّرق، وأدخلنا إليها مناقيش الكشك، الّتي لاقت رواجا كبيرا، إلى أصناف الباذنجان، الّتي تحوّلت إلى الطّعام المفضّل لزبائن المطعم؛ وخصوصا الباذنجان المكدوس الّذي صار السّندويش الأشهر، وهو

[1] إلياس خوري: أولاد الغيتو اسمي آدم، ص:09-10.

الفصل الثّالث: الهويّة في رواية أولاد الغيتو

اسمي آدم لإلياس خوري

كناية عن باذنجان محشوّ بالجوز والثّوم ومكبوس بزيت الزّيتون، أطلق عليه ناحوم اسم أوليف إيغ بلانت، بالإنكليزيّة و حتسليم مكدوس بالعبريّة"[1].

وحتّى تضتّضِح الرُّؤية أكثر حول مصير آدم، فقد اتّخذَ قرار الفِرار من فلسطين بالهجرة لأبعد نقطة من العالم، بغرض النّسيان لكنّه رحل وأخذ معه تُراث فلسطين الثّقافي؛ حيث قادته الأقدار لفتح مطعم للفلافل والأكل الفلسطيني، وللأسف الشّديد فقد طغت المُسمّيات العِبريّة على العربيّة فبات المطعم (يهوديّا) بامتياز.

من ذلك، يقول رمضان عبد الهادي، إنّ:" الاحتلال لا يستهدف فقط اغتصاب الأرض، وإن كان ذلك في رأس أهدافه، ولكنّه يريد التّدمير الكامل لشعبنا ماديّا ومعنويّا، وذلك من أجل ضمان استمرار احتلال الأرض، ولذلك نراه يبذل جهودا دائبة ومنهجيّة، لتحطيم قوّة شعبنا البشريّة، ونسف جميع المثل والتّقاليد والعادات والأخلاق، ومسح تراثنا الفنّي، وتزييف تاريخنا وتشويهه وتغيير الملامح الدّيموغرافيّة للمناطق المحتلّة"[2].

نرى أنّ، المُحتل ينتهج ثقافة الأخذ بالقُوّة، كمُحاولة محو الهُويّة الثّقافيّة لأهل المنطقة المُحْتلّة، فتراهُ يسْعى لاغْتِصاب الأرض بدْءًا كهدف اجتهد بالوُصول إليه، ثمّ يعمل على التّدمير الكامل للشّعب ماديّا ومعنويّا، ثمّ تدمير المنشآت والمرافق العامّة لضرب السّكّان الأصليّين في الهُويّة، وهذا ما يضمن بقاءه بالمنطقة المُحتلّة.

كما يعمل على نَسْفِ عادات وتقاليد المنطقة وما تمتاز به عن غيرها؛ إذْ يقوم بمسح التّراث الثّقافي وتزييف التّاريخ وتغيير ملامح المنطقة، كلّ ذلك بدافع تشتيت الهُويّة المحليّة للبلد المُحتل.

---

[1] إلياس خوري: رواية أولاد الغيتو اسمي آدم، ص:103.

[2] رمضان عبد الهادي: الفلكلور الفلسطيني بصمة لتأصيل الهُويّة، مؤسّسة سلطان بن علي العويس الثّقافيّة، دبي- الإمارات العربيّة المتّحدة، دط، 2009م. ص:73-74.

الفصل الثّالث: الهويّة في رواية أولاد الغيتو

اسمي آدم لإلياس خوري

دون إطالة، يقوم (آدم) بِذكر بعض المأكولات الفلسطينيّة الشّهيرة، يقول:" واللّه، لم أذق في حياتي طعاما أطيب من المأكولات الّتي صنعها أهل الغيتو من اللّحوم والعظام! منال، صنعت الكبّة النّيئة على طريقة أهل عيلبون، وخلود صنعت الكروش والمقادم والرّؤوس، وتمّ إعداد البرغل باللّحم، وطبخ النّاس الملوخيّة على عظام الخروف"[1].

من هنا، تجلّت لائحة بأصناف المأكولات الفلسطينيّة المشهورة كالكبّة النيّة والكروش والمقادم والرّؤوس، والبرغل، والملوخيّة، والمقلوبة.

في ذلك، يُضيف آدم رأيا لمُراد الّذي:" قال(...) إنّه لن ينسى طعم مقلوبة الزّهرة الّتي أعدّتها حُسنيّة، المرأة الخمسينيّة الوحيدة الّتي كانت تقيم في الجامع خلف حرام صوفي ولا تتكلّم إلّا مع نفسها، بس لو كنت رسّام حتّى أورجيك كيف فجأة شعّ الجمال من عيون المرأة، وهي عم تقلي الزّهرة وتفلفل الرّز، وكيف صارت صينيّتها محور أحاديث أهل الغيتو لفترة طويلة"[2]؛ نفهم من ذلك، أنّ طبخة مقلوبة الزّهرة من أشهى ما أبدعته أنامل الفلسطينيّات، كحُسنيّة المرأة ذات الخمسين ربيعا أيّام الغيتو؛ حيث اشتهرت ببراعتها بهذه الطّبخة التّراثيّة الفلسطينيّة.

الواقع أنّ؛ التّراث الشّعبي تمثيل للهُويّة الثّقافيّة، لذلك يصحُّ القول، إنّ:"التّراث ضروريّ في بناء الحضارات، ومُهمٌّ في خلق التّنوّع الثّقافي، كما أنّه جدار قويّ للتّصدّي لمحاولات العولمة في تمييع هويّة الشّعوب وتنوّع ثقافتها"[3].

انطلاقا من مُعاناة الإنسان العربي وتُراثه الثّقافي، الّذي أصبح ضائعا كحال الهُويّة العربيّة، لعلّ الّذي جعل طبيعة الرّؤية على هذا المنحى حقيقة الرّاهن.

---

[1] إلياس خوري: أولاد الغيتو اسمي آدم، ص:393.

[2] إلياس خوري: رواية أولاد الغيتو اسمي آدم، ص:396.

[3] مليكة بن غومار: التّراث الأدبي وأهميّته في الأدب العربي الحديث ونقده، حوليّات الآداب واللّغات، مجلّة علميّة دوليّة محكمة، كليّة الآداب واللّغات، جامعة محمّد بوضياف، المسيلة– الجزائر، م:09، ع:02، جوان 2021م، ص:79.

الفصل الثّالث: الهويّة في رواية أولاد الغيتو اسمي آدم لإلياس خوري

إذن؛ هي الهويّة برمزيّتها التّي تنطلق في الأساس من أصالة الأشياء والأماكن، في ذلك ينقل لنا (آدم) حيثيّات لقائه (بمراد العلمي)، كاشفا بعض ما دار بينهما من حديث حول أصل أكلة الفلافل، يقول:" جاء الرّجل إلى مطعمي كي يطلب سندويش فلافل، كانت السّاعة تُشير إلى الرّابعة بعد الظّهر، والمطعم شبه فارغ جلس وحيدا خلف الطّاولة الخشبيّة، وبدأ يأكل سندويشه بلقمات صغيرة وعندما رآني أبتسم من طريقته في الأكل، ابتسم وتكلّم معي بالعربيّة، قائلا إنّه يشتهي الفلافل، لكنّه توقّف عن أكلها في أمريكا بسبب أوجاع معدته، ثمّ أضاف إنّه أيضا لا يحبّ أن يأكلها في المطاعم الإسرائيليّة المنتشرة في المدينة، لأنّه يشعر بالغيظ بسبب قُدرة الإسرائيليّين على تزوير كلّ شيء، وخصوصا الفلافل"[1].

من هنا، كان لتفاعل مُراد مع أُكلة الفلافل الفلسطينيّة وعزوفه عن تناولها بالمطاعم الإسرائيليّة، دلالة واحدة تمثّلت بكونه مواطنا فلسطينيّا يأبى لتراثه أنْ يُسرق كهُويّته.

كلّ هذا، جعله يلجأ للمطعم الّذي يعمل به آدم الفلسطيني الأصل، بالرّغم من أنّ مالك المطعم إسرائيلي، يقول:" هل تعلم، قالوا سرقوا البلد بشطارتهم وقوّتهم، صحّتين ومبروك عليهم، أمّا الفلافل فلا، تخيّل يُسمّون التّبولة سلطة الكيبوتز، والحمّص خمّص.. هل هذا معقول!هذه قلّة شرف، تعجّبتُ من هذا المنطق الّذي يقول صحّتين لسرقة بلد كامل، ثمّ يغصّ في صحن حمّص(...) أهلا فيك وبريحة فلسطين، بعد لحظة صمت، قلت له: بس إنت بمطعم إسرائيليّ، (إسرائيلي ومش إسرائيلي) قال، سألتُ وأخبروني أنّك فلسطينيّ، ولهذا جئت، وعندما عرف أنّني من اللّدّ، وأنّني آدم ابن الشّهيد حسن دنّون، نهض وأخذني في الأحضان"[2].

[1] إلياس خوري: أولاد الغيتو اسمي آدم، ص:367.

[2] المصدر نفسه، الصّفحة نفسها.

الفصل الثّالث: الهويّة في رواية أولاد الغيتو

اسمي آدم لإلياس خوري

يظهر من خلال، حديث مراد وآدم أنّ الإسرائيلي نجح في سرقة البلد فلسطين، بفضل قوّته وشطارته في انتزاع مقوّمات الهُويّة العربيّة الفلسطينيّة على حدّ تصريحه، لكنّه في الأَخير لنْ يستطيع سرقة الفلافل من الفلسطينيّين.

على العُموم لقد تَمَّ النّجاح بسرقة الأشياء والمُمتلكات من صِفات الإسرائيلي، الّذي نجح في سرقة فلسطين من أهلها.

نِهايةً، لقد ظهرت ملامح الهُويّة الثّقافيّة عند الإنسان الفلسطيني، من خلال حِفاظه على تُراثه الشّعبي وتمسّكه بعاداته وتقاليده، بالرّغم من ثقافة الإسرائيلي السّاعية لأخذ كلّ ما يدُلّ على الهُويّة الفلسطينيّة.

ثالِثًا/ السّرد والهُويّة:

كان السّرد ولا زال نُقطة ارتكاز المُبدع العربي، الّتي يبُثُّ من خلالها رؤاه حول أهمّ القضايا المُثارة بمختلف المجالات المعرفيّة، انطلاقا من تَصْوير بعض مشاهد الواقع كاشفا عن مقدار مُعاناة الإنسان العربي.

خاض الكاتب العربي تجربته الإبداعيّة، انطلاقا من مُعاناته كإنسان دون هُويّة، لذلك فإنّ:" صورة الأديب عن ذاته مزيج من الرّغبة والأمل، ما يُريده ويهْفو إليه وليس ما هو عليه حقيقة، وتكشف التّجارب أنّ ما يفهمه الأديب من أناه مُجرّد أوهام يخترعها ويُصدّقها حتّى لا تقتله الحسرة واليأس، انطلاقا من هذا الوعي بالذّات، يحمل الكاتب مُعاناته وانكساراته بين جَنبيه، مثل صخرة سيزيف مع فارق أنّ الصّخرة الّتي يحملها يزداد حجمها بتقدّم العمر؛ إذن هما مرارة الإخفاق وإحساس الانكسار"[1].

[1] عطيّة فاطمة الزّهراء: العجائبيّة وتشكّلها السّردي في رسالة التّوابع والزّوابع لإبن شُهيد الأندلسي ومنامات ركن الدّين والوهراني، دار المُثقّف للنّشر والتّوزيع، الجزائر(باتنة)، ط2، 2021م. ص:339.

الفصل الثّالث: الهويّة في رواية أولاد الغيتو

اسمي آدم لإلياس خوري

نرى من ذلك، أنّ للسّرد علاقة وثيقة بالهُويّة، فهو نقل لمُجريات الواقع وما يتخلّل الإنسان العربي من مشاكل وظروف، تكشف عن مقدار المُعاناة الفرديّة والجماعيّة.

وإنّ، لهذه الصّورة دلالة واضحة عن مِقدار المُعاناة الذّاتيّة، فالكاتب شبيه بسيزيف البطل الأُسطوري الّذي أرهقه حِمْل صخرته الّتي يزيد وزنها كلّما زاد عُمره، كحال المُبدع العربي الّذي يُعاني انكسارا لا محدودا جرّاء أحداث راهنه.

من النّماذج الكِتابيّة، الّتي دلّت على شعور الكاتب العربي بالانكسار والضّياع روايتنا محلّ الدّراسة وغيرها كثير، هذا ما لاحظناه كانعكاس لقضايا الواقع كاشفين عن مدى تأثيرها على الإنسان العربي.

لذلك، فالرّواية العربيّة بمثابة دليل واقعي، يعكس الحياة اليوميّة للإنسان العربي وما يُعانيه في ظلّ الرّاهن، في ذلك تقول يمنى العيد:" لئِن كان هذا السّؤال يعني التّحرّر من التّقليد والمحاكاة، فإنّه يثير في العمق منه إلى أنّ لنا حكايتنا، وأنّ علينا أن نقولها وإنّ قولها لا يستقيم إلّا بفنّيّ له، إن كيف أقول تعني كيف نُبدع رواية تقول حكايات نعيش أحداثها ونُعاني واقعها، رواية تستجيب لذاكرتنا وتاريخنا، وما تزخر به هذه الذّاكرة وينطوي عليه هذا التّاريخ"[1].

حريٌّ بِنا، أنْ نُشير لمسألة سُؤال الفكر كحقيقة القُدرة على عمليّة الكتابة، الّتي تقودنا للتّحرّر من عوائق التّقليد والمُحاكاة إلى إنتاج نصّ، بغضّ النّظر عن أسلوبه متَخيّلا أو واقِعيّا.

في هذا الشّأن، تتدخّل الذّاكرة والتّاريخ بعمليّة الإبداع؛ حيث تفرض سيطرتها على مُحتوى النّصّ الإجمالي، باعتبار الكاتب مُؤطّرا للعمليّة السّرديّة من ناحيّة البِناء القصصي.

[1] يمنى العيد: الرّواية العربيّة(المتخيّل وبنيته الفنيّة)، ص:07- 08.

الفصل الثّالث: الهويّة في رواية أولاد الغيتو اسمي آدم لإلياس خوري

فَمِنَ المعروف أنّ الرّواية من أكثر الفنون الأدبيّة شموليّة وقُربا من الواقع، وعليه، يقول إلياس خوري، إنّ:" أغلب الظّنّ أنّ سارانغ لي اعتقدت أنّني سأنفّذ ما عجزت هي عن تنفيذه، وسأقوم، بسبب المشكلة الّتي حدثت في قاعة السينما، بإحراق هذه الأوراق، لأنّني وبنزقي الأحمق، الّذي غالبا ما سبّب لي الكوارث، صرخت في وجه آدم، وقُلتُ إنّه رجل تافه، وإنّه هاجم كتابي؛ لأنّه لم يفهم شيئا، فأنا لم أكتب تاريخا؛ بل كتبت قصّة، لذا فأنا لا أعرف المصائر الحقيقيّة لشخصيّات من صنع الخيال، لا أدري لماذا أصرّ الرّجل على الادّعاء بأنّه يعرف شخصيّات روايتي، وبدا كالمخبول يهذي، وكان عليّ أن أقرأ هذه النّصوص كي أفهم معنى كلامه"[1].

وهكذا، سعى الكاتب إلياس خوري لقراءة نصّ (آدم دنّون) من باب الفضول وحبّ الاطّلاع، لكشف حقيقة الرّجل الّذي ثار على قِصّته.

وبذلك، يتجلّى الدّور الفاعل للرّواية والمُتمثّل في عكس حقيقة المُعاناة الواقِعيّة، انطلاقا من التّجربة الذّاتيّة للإنسان الكاتب.

هذا ما، دفع بإلياس خوري ككاتب إرسال دفاتر (آدم) للطّباعة والنّشر، بحُكم أنّ (آدم دنّون) قد كتب قصّة واقعيّة عاشها والشّعب الفلسطيني أيّام النّكبة والشّتات:" وَصَلَتْ إليَّ هذه الدّفاتر من طريق المصادفة، وتردّدت كثيرا قبل أنْ أُقرّر إرسالها إلى دار الآداب في بيروت كي تنشر، والحقيقة أنّ سبب تردّدي كان ذلك الشّعور الغامض الّذي يمتزج فيه الإعجاب بالحسد والحبّ والكراهية، فقد التقيتُ بكاتب هذه النّصوص وبطلها آدم دنّون أو دانون، عدّة مرّات في نيويورك، حيث أعمل أستاذا في الجامعة"[2].

[1] إلياس خوري: أولاد الغيتو اسمي آدم، ص:14.

[2] المصدر نفسه، ص:09.

الفصل الثّالث: الهويّة في رواية أولاد الغيتو

اسمي آدم لإلياس خوري

الظّاهر أنّ للإعجاب دوره الفاعل في تقييم النّصوص الأدبيّة؛ بالخصوص حينما يُثبت الكاتب جدارته التّأليفيّة.

مهما يكن، إنّ حقيقة العلاقة بين الكاتب والرّواية تنطلق بالأساس من الواقع المَعيش، كحال الفلسطيني (آدم دنّون) الّذي جعل من قصّته انعكاسا للمُعاناة الفرديّة والجماعيّة لشعب عربي ضاعت هُويّته وانكسر، يقول(آدم دنّون):" لنْ أكتب كناية، فالقارئ الّذي سيرى في حكاية وضّاح اليمن رمزا فلسطينيّا، سيجد في هذه القصّة استعارة إنسانيّة عن فلسطين وعن كلّ المُضطهدين في العالم؛ بل عن اليهود أيضا. لا أريد أنْ أسترسل في شرح دلالات النّصّ، لستُ متأكّدا من قُدرتي على كتابته، لكنّني كُنتُ أشعر بالاختناق كلّما قرأت في وجوه بعض الإسرائيليّين من أصدقائي أو في النّصوص الإسرائيليّة، ازدراء أو نقدا ليهود أوروبا الّذين سيقوا إلى الذّبح كالأغنام، أنا أعتقد أنّ تحوّلهم إلى هذه الصّورة كان بطولة"[1].

من هنا، تتجلّى حقيقة توظيف الكاتب للاستعارة والكناية، من باب ترميم النّصّ وإعطائه مسحة جماليّة تُضفي عليه حيويّة خاصّة، وبهذا يتجاوز النّصّ الإبداعي محدوديّة المؤلّف من سرد قصصي عادي إلى لا مألوف.

لكن، في حالة (آدم دنّون) الرّافض لاستخدام الاستعارات والكِنايات داخل نصّه، دليل قويّ يعكس تَجنّبه التّرميز والإيحاء؛ لأنّه لا يُريد الإحالة لفلسطين فنصّه عن وضّاح اليمن لا يرمز لفلسطين ولا غيرها من شعوب العالم المُضطهدة.

هذا ما لاحظناه من خلال تصوير يهود أوروبا الّذين سِيْقُوا إلى الذّبح كالأغنام بطولة، على عكس ما رآه النّقّاد والكُتّاب اليهود.

وعليه، فآدم يعجز عن مواصلة الكتابة، ويلجأ لعدّة نماذج ساعدته على اتّخاذ القرار الحاسم بمُواصلة الكتابة، يقول:" لكنّ فكرة هذه القصّة لا علاقة لها بالشّاة الّذي سيق إلى

[1] إلياس خوري: رواية أولاد الغيتو اسمي آدم، ص:29-30.

الفصل الثّالث: الهويّة في رواية أولاد الغيتو

اسمي آدم لإلياس خوري

المذبح ولم يفتح فمه، بحسب أشعياء النّبي؛ بل جاءت عندما شاهدت فيلم المخدوعون للمخرج توفيق صالح، وهو في فيلم سوري الإنتاج، أخرجه مصري عن رواية الكاتب الفلسطيني غسّان كنفاني رجال في الشّمس، هزّني الفيلم من أعماقي وجعلني أعود إلى قراءة الرّواية من جديد، ودفعني إلى اتّخاذ القرار بكتابة هذه الحكاية"[1].

على هذا الأساس، بنى (آدم) نصّه انطلاقا من مشاهد فيلم المخدوعون للمخرج السّينمائي توفيق صالح المأخوذ عن رواية الكاتب الفلسطيني غسّان كنفاني رجال في الشّمس، الّتي هزّت أعماقه وأَيقظت روحه الوطنيّة كفلسطيني دون هُويّة، ما جعله يعدل عن قرار ترك الكتابة.

من هنا، واصل آدم سرده النّصّي لحكايته والشّعب الفلسطيني، استنادا على نصّ كنفاني الّذي حمل صرخة اللّماذا الاستفهاميّة، يقول:" لم أحبّ صرخة نهاية الرّواية، الفلسطينيّون الثّلاثة الّذين دخلوا إلى خزّان الماء في شاحنة سائق، يشي اسمه وشكله بالغموض، ماتوا اختناقا في الخزّان الّذي كان من المفترض فيه تهريبهم من البصرة في العراق إلى جنّة الكويت، ماتوا في جحيم الخزّان قبل عبور نقطة الحدود العراقيّة- الكويتيّة، ولم يفعلوا شيئا، ما جعل الرّواية تصرُخ في أذنيْ السّائق تلك اللّماذا شبه المختنقة، فبدلا من أن تسأل الرّواية الفلسطينيّين الثّلاثة لماذا لم يقرعوا جدار الخزّان، رأينا أيديهم تقرع جدار الفيلم والخزّان معا"[2].

وهكذا، شقّ صمت الضّحايا الفيلم والرّواية معا، فبدل أنْ تصرخ الرّواية والشّبان الفلسطينيّين الثّلاثة سادَ الصّمت، واختَنقت اللّماذا كَصَرْخَةٍ للنّهاية.

---

[1] المصدر نفسه، الصّفحة نفسها.

[2] إلياس خوري: رواية أولاد الغيتو اسمي آدم، ص:30-31.

الفصل الثّالث: الهويّة في رواية أولاد الغيتو اسمي آدم لإلياس خوري

هُنا، يُصوّر كنفاني واقع الفلسطيني دون هُويّة؛ حيث يحيا في صمت ويموت بِصمت؛ ما يُفسّر عدم قرع الشّبّان لجدار الخزّان المائي.

لذلك، يرى آدم أنّ لا جدوى من صُراخ الضّحايا فالعالم لا يسمعهم كحال الشّعب الفلسطيني، من ذلك يقول آدم:" في الرّواية والفيلم تساوى القرع مع عدمه، فرجال نقطة الحدود الكويتيّة ما كان في مقدورهم أن يسمعوا وهم متحصّنون في غرفهم وأصوات المكيّفات تصمّ الآذان، وبذا، يصير السّؤال الحقيقي ليس عن خرس الفلسطينيّين؛ بل عن صمم العالم عن سماعهم"[1].

لِذا، فإنّ حقيقة الرّاهن الفلسطيني ومُعاناة شعبه، تُفصح عن صمم العالم الّذي أصبح لا يسمع أصوات المُسْتغيثين، برغم النّداءات إلّا أنّ لواقع الحال دلالاته المُتحكّمة به.

إذن؛ اتّسمت رواية كنفاني والفيلم بحقيقة الهُويّة الفلسطينيّة، من خلال صُور الرّجال الثّلاثة الّذين سُرعان ما أصبحوا ضحايا لصمم العالم.

لذلك، قرّر آدم ككاتب عدم التّرميز لفلسطين كَيْ يُجنّب نفسه الوقوع بخطأ غسّان كنفاني، يقول:" فكّرتُ أنّ مدخلي إلى كتابة روايتي سوف يكون مختلفا، لن أشير إلى فلسطين ولو بكلمة واحدة، وهذا سينقذني من المنزلق الّذي حوّل رواية كنفاني إلى رمز، عليك أن تفكّك عناصره كي تصل إلى الرّسالة الّتي يُريدها الكاتب"[2].

من هذا التّصوّر، يقف (آدم) عند بداية الحكاية الّتي يسعى جاهدا لإبعادها عن مُنزلقات الرّموز والدّلالات، لكيْ يُجنّب نفسه الوقوع بمطبّات الهُويّة كما فعل غسّان كنفاني، الّذي جعل من روايته (رجال في الشّمس) إحالة صريحة عن رمزيّة المكان فلسطين، ما دفع بالقارئ لعمليّة تفكيك عناصر النّصّ للوُصول إلى رِساليّة النّصّ.

[1] إلياس خوري: أولاد الغيتو اسمي آدم، ص:31.

[2] المصدر نفسه، ص:31.

الفصل الثّالث: الهويّة في رواية أولاد الغيتو اسمي آدم لإلياس خوري

لِذا، فإنّ على الكاتب الاشتغال على نصّه المُوجّه للقِراءة، من عِدّة نواحي من باب جذب انتباه المُتلقّي، الّذي أصبح يُعاني صعوبة تفكيك عناصر النّص، في ذلك يقول آدم:" نعم. الأدب مُنزّه عن المعنى الّذي يقع خارجه، وأنا أريد لفلسطين أنْ تصير نصّا منزّها عن شرطها التّاريخي الرّاهن، لأنّني بعد طول خبرتي في هذه البلاد، أعتقد أنّ لا شيء يدوم سوى العلاقة بأديم الأرض الّتي منها جاء اسم آدم عليه السّلام، الّذي أطلقوه عليَّ عند ولادتي، اسمي المنسوب إلى سيّدنا آدم هو العلامة الأولى الّتي أشارت إلى علاقة الإنسان بموته"[1].

وهُنا، تتّضِح جماليّة الأدب كمُنزّه للمعنى؛ حيث لا يحتوي المعاني الواقعة خارج نِطاقه، هذا ما احتجّ به آدم؛ لأنّ فلسطين نصّ مُنزّه عن واقعها الماضي والحاضر؛ ما يُفسّر علاقة الإنسان بالأرض كمُرْتكز يقف عليها، مُحيلا بذلك لأبعاد المكان كعلامة أولى تُفصح عن علاقة الإنسان بموته.

وهو كذلك، إنّها علاقة الإنسان بالأرض الّتي لا تكاد تخرج عن دلالات الحياة والموت، فقد ارتكز آدم دنّون على نِسبة اسمه لأديم الأرض كعلامة للعودة إليها.

بناء على هذا، استعان آدم ككاتب فلسطيني بمُراد الّذي عاش النّكبة والغيتو، بذلك فُتِحت دفاتر الذّاكرة الّتي اعتصرت كِلا الرّجُلين، يقول آدم:" قُلتُ إنّني موافق، رغم أنّني اختلف مع هذه النّظريّة بشكل كامل، لكنّني استغلّيت ثغرة كون الذّاكرة هي جِرار الشّعر، كي أقول إنّ الذّاكرة هي أيضا وطن من لا وطن له، ولا أُريد أن يفتح لي جِرار ذاكرته كي أُرمّم بها ذاكرتي"[2].

[1] إلياس خوري: رواية أولاد الغيتو اسمي آدم، ص:31.

[2] المصدر نفسه، ص:371.

الفصل الثّالث: الهويّة في رواية أولاد الغيتو اسمي آدم لإلياس خوري

منْ ذلك، كانت الذّاكرة مرجعيّة الإنسان يعود إليها عند الحاجة، فهي وطن من لا وطن له؛ إذْ يتبَيّن هُنا أنّ آدم استند على ذاكرة مُراد كَيْ يبني نصّه.

في ذلك، يقول آدم:" كيف أروي حكاية تبدو لي اليوم أشبه بخيوط متشابكة؟ وبماذا أبدأ بالماء أمْ بفرق جمع الجثث في المدينة؟ بزواج إيليا بطشون أم بزيارة نجله إسكندر للغيتو ليعلن أمام الملأ براءته من والده"[1].

من هذا المُنطلق، التّساؤلي تَتَّضِحُ أزمة آدم وعجزه عن الكتابة، هذا ما صرّح به بَدْءًا من الحكاية المُتشابكة الخيوط كقصّة لَمِّ الجُثث والبحث عن الماء وغيرها من قِصص النّكبة والغيتو، الّتي تُحيل بالضَّرورة لمُعاناة الشّعب الفلسطيني الضّائع الهُويّة.

بِناء عليه، يكون الكاتب ضائعا بفعل واقعه، الّذي أجبره الرّضوخ لسُلطة الآخر، منه يقول آدم مُعبّرا عن عجزه التّام بنقل أحداث واقعه المُؤلمة:" أنا حائر، لأنّني عاجز عن فهم كيف استطاع النّاس أنْ يستخرجوا من هذا الموت واليأس القدرة على اختراع الحياة من العفن الّذي عاشوا في وسطه؟ ما هذه القدرة العجيبة الّتي تجعل ابن الإنسان قادرا على التّأقلم مع الموت، بل على الحياة داخل الموت نفسه؟ قد أقول إنّها غريزة الحياة، لأنّ الحياة تقاوم الموت حتّى النّهاية، لكنّني أشعر، وأنا أكتب هذه الكلمات، بأنّ ما نُسمّيه غريزة الحياة هو اسم آخر لقدرة الإنسان على التّوحّش إلى ما لا نهاية"[2].

وهكذا، جعل آدم من المُعاناة الفلسطينيّة سببا رئيسا لعجزه عن الكِتابة، انطلاقا من قسْوة الواقع والمُحتلّ الّذي لمْ يرحم شعب فلسطين؛ حيث مارسَ عليه أشدّ أنواع التّعذيب كالطّرد والقتل العشوائي والاحتِجاز داخل قفص.

---

[1] المصدر نفسه، ص:325.

[2] إلياس خوري: أولاد الغيتو اسمي آدم، ص:325.

الفصل الثّالث: الهويّة في رواية أولاد الغيتو اسمي آدم لإلياس خوري

لذلك، شكّل الواقع المُرعِب حقيقة الفلسطيني كمُضطهد، يُعاني الأمرين لمُواصلة الحياة برغم الظّلم والعَفن داخل الغيتو المُسيّج، هُنا يستطيع الإنسان أن يُثبِت جدارته بالبقاء؛ إذْ يُصبح مُتأقلما مع كلّ الظّروف مهما كانت شِدّتها.

لذلك، يرى آدم أنّ:" هذه الحكايات الّتي أُحاول كتابتها لمْ يروها أحد، إنّها نثار كلمات وشظايا ذاكرات، أقترب منها بلغتي المتعثّرة، وبدل أنْ ألتقطها وأجلوا عنها غبار الأسى، أمتزج بها، وأصير جزءا من غبارها"[1]؛ نفهم من خلال النّصّ أنّ آدم تأثّر بواقعه لدرجة أنّه امتزج بحكاياته المُؤلمة، كحكايات أهل اللّدّ ومُعاناتهم داخل الغيتو وكيفيّة طردهم من أرضهم؛ حيث إنّه عجز عن تدْوين هذه الحِكايات، الّتي صارت نثارا للكلمات وشظايا للذّاكِرات، ما أسْقطه في حالة من الضّياع.

مِنْ ذلك، يقول إلياس خوري، إنّ:" المخطوط كان بلا عنوان، والحقيقة أنّني وضعتُ لائحة بالعناوين الممكنة، لأخلص إلى اقتراح وضع اسم المؤلّف كعنوان، فيكون عنوان هذا الكتاب(دفاتر آدم دنّون). وبهذا يكون مؤلّف هذا الكتاب قد نجح في ما فشل فيه جميع الكتّاب، وهو أنْ يتحوّل إلى بطل لرواية عاشها وكتبها، لكنّني غيّرت رأيي في اللّحظة الأخيرة، قُبيل إرسال هذا المخطوط إلى النّاشر، وقرّرتُ أنّ هذا الكتاب يكشف حقيقة لم ينتبه إليها أحد، وهي أنّ الفلسطينيّات والفلسطينيّين الّذين استطاعوا البقاء في أرضهم، هم أولاد الغيتوات الصّغيرة الّتي حشرتهم فيها الدّولة الجديدة الّتي استولت على بلادهم ومحت

[1] إلياس خوري: رواية أولاد الغيتو اسمي آدم، ص:311.

الفصل الثّالث: الهويّة في رواية أولاد الغيتو

اسمي آدم لإلياس خوري

اسمها، فقرّرتُ أنْ أضع لهذا الكتاب عنوان: (أولاد الغيتو)، وبذا أكون قد ساهمتُ، ولو بجزء يسير في كتابة رواية لم أستطع كتابتها"[1].

على هذه الشّاكلة، استطاع إلياس خوري إخراج نصّ آدم دنّون من رفوف الذّاكرة، إلى عمليّة القِراءة بوضعه لعُنوان يُحدّد بواسطته دلالة المخطوطات المُجرّدة العنوان.

ومن هُنا؛ يتسنّى لنا إدراك حقيقة (آدم دنّون) إنسان دون هُويّة بفعل واقع مليء بالمُعاناة، ما أجبره البحث عن هُويّته الحقيقيّة من خلال مؤلّفه، الّذي تركه دون عنوان كحالة اليَأْسِ الّتي انتابته حينما تعمّق بدراسة الوضع الفلسطيني، من ذلك اتّخذ إلياس خوري العنوان الآتي:(أولاد الغيتو)، ليكون عتبة للرّواية، باعتبار ما قام به مُساهمة يسيرة في بناء رواية لمْ يكتُبها.

ونلاحظ، أنّ رواية(أولاد الغيتو اسمي آدم)، ما هي إلّا مجموعة من القصص الواقعيّة أيّام النّكبة الفلسطينيّة، من باب عكسها للواقع المُزري وما يحمله من مُعاناة الإنسان الفلسطيني، ضمن نطاق الغيتو والمُحتلّ.

وهكذا، رمّم إلياس رواية (آدم) وجعل منه بطلا لروايته، الّتي أراد التّخلّص منها بحرقها بدل إرسالها للطّبع، ليأسه بالعثور على ذاته وهُويّته الحقيقيّة، يقول إلياس خوري:" عندما جلبت سارانغ لي الدّفاتر، قالت إنّ الرّجل مات مُحترقا، يبدو أنّه أغفى وهو يدخّن مُستلقيا على فراشه، فاشتعلت أشرطة التّسجيل الّتي كانت تمتلئ بها رفوف مكتبته، وحين وصل رجال الإطفاء كان الرّجل قد مات"[2].

[1] المصدر نفسه، ص:18.

[2] إلياس خوري: رواية أولاد الغيتو اسمي آدم، ص:14.

الفصل الثّالث: الهويّة في رواية أولاد الغيتو اسمي آدم لإلياس خوري

ما يُفسّر؛ طريقة موته الغريبة؛ حيث مات مُحترقا على حدّ قول صديقته سارانغ لي، حينما كان غافيا بفراشه والسّيجارة مُشتعلة، من ثمّة اندلع الحريق ومات فور وصول رجال الإطفاء لمكان الحادثة.

وَجَدَ إلياس خوري، أنّ بحقيقة موت (آدم دنّون) لُبس وتقليد لطريقة موت الشّاعر العراقي راشد حسين، الّذي عُدّ من مُعجبيه على حدّ تصريح صديقته، يقول إلياس خوري:" شككتُ في الحكاية، وقُلتُ إنّها تقليد حرفي للطّريقة الّتي مات بها الشّاعر الفلسطيني الكبير ومترجم بياليك إلى العربيّة راشد حسين في نيويورك، فقالت إنّها تعتقد بأنّ آدم انتحر، وأنّه قام بعمليّة إخراج مسرحيّة لموته كي تكون مطابقة للطّريقة الّتي مات بها راشد حسين، لأنّه كان يُحبّ هذا الشّاعر يحفظ قصائده غيبا، قالت إنّه أعطاها قبل موته بأسبوع رسالة صغيرة تتضمّن وصيّته، وطلب منها ألّا تقرأها إلّا إذا حصل له شيء"[1].

انتحر (آدم دنّون) مُتأثّرا بشاعره المُفضّل، حيث لفّق مسرحيّة شبيهة للطّريقة الّتي مات بها الشّاعر العراقي راشد حسين؛ ما يُفسّر تلك الرّسالة الّتي أعطاها لصديقته قُبَيْل الحادثة بأسبوع.

وكمحطّة أخيرة، لنِهاية قصّة آدم دنّون، نوظّف تصريحا لآدم يُعلن فيه قُرب أجله؛ حيث يقول:" أجلس وحيدا، وأراقب من نافذة غرفتي في الطّابق الخامس الثّلج الّذي ينهمر على نيويورك، لا أدري كيف أصف شعوري نحو هذه النّافذة المستطيلة، الّتي أرى من خلالها روحي وهي تتكسّر على الزّجاج، صارت النّافذة مرآتي، فيها أرى صورتي تضيع وسط زحام الصّور في هذه المدينة، أعرف أنّ نيويورك محطّتي الأخيرة، هنا سوف أموت، وستُحرق جثّتي ويُنثر رمادي في نهر الهادسون، هكذا سأكتب في وصيّتي، فأنا لا أملك قبرا في بلاد

[1] إلياس خوري: أولاد الغيتو اسمي آدم، ص:14.

الفصل الثّالث: الهويّة في رواية أولاد الغيتو اسمي آدم لإلياس خوري

لم تعد بلادي(...) هذا هو مصير البشر ومصير الكلمات، فالكلمات تموت أيضا، وتترك أنينا نازفا مثل الأنين الّذي ينبعث من أرواحنا، وهي تتلاشى في ضباب النّهاية"[1].

لخّص (آدم دنّون) مُعاناته بالبحث عن هُويّته الضّائعة؛ حيث قرّر الانتحار كمُشتّت دون وطن، فمدينة نيويورك ليست موطنه الأصلي لذلك جعلها محطّته الأخيرة؛ لأنّه سيموت بها وسيأمر بحرق جثّته ونثر رمادها بنهر الهاديسون.

انتهت حكاية (آدم دنّون) ووجع المُعاناة مع الهُويّة الضّائعة، هذا ما أكّدته حقيقة الإنسان الفلسطيني كعربي دون هُويّة، بحُكم قوانين الواقع الظّالمة انطلاقا من صورة الإسرائيلي وما فعله بشعب فلسطين أيّام النّكبة.

وبالتّالي؛ نقف عند حقيقة السّرد الواقعي، الّذي يسمح بنقل رسالة الكاتب النّصيّة، الّتي تعمل على إقحامنا كقُرّاء داخل النّصّ الكتابي، ما يتيح لنا الغوص بمعاني النّصّ كاشفين عن المغزى المُخبّأ خلف السّطور والكلمات، كحال رواية (أولاد الغيتو اسمي آدم) الحاملة لدلالات الهُويّة الضّائعة.

خاتمة الفصل:

خِتامًا، لقد نَجَحَ إلياس خوري بِسردِه وتصْويره من بناء فضاء سرْدي يَعْكِسُ مُفارقات الواقع الشّخصي والحَياتي للشّعب الفلسطيني العربي.

تُشكّل الهُويّة في(رواية أولاد الغيتو اسمي آدم) حقيقة الشّعب الفلسطيني المُشتّت الحُضُور داخل أرضه المُغْتَصبة من طرف الإسرائيلي.

حَملت رواية(أولاد الغيتو) ملامح الإنسان الضّائع الهُويّة الفرديّة والجماعيّة، فهي تَصْوير لحقيقة وضْع الإنسان الفلسطيني بعد الطّرد.

[1] المصدر نفسه، ص:21.

الفصل الثّالث: الهويّة في رواية أولاد الغيتو

اسمي آدم لإلياس خوري

وهكذا، اسْتَطاعت رواية(أولاد الغيتو) عكس تمَثُّلات الهُويّة الوطنيّة الضّائعة كضياع أرض فلسطين.

ومن ذلك نُفسّر؛ ظاهِرة التزام المُثقّف العربي بقضايا راهنه، الّتي صارت ميزتَهُ الكتابة، وهذا بالتّحديد ما تَبنّاه إلياس خوري في روايته(أولاد الغيتو اسمي آدم)، الّتي عَكس من خلالها ملامح الإنسان الفلسطيني المُجرّد الهُويّة والسَّجِين.

ونلمس من خلال شخصيّة (آدم دنّون) حقيقة الضّياع الذّاتي، الّذي يُحيلنا مُباشرة لمسألة الافتراضات من باب الفِرار من الواقع الأليم.

حملت رواية(أولاد الغيتو اسمي آدم) لعناصر الهُويّة، انطلاقًا من اللّغة العربيّة والدّين والوطن وغيرها من مُقوّمات الهُويّة العربيّة.

يسعى الكاتب العربي إلى رَسْمِ ملامِح الإنسان ضِمن الرّاهِن، عن طريق توظيفه لأهمّ ما يشغل الإنسان من مشاكل وأزمات تُساهِمُ في ضَياعه، ومن ذلك مُحاولة (آدم دنّون) الكِتابيّة الفاشِلة.

وهكذا، لُخّصت الهُويّة في رواية(أولاد الغيتو اسمي آدم)، الّتي كَشفت عن حقيقة الإنسان الفلسطيني المُشتّت الهُويّة، جرّاء أعمال(العدوّ الصّهيوني) من طرد وحبس داخل قفص.

خاتمة

كخاتمة للعمل المَطروق حاولنا الإلمام بأهمّ ما حمله من محطّات رئيسة ساهمت في بناء الموضوع، نوردها في شكل نتائج استخلصناها من العمل حسب التّرتيب الّذي جاءت به الفصول، منه كانت النتائج مرتّبة كالآتي:

1/الفصل الأوّل: الذّات والهُويّة: الماهية والتّمظهرات في الخطاب الرّوائي المعاصر

تمّت فيه مُعالجة الذّات والهُويّة لُغويّا واصطلاحيّا، كما تطرّقنا لأهمّ ما حملته الرّواية العربيّة المُعاصرة من مواضيع ذات صِلة بالذّات والهُويّة، فأفْصَحت عن النّقاط التّالية:

1- يتحدّد التّواجد الإنساني بواسطة الذّات والهُويّة كإحالة لحُضور الفرد.

2- تتبنّى الرّواية العربيّة المعاصرة مواضيع جديدة حسب مُقتضى الحال.

3- يحمل راهن ما بعد الحداثة جُملة من الأحداث السّياسيّة، الّتي ساهمت في قلب موازين القوى العالميّة.

4- تعدّ الذّات والهُويّة من المواضيع الحسّاسة المُثارة على السّاحة الأدبيّة.

5- نقصد بالأنا المُهمّشة تلك الأنا العربيّة المُسْتَضعفة.

6- يبعث موضوع أسئلة الذّات والهويّة على كشف صورة الفلسطيني كعربي دون هُويّة.

7- امتازت الأنا العربيّة بهامشِيّتها مُقارنة بنظيرها الآخر المركزي.

8- أسئلة الذّات من بين المواضيع الّتي تبنّاها الكُتّاب العرب، انطلاقا من مُعاناة الإنسان العربي ضمن راهنه المَأزوم.

9- تشَيّؤ الأنا واقع الإنسان العربي انطلاقا من حقيقة الرّاهن، وما يُعانيه في ظلّ الصّراعات العالميّة.

2/الفصل الثّاني: البحث عن الذّات في رواية أولاد الغيتو اسمي آدم لإلياس خوري

شكّل موضوع الذّات حديث الرّاهن العربي الّذي أصبح يَعُجُّ بالمشاكل، ما لاح الإنسان العربي بمتاهات البحث عن ذاته الضّائعة كحال الشّعب الفلسطيني أيّام النّكبة، انطلاقا من ما حمله نصّ (أولاد الغيتو اسمي آدم)، الّذي يحكي قصّة الشّعب الفلسطيني كذات فقدت كيانها، وسيقَت للشّتات ناهيك عن قصّة (آدم دنّون) كإنسان فلسطيني دون ذات، ولهذا سَعينا جاهدين إبراز أهمّ ما تناولناه في هذا الفصل من خلال هذه النّتائج المُسْتَخلصة الّتي وردت كالآتي:

1- تعكس رواية(أولاد الغيتو اسمي آدم) لإلياس خوري واقع الأنا الفلسطينيّة الضّائعة، من خلال الصّور الّتي تُعبّر عن حقيقة المُعاناة.

2- تُعدّ الهُويّة الفلسطينيّة حُلما يستحيل تحقيقه على أرض الواقع، كحقيقة آدم دنّون الفاقد لذاته.

3- الاغتراب الذّاتي ميزة الإنسان العربي المُعاصر لِمَا يُعانيه من أحداث راهِنيّة، ساهمت وبشكل مُلفت في انكساره كواقع الذّات الفلسطينيّة في رواية اسمي آدم.

4- الالتزام بالقضايا الوطنيّة ميزة كتابيّة ما بعد الحداثيّة، هذا ما تبنّاه الكُتّاب العرب من بينهم إلياس خوري.

5- تعدّدت الأصوات داخل رواية أولاد الغيتو اسمي آدم، كحقيقة الأنا العربيّة الفلسطينيّة الضّائعة.

6- إنّ الأنا الفلسطينيّة أنا حاضرة غائبة مع آخرها(اليهودي)، وصوت مقموع وحقيقة مطمورة بناءً على ما حَمَلته رواية أولاد الغيتو.

7- رواية أولاد الغيتو اسمي آدم لوحة دامية لشعب سُلب هُويّته وأرضه.

8- حملت رواية اسمي آدم صُورا جسديّة ونفسيّة تعكس حقيقة الكارثة.

9- رسمت رواية أولاد الغيتو ملامح الشّعب الفلسطيني أيّام النّكبة والشّتات.

3/الفصل الثّالث: الهُويّة في رواية أولاد الغيتو اسمي آدم لإلياس خوري

رواية (أولاد الغيتو اسمي آدم) نصّ إبداعي مُميّز، يعكس واقع الفلسطيني الضّائع الهُويّة أيّام النّكبة وبعدها، كصورة الغيتو الّذي حُبس بداخله ما تبقّى من الشّعب الفلسطيني؛ حيث تبدّت من خلاله أبعاد الهُويّة العربيّة المُنكسرة كحقيقة الأرض المسلوبة من طرف الإسرائيلي المُحتل، هكذا شكّلت الرّواية ملامح الإنسان الفاقد لحُضوره.

1- حملت رواية أولاد الغيتو اسمي آدم أبعاد الهُويّة الضّائعة، كحقيقة الشّعب الفلسطيني تحت سَطْوَة (العُدوان الصّهيوني).

2- ضياع الذّات يُؤدّي إلى حالات من الجنون وفقدان السّيطرة على النّفس، كحالة آدم دنّون بطل رواية أولاد الغيتو.

3- يُنكر الإنسان المُنكسر الهُويّة ذاته ويلجأ للالتباس بهُويّة الآخر، كحلّ يُريحه من مُعاناته الفرديّة، هذا ما رَسمته رواية أولاد الغيتو من خلال شخصيّة آدم دنّون.

4- للمكان دلالات وأبعاد كحقيقة فلسطين الأرض الضّائعة، انطلاقا من رواية اسمي آدم.

5- شكّل الوطن معالم الهُويّة الفرديّة والجماعيّة، هذا ما كشف عنه نصّ إلياس خوري(أولاد الغيتو اسمي آدم).

6- إنّ للقضيّة الفلسطينيّة أبعادا دينيّة تعكس صورة الأرض المُغتصبة.

7- يُؤدّي التّاريخ دورا هامّا في تثبيت الذّات والهُويّة.

8- من خلال رواية أولاد الغيتو اسمي آدم ارتَسمت ملامح الهُويّة الفرديّة الغائبة.

9- تُؤدّي الهُويّة الثّقافيّة دورا فاعِلا في تثبيت الهُويّة.

10- مارس الآخر الإسرائيلي ثقافة الأخذ مع الشّعب الفلسطيني، بهدف محوِ حُضوره بفلسطين الّتي أصبحت وطنا لليهود.

11- يُعاني الكاتب الفلسطيني من تشظّي لُغوي، جرّاء أفعال(الصّهيوني) الّذي يسعى جاهدا لهدم الثّقافة العربيّة الإسلاميّة من خلال شخصيّة آدم دنّون الفاشل بكتابة قصّته.

12- للسّرد علاقة وثيقة بالهُويّة، هذا ما لاحظناه من خلال رواية أولاد الغيتو اسمي آدم لإلياس خوري.

قائمة المصادر والمراجع

أوّلا: المصادر

1. **إلياس خوري**: رواية أولاد الغيتو اسمي آدم، دار الآداب للنّشر والتّوزيع، مكتبة الفكر الجديد، بيروت- لبنان، ط1، 2016م.

ثانيا: المراجع

1- المعاجم والقواميس:

2. **أحمد مختار عمر**: معجم اللّغة العربيّة المعاصرة، عالم الكتب نشر، توزيع، طباعة، القاهرة، ط1، 2008م. م:.01

3. **إبراهيم مصطفى وآخرون**: المعجم الوسيط، مُجمّع اللّغة العربيّة، القاهرة، ط5، 1432هـ- 2011م.

4. **جمال الدّين بن مكرم أبا الفضل بن منظور**: لسان العرب، دار صادر للطّباعة والنّشر، بيروت- لبنان، ط6، 2003م. ج:06.

5. **الخليل بن أحمد الفراهيدي**: كتاب العين- مرتّبا على حروف المعجم- ، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، منشورات دار الكتب العلميّة، بيروت- لبنان، ط1، 2003م. ج:02.

6. **مجد الدّين محمّد بن يعقوب الفيروز آبادي**: القاموس المُحيط، تحقيق: أنس محمّد الشّامي وزكريا جابر أحمد، دار الحديث، القاهرة، دط، 1429هـ-2008م.

2- الكتب الحديثة:

7. **إبراهيم خليل الشّبلي**: الذّات والآخر في الرّواية السّوريّة، دار فضاءات للنّشر والتّوزيع، سوريا، ط1، 2019م.

8. **أحلام مستغانمي**: رواية الأسود يليق بكِ، النّاشر هاشيت أنطوان، بيروت، دط، 2012م.

9. أحمد بعلبكي وآخرون: الهويّة وقضاياها في الوعي العربي المعاصر، مركز دراسات الوحدة العربيّة، بيروت- لبنان، ط1، 2013م.
10. أحمد وهبان: الصّراعات العرقيّة واستقرار العالم المعاصر، كتاب إلكتروني مُصوّر، مصر، ط2، دت.
11. إدوارد سعيد:
- الإسلام والغرب، دار كنعان للدّراسات والنّشر والخدمات الإعلاميّة، دب، ط1، 2014م.
- القلم والسّيف، ترجمة: توفيق الأسدي، دار كنعان للدّراسات والنّشر، دمشق، ط1، 1998م.
- الإسلام والغرب(مقالات ودِراسات مُختارة)، دار كنعان للدّراسات والنّشر والخدمات الإعلاميّة، دمشق، ط1، 2014م.
- أوسلو 2 (سلام بلا أرض)، دار المُستقبل العربي، القاهرة، دط، 1995م.
12. إلياس خوري: رواية يالو، دار الآداب للطّباعة والنّشر، بيروت- لبنان، ط1، 2002م.
13. الحُسين بن عبد اللّه بن الحسن بن علي بن سينا البلخي:
- رسالة في معرفة النّفس النّاطقة وأحوالها، وكالة الصّحافة العربيّة ناشرون، مصر، دط، 2019م.
- الشّفاء، تحقيق: الأب قنواتي وآخرون، وزارة المعارف العموميّة، المطبعة الأميريّة، القاهرة، دط، 1952م.
14. أمين معلوف: الهُويّات القاتلة (قراءات في الانتماء والعولمة)، دار ورد للطّباعة والنّشر والتّوزيع، سوريّة- دمشق، ط1، 1999م.
15. أوسم وصفي: الصّورة الذّاتيّة، أوفير للطّباعة والنّشر، عمان- الأردن، ط1، 2008م.

16. **أيمن العتّوم**: رواية خاوية، دار المعرفة للنّشر والتّوزيع، دد، ط10، 2016م.
17. **إيميل حبيبي**: رواية الوقائع الغريبة في اختفاء سعيد أبي النّحس المتشائل، دار ابن خلدون، بيروت- لبنان، ط2، 1989م.
18. **بدوي محمود الشّيخ**: الهُويّة، الأندلس الجديدة للنّشر والتّوزيع، مصر- القاهرة، ط1، 2009م.
19. **بسّام بركة وآخرون**: اللّغة والهُويّة في الوطن (إشكاليّات التّعليم والتّرجمة والمصطلح)، المركز العربي للأبحاث ودراسات السّياسات، بيروت، ط1، 2013م.
20. **بشير مفتي**: رواية اختلاط المواسم أو وليمة القتل الكبرى، منشورات ضفاف، بيروت- لبنان، ط1، 2019م.
21. **جمال رجب سيّدبي**: نظريّة النّفس بين ابن سينا والغزّالي، الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، القاهرة، دط، 2000م.
22. **أبو حامد الغزالي**: معارج القُدس في مدارج معرفة النّفس، مؤسّسة هنداوي، دد، دط، 2019م.
23. **حسن حنفي حسنين**:
- الهويّة (مفاهيم ثقافيّة)، المجلس الأعلى للثّقافة، القاهرة، ط1، 2012م.
- مِنَ العقيدة إلى الثّورة (4- النّبوءة- المعاد)، مؤسّسة هنداوي، دد، دط، 2020م.
- عرب هذا الزّمان وطنٌ بلا صاحب، مؤسّسة هنداوي، دد، دط، 2021م.
24. **حليم بركات**:
- غربة الكاتب العربي، دار السّاقي، بيروت- لبنان، ط1، 2011م.

- المجتمع العربي في القرن العشرين (بحث في تغيّر الأحوال والعلاقات)، مركز دراسات الوحدة العربيّة، بيروت، ط1، 2000م.
25. **ربعي المدهون**: رواية مصائر(كونشيرتو الهولوكوست والنّكبة)، المؤسّسة العربيّة للدّراسات والنّشر، بيروت- لبنان، ط1، 2016م.
26. **رجاء عالم**: رواية طوق الحمام، المركز الثّقافي العربي، الدّار البيضاء- المغرب، ط3، 2011م.
27. **رجاء عبد اللّه الصّانع**: رواية بنات الرّياض، مُصوّرة، دد، دط، 2004م. ص:.02
28. **رمزي منير بعلبكي وآخرون**: اللّغة والهُويّة في الوطن العربي: إشكاليّات تاريخيّة وثقافيّة وسياسيّة، المركز العربي للأبحاث ودراسة السّياسات، بيروت، ط1، 2013م.
29. **رمضان عبد الهادي**: الفلكلور الفلسطيني بصمة لتأصيل الهُويّة، مؤسّسة سلطان بن علي العويس الثّقافيّة، دبي- الإمارات العربيّة المتّحدة، دط، 2009م.
30. **زهور كرام**: السّرد النّسائي العربي (مقاربة في المفهوم والخِطاب)، المدارس شركة النّشر والتّوزيع، الدّار البيضاء، ط1، 2004م.
31. **سعاد سلطان الشّامسي**: رواية أُمنيتي أن أقتل رجلا(خطّة لقتل رجل دون دليل)، مداد للنّشر والتّوزيع، دُبي، ط3، 2018م.
32. **سعود السّنعوسي**: رواية ساق البامبو، الدّار العربيّة للعلوم ناشرون، بيروت، ط1، 2012م.
33. **سعيدة بن بوزة**: الهويّة والاختلاف في الرّواية النّسويّة في المغرب العربي، دار نينوى للدّراسات والنّشر والتّوزيع، دمشق- سوريّة، ط1، 2016م.

34. **سعيد يقطين**: قضايا الرّواية العربيّة الجديدة الوجود والحدود، الدّار العربيّة للعلوم ناشرون، بيروت- لبنان، ط1، 2012م.
35. **سليم مطر**: الذّات الجريحة - إشكاليّة الهُويّة في العراق والعالم العربي-، الشّرق متوسّطي- مركز دراسات الأمّة العراقيّة (ميزوبوتاميا)، بغداد، دار الكلمة الحرّة، بيروت، ط4. 2008م.
36. **سهام فوزي**: التّحوّل الدّيمقراطي في المجتمعات الإثنيّة(دراسة مقارنة العراق وجنوب أفريقيا)، مركز دراسات الوحدة العربيّة، دد، ط1، 2019م.
37. **شريف كناعنة**: الشّتات الفلسطيني: هجرة أم تهجير؟، مركز اللّاجئين والشّتات الفلسطيني(شمل)، فلسطين، ط. جديدة منقّحة، 2000م.
38. **شيماء نجم صفر**: تشظّي الذّات وتحلّل الشّخصيّة وعلاقتهما بالكرب النّفسي، المكتب الجامعي الحديث، الاسكندريّة- مصر، ط1، 2014م.
39. **صالح خليل أبو أصبع**: مرآة الزّمن قراءات في الثّقافة والأدب، دار البركة للنّشر والتّوزيع، الأردن، ط1، 2012م.
40. **صالح صائب الجبّوري**: مِحنة فلسطين وأسرارها السّياسيّة والعسكريّة، المركز العربي للأبحاث ودِراسات السّياسات، بيروت، ط1، 2014م.
41. **صلاح صالح**: سرد الآخر (الأنا والآخر عبر اللّغة السّرديّة)،المركز الثّقافي العربي، الدّار البيضاء- المغرب، ط1، 2003م.
42. **صلاح فضل**: أساليب السّرد في الرّواية العربيّة، دار المدى للثّقافة والنّشر، سوريا- دمشق، ط1، 2003م.

43. صلاح فليفل الجابري: فلسفة العقل(التّكامل العلمي والميتافيزيقي)، دار الفارابي للنّشر والتّوزيع، بيروت- لبنان، ط1، 2012م.
44. الطّاهر وطّار: رواية اللّاز، موفم للنّشر، الجزائر، دط، 2007م.
45. طه حسين: رواية دعاء الكروان، مؤسّسة هنداوي، دد، دط، 2013م.
46. عبد الحسين شعبان: الهويّة والمواطنة البدائل الملتبسة والحداثة المُتَعَثّرة، مركز دراسات الوحدة العربيّة، بيروت، ط1، 2017م.
47. عبد الرّحيم الكُردي: السّرد في الرّواية المعاصرة(الرّجل الّذي فقد ظِلّه)، مكتبة الآداب، القاهرة، ط1، 2006م.
48. عبد السّلام المسدّي: الهويّة العربيّة والأمن اللّغوي(دراسة وتوثيق)، المركز العربي للأبحاث ودراسات السّياسة، بيروت، ط1، 2014م.
49. عبد العزيز بومسهلي وآخرون: أفول الحقيقة (الإنسان ينقض ذاته)، أفريقيا الشّرق، الدّار البيضاء- المغرب، دط، 2004م.
50. عبد الغني عماد: جينالوجيا الآخر المسلم وتمثّلاته في الاستشراق والأنثروبولوجيا والسّوسيولوجيا، مركز دراسات الوحدة العربيّة، بيروت، ط1، 2020م.
51. عبد اللّه العروي: مفهوم الدّولة، المركز الثّقافي العربي، الدّار البيضاء- المغرب، دط، 2014م.
52. عبد اللّه الغذّامي:
- القبيلة والقبائليّة أو هويّات ما بعد الحداثة، المركز الثّقافي العربي، الدّار البيضاء- المغرب، ط2، 2009م.
- المرأة واللّغة، المركز الثّقافي العربي، الدّار البيضاء، ط3، 2006م.

53. **عبد المجيد الحسيب**: الرّواية العربيّة الجديدة وإشكاليّة اللّغة، عالم الكتب الحديث للنّشر والتّوزيع، إربد- الأردن، ط1، 2014م.
54. **عبير بسيوني رضوان**: أزمة الهُويّة والثّورة على الدّولة في غياب المواطنة وبروز الطّائفيّة، دار السّلام للطّباعة والنّشر والتّوزيع والتّرجمة، مصر- القاهرة، ط1، 2012م.
55. **عز الدّين إسماعيل**: الأدب وفنونه دراسة ونقد، دار الفكر العربي، القاهرة، ط09، 2013م.
56. **عز الدّين جلاوجي**: رواية الحبّ ليلا في حضرة الأعور الدّجّال، دار المنتهى للطّباعة والنّشر والتّوزيع، الجزائر، ط1، 2017م.
57. **علّاوة كوسة**: رواية خطيئة مريم، الرّاوى للنّشر والتّوزيع، دد، ط1، 2017م.
58. **علي أبو الحسن، وآخرون**: فلسطين العربيّة في ظلّ الاحتلال الصّهيوني منطقة نفوذ للولايات المتّحدة الأمريكيّة ، دار الحكمة ، بيروت- لبنان، ط1، 1990م.
59. **علي حرب:**
- أزمنة الحداثة الفائقة الإصلاح- الإرهاب- الشّراكة، المركز الثّقافي العربي، الدّار البيضاء- المغرب، ط1، 2005م.
- الممنوع والممتنع نقد الذّات المفكّرة، المركز الثّقافي العربي، الدّار البيضاء- المغرب، ط1، 1995م.
- خِطاب الهويّة (سيرة فكريّة)، الدّار العربيّة للعلوم ناشرون، لبنان، ط2، 2008م.
- حديث النّهايات فتوحات العولمة ومآزق الهويّة، المركز الثّقافي العربي، الدّار البيضاء- المغرب، ط1، 2000م.

- تواطؤ الأضداد الآلِهة الجُدد وخراب العالم، الدّار العربيّة للعلوم ناشرون، بيروت- لبنان، ط1، 2008م.
- العالم ومأزقه منطِق الصّدام ولغة التّداول، المركز الثّقافي العربي، الدّار البيضاء- المغرب، ط1، 2002م.
60. علي المقرّي: رواية اليهودي الحالي، دار السّاقي، بيروت- لبنان، ط2، 2012م.
61. عمارة لخوص: رواية كيف ترضع من الذّئبة دون أن تعضّك، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط2، 2006م.
62. عمر مهيبل: من النّسق إلى الذّات، الدّار العربيّة للعلوم ناشرون، بيروت- لبنان، ط1، 2007م.
63. عهد كمال شلغين: الهُويّة العربيّة صراع فكري وأزمة واقع (دراسة في الفكر العربي المعاصر)، منشورات الهيئة العامّة السّوريّة للكتاب، وزارة الثّقافة، دمشق، دط، 2015م.
64. غسّان كنفاني:
- رواية رجال في الشّمس، دار منشورات الرّمال، قبرص، ط1، 2013م.
- رواية العاشق، دار منشورات الرّمال، قُبرُص، ط2، 2014م.
65. فاتحة مرشيد: رواية المُلهِمات، المركز الثّقافي العربي، الدّار البيضاء- المغرب، ط1، 2011م. ص:23.
66. فؤاد زكريّا: خطاب إلى العقل العربي، الهيئة المصريّة العامّة للكِتاب، القاهرة، دط، 2010م. ص:11.
67. فاضل ثامر: المبنى الميتاسردي في الرّواية، دار المدى للثّقافة والنّشر، بيروت، ط1، 2013م. ص:.210

68. فاطمة الزّهراء عطيّة: العجائبيّة وتشكّلها السّردي في رسالة التّوابع والزّوابع لإبن شُهيد الأندلسي ومنامات ركن الدّين والوهراني، دار المُثقّف للنّشر والتّوزيع، الجزائر(باتنة)، ط2، 2021م.

69. فتحي المسكيني:

- الهجرة إلى الإنسانيّة، منشورات ضفاف، بيروت، ط1، 2016م. ص:23.

- الهويّة والحريّة نحو أنوار جديدة، جداول للنّشر والتّوزيع، بيروت- لبنان، ط1، 2011م.

- الهُويّة والزّمان (تأويلات فينومينولوجيّة لمسألة النّحن)، دار الطّليعة للطّباعة والنّشر، بيروت، ط1، 2001م.

70. فوزي العنتيل: الفولكلور ما هو؟ دراسات في التّراث الشّعبي، دار المعارف، مصر، دط، 1965م.

71. لونيس بن علي: النّقد والمقدّس(المقدّس والتّاريخ)، سلسلة ملفّات بحثيّة، مؤمنون بلا حدود للدّراسة والأبحاث، دب، 2016م.

72. ماجد الغرباوي: متاهات الحقيقة (1) الهُويّة والفعل الحضاري، دار أمل الجديدة للنّشر والتّوزيع، دمشق- سوريا، ط1، 2019م.

73. ماجدة محمود: إشكاليّة الأنا والآخر (نماذج روائيّة عربيّة)، المجلس الوطني للثّقافة والفنون والآداب، الكويت، دط، 2013م.

74. مجد الدّين خمش: المواطنة والهُويّة الوطنيّة في الأردن والوطن العربي، الآن ناشرون وموزّعون، دد، ط1، 2019م.

75. محمّد بكّاي: أرخبيلات ما بعد الحداثة(رهانات الذّات الإنسانيّة من سطوة الانغلاق إلى إقرار الانعتاق)، دار الرّافدين للنّشر والتّوزيع، بيروت- لبنان، ط1، 2017م.

76 **أبو عبد اللّه محمّد بن سعيد رسلان**: مُتطلّبات الولاء والانتماء للوطن، ابن شهوان، دد، دط، دت.
77. **محمّد بوعزّة**: سرديّات ثقافيّة من سياسات الهُويّة إلى سياسات الاختلاف، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2014م.
78. **محمّد سيّد خليل**: صورة الذّات والآخر(دراسات في التّفاعل الاجتماعي- الرّجل والمرأة وبعض الفئات الاجتماعيّة الأخرى-)، دار الحريري، دب، دط، 2004م.
79. **محمّد الشّحّات**: سرديّات المنفى الرّواية العربيّة بعد عام 1967، أزمنة للنّشر والتّوزيع، عمان- الأردن، ط1، 2006م.
80. **محمّد شكري**: رواية الخبز الحافي، دار السّاقي، دد، دط، دس.
81. **محمّد عابد الجابري**:
- مسألة الهُويّة العروبة والإسلام... والغرب، مركز دراسات الوحدة العربيّة، بيروت، ط4، 2012م.
- إشكاليّة الفكر العربي المعاصر، مركز دراسات الوحدة العربيّة، بيروت- لبنان، ط2، 1990م.
- الدّين والدّولة وتطبيق الشّريعة، مركز دراسات الوحدة العربيّة، بيروت- لبنان، ط1، 1996م.
- العقل السّياسي العربي: محدّداته وتجلّياته، مركز دراسات الوحدة العربيّة، بيروت، ط1، 1990م.
82. **محمّد عاشور مهدي**: التّعدّديّة الإثنيّة إدارة الصّراعات واستراتيجيّات التّسوية، المركز العالمي للدّراسات السّياسيّة، مصر- القاهرة، دط، 2002م.

83. محمّد عطوان: صور الآخر في الفكر السّياسي العربي المعاصر(الإستشراق- العلمانيّة- الإيديولوجيا- الإستعمار)، دار الرّافدين للنّشر والتّوزيع، بيروت- لبنان، ط1، 2017م.
84. محمّد عماره: العرب والتّحدّي، المجلس الوطني للثّقافة والفنون والآداب، الكويت، دط، 1980م.
85. محمّد ناجي أحمد: الهويّات الطّاردة (قراءات متخيّلة للهويّات المتخيّلة)، دار الكتب، دب، ط1، 2010م.
86. محمّد هاشم الماحي: كينونة ذات، دار المصورات للنّشر والطّباعة والتّوزيع، الخرطوم- السّودان، ط1، 2017م.
87. محمود الضّبع: الرّواية الجديدة (قراءة في المشهد العربي المعاصر)، المجلس الأعلى للثّقافة، دب، دط، 2010م.
88. محمود عبد الحليم منسي: قياس مفهوم الذّات، مركز النّشر العلمي، مطابع جامعة الملك عبد العزيز، المملكة العربيّة السّعوديّة، دط، 1986م.
89. مختار الغوث: الحرب الباردة على الكينونة العربيّة(1)، صوفيا للطّباعة ، الكويت، ط2، 2021م.
90. مصطفى الحسن: الدّين والنّصّ والحقيقة قراءة تحليليّة في فكر محمّد أركون، الشّبكة العربيّة للأبحاث والنّشر، بيروت- لبنان، ط1، 2012م.
91. مصطفى خليفة: رواية القوقعة يوميّات مُتلصّص، دار الآداب، بيروت، ط1، 2008م.
92. مصطفى عطيّة جمعة: ما بعد الحداثة في الرّواية العربيّة الجديدة(الذّات- الوطن- الهويّة)، الورّاق للنّشر والتّوزيع، عمان- الأردن، ط1، 2010م.

93. ميلاد حنّا: قبول الآخر (فكر واقتناع وممارسة)، دار الشّروق للطّباعة والنّشر، القاهرة، ط1، 1998م.
94. نادر كاظم: تمثيلات الآخر(صورة السّود في المُتخيّل العربي الوسيط)، المؤسّسة العربيّة للدّراسات والنّشر، بيروت، ط1، 2004م.
95. نسمة العكلوك: رواية نساء بروكسيل، الدّار الأهليّة للنّشر والتّوزيع، عمان- الأردن، ط1، دت.
96. هاني نقشبندي: رواية نصف مواطن محترم، دار السّاقي، بيروت، ط1، 2012م.
97. واسيني الأعرج: رواية أنثى السّراب، الصّدى للصّحافة والنّشر والتّوزيع، الإمارات العربيّة المتّحدة، دبي، ط1، 2009م.
98. ياسمينة صالح: رواية وطن من زجاج، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2006م.
99. يحيى البشتاوي: أزمة الإنسان في الأدب المعاصر، دار ومكتبة الكِندي للنّشر والتّوزيع، الأردن، ط1، 2014م.
100. يمنى العيد: الرّواية العربيّة (المتخيّل وبنيته الفنيّة)، دار الفارابي، بيروت- لبنان، ط1، 2011م.
101. يوسف السّباعي:
- رواية بين الأطلال(اذكريني)، مصوّرة، دد، دط، دت.
- رواية نحن لا نزرع الشّوك، مصوّرة، دد، دط، دت.
102. يوسف القرضاوي: الوطن والمواطنة في ضوء الأصول العقديّة والمقاصد الشّرعيّة، دد، دط، دت.

<u>3- الكتب المترجمة:</u>

103. أرسطو: النّفس لأرسطو طاليس، ترجمة: أحمد فؤاد الأَهواني، المركز القومي للتّرجمة، القاهرة، ط2، 2015م.

104. إدوارد سعيد: الثّقافة والمقاومة، ترجمة: علاء الدّين أبو زينة، دار الآداب للنّشر والتّوزيع، بيروت- لبنان، ط1، 2006م.

105. إليكس ميكشيللي: الهويّة، ترجمة: علي وطفة، دار الوسيم للخدمات الطّباعيّة، دمشق، ط1، 1993م.

106. أمارتيا صن: الهُوُيّة والعنف (وهم المصير الحتمي)، ترجمة: سحر توفيق، المجلس الوطني للثّقافة والفنون والآداب، الكويت، دط، 2008م.

107.إيريش فروم: كينونة الإنسان، ترجمة: محمّد حبيب، دار الحوار للنّشر والتّوزيع، سوريا، ط1، 2013م.

108. إيريك فروم:

- الإنسان المستلب (وآفاق تحرّره)، ترجمة: حميد لشهب، شركة نداكوم للطّباعة والنّشر، الرّباط، دط، 2003م.

- الإنسان بين الجوهر والمظهر، ترجمة: سعدون زهران، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، ع:140، 1989م.

109. بول ريكور:

- الذّات عينها كآخر، ترجمة: جورج زيناتي، والمنظّمة العربيّة للتّرجمة، بيروت- لبنان، ط1، 2005م.

- الذّاكرة، التّاريخ، النّسيان، ترجمة: جورج زيناتي، دار الكتاب الجديد المتّحدة، ليبيا، ط1، 2009م.

- بعد طول تأمّل...(السّيرة الذّاتيّة)، ترجمة: فؤاد مليت، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2006م.

- نظريّة التّأويل (الخطاب وفائض المعنى)، ترجمة: سعيد الغانمي، المركز الثّقافي العربي، الدّار البيضاء المغرب- المغرب، ط2، 2016م.
110. بيتركوزن: البحث عن الهويّة وتشتّتها (الهويّة وتشتّتها في حياة إيريك إيريكسون وأعماله)، ترجمة: سامر جميل رضوان، دار الكتاب الجامعي، العين- دولة الإمارات العربيّة المتّحدة، ط1، 2010م.
111. بيل أشكروفت، وبال أهلوايا: مفارقة الهويّة (إدوارد سعيد)، ترجمة: سهيل نجم، دار نينوى للدّراسات والنّشر والتّوزيع، سوريا- دمشق، ط1، 2002م.
112. تدهاريس، وآن لاغرستروم، أنصت إلى ذاتك، ترجمة: أثمار عبّاس، دار نينوى للدّراسات والنّشر والتّوزيع، سوريا- دمشق، دط، 2012م.
113. جان جاك روسو: الاعترافات، ترجمة: خليل رامز سركيس، مركز دراسات الوحدة العربيّة، بيروت- لبنان، ط1، 2012م.
114. جان بول سارتر: الوُجوديّة مَنْزِع إنساني، ترجمة: محمّد نجيب عبد المولى وزُهير المدنيني، دار محمّد علي للنّشر، تونس، ط1، 2012م.
115. جان فرانسوا ماركيه: مرايا الهويّة(الأدب المسكون بالفلسفة)، ترجمة: كميل داغر، المنظّمة العربيّة للتّرجمة، بيروت، ط1، 2005م.
116. جاك ديريدا: الصّوت والظّاهِرة مدخل إلى مسألة العلامة في فينومينولوجيا هوسرل، ترجمة: فتحي إنْقزّو، المركز الثّقافي العربي، الدّار البيضاء- المغرب، ط1، 2005م.
117. جون جوزيف: اللّغة والهويّة (قوميّة- إثنيّة- دينيّة)، ترجمة: عبد النّور خرّاقي، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثّقافة والفنون والآداب، الكويت، دط، 2007م.

118. **جيرار جينيت**: خِطاب الحكاية بحث في المنهج، ترجمة: محمّد معتصم وآخرون، الهيئة العامّة للمطابع الأميريّة، دد، ط2، 1997م.
119. **دافيد لوبروطون**: تجربة الألم، ترجمة: فريد الزّاهي، دار توبقال للنّشر، الدّار البيضاء- المغرب، ط1، 2007م.
120. **ريجيس دوبري**: حياة الصّورة وموتها، ترجمة: فريد الزّاهي، أفريقيا الشّرق، دب، دط، دس.
121. **سيغموند فرويد**: الأنا والهو، ترجمة: محمّد عثمان نجاتي، مكتبة التّحليل النّفسي والعلاج النّفسي، دار الشّروق، بيروت، ط4، 1982م.
122. **عزيز لزرق، ومحمّد الهلالي**: الشّخص، ترجمة: عزيز لزرق ومحمّد الهلالي، دار توبقال للنّشر، الدّار البيضاء- المغرب، ط1، 2010م.
123. **علي شريعتي**: دين ضدّ دين، ترجمة:حيدر مجيد، مؤسّسة العطّار الثّقافيّة، دب، ط1، 2007م.
124. **كارل غ. يونغ**: الإنسان ورموزه (سيكولوجيا العقل الباطن)، ترجمة: عبد الكريم ناصيف، دار التّكوين للتّأليف والتّرجمة والنّشر، دمشق- سوريا، ط1، 2012م.
125. **كلود دوبار**: أزمة الهويّات (تفسير تحوّل)، ترجمة: رندة بعث، المكتبة الشّرقيّة، بيروت- لبنان، ط1، 2008م.
126. **كولن ويلسون**: اللّامنتمي، دار الآداب، بيروت، ط5، 2004م.
127. **ماري مادلين داقي**: معرفة الذّات، ترجمة: نسيم نصر، منشورات عويدات، بيروت، ط1، 1974م.

4- الكتب الأجنبيّة:

128. Oxford Basic English Dictionary,oxford university press, third edition, 2006.

129. Pluri dictionnaire Larousse, imprimerie Berger_ Le vrault, Nancy, juin 1977.

130. dictionnaire Larousse de Français, Maury à Malesherbes en mars, 2010.

131. H.W. Fowler: Dictionary of Oxford Fowler's modern English USAGE , Oxford University press, 1965.

132. Carl.R Rogers Ph.D, Client- Centered Therapy, Constable, London, 1951.

133. Erik H. Erikson's, Edentity Youth and Crisis, printed in the United states, America, 1968.

5- الرّسائل الجامعيّة:

134. **برهان حمدان أسمر دراغمة**: تقدير صورة الجسد وعلاقتها بالمخاوف الاجتماعيّة وتقدير الذّات لدى عيّنة من طلبة الجامعة في فلسطين، رسالة ماجيستير، جامعة القُدس المفتوحة، فلسطين، 2017م/2018م.

135. **عبد اللّه أو غرب**: الذّات والآخر الغربي في روايتي"الغربة" و"اليتيم" لـ: عبد اللّه العروي، رسالة ماجيستير، جامعة أبو بكّر بلقايد، تلمسان-الجزائر، كليّة الآداب واللّغات، 2011م-2012م.

136. **قحّام توفيق**: أزمة الهويّة في الرّواية الجزائريّة المعاصرة، أطروحة دكتوراه، كليّة الآداب واللّغات، قسم اللّغة والأدب العربي، جامعة محمّد الأمين دبّاغين، سطيف- الجزائر، 2016/2017م.

137. **محمّد عمر أحمد أبو عنزه**: واقع إشكاليّة الهويّة العربيّة بين الأطروحات القوميّة والإسلاميّة (دراسة من منظور فكري)، رسالة

ماجيستير، جامعة الشّرق الأوسط، كليّة الآداب والعلوم، 2012/01/21م. ص:02.

138. محمّد قاسم صفّوري: شعريّة السّرد النّسوي العربي الحديث (1980م-2007م)، أطروحة لنيل درجة الدّكتوراه في الفلسفة، جامعة حيفا، كليّة العلوم الإنسانيّة- قسم اللّغة العربيّة وآدابها، 2008م.

6- المجلّات والدّوريّات:

139. إلياس خوري: الرّواية والتّاريخ (نقاشات طاولة مستديرة)، خصوصيّة الرّواية العربيّة، مجلّة النّقد الأدبي فصول-مجلّة علميّة محكمة-، الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، القاهرة، 1998م.ع:01، م:17، ج:03.

140. بايوسف مسعودة: الهويّة الافتراضيّة: الخصائص والأبعاد دراسة استكشافيّة على عيّنة من المشتركين في المجتمعات الافتراضيّة، مجلّة العلوم الإنسانيّة والاجتماعيّة، جامعة قاصدي مرباح ورقلة، الجزائر، عدد خاصّ بملتقى دولي، دس.

141. رشيدة بنمسعود: إستراتيجيّة الكتابة النّسائيّة، مجلّة عالم الفكر، عدد:01، م:02، المجلس الوطني للثّقافة والفنون والآداب، الكويت، 1991م.

142. سلمى عطاللّه: صورة البطل المأزوم في الرّواية زمن الرّبيع العربي الرّواية السّوريّة نموذجا –رقصة الظّلّ الأخيرة لـ"رامي الطّويل"، مجلّة علوم اللّغة العربيّة وآدابها، قسم اللّغة العربيّة، جامعة سيّدة اللّويزة، زوق مصبح، لبنان، 15 جوان 2018م.

143. صوريّة مكاحليّة: قلق الهُويّة في خطاب إدوارد سعيد- خارج المكان وتأمّلات حول المنفى، مجلّة آفاق علميّة، جامعة العربي التّبسّي، تبسّة، الجزائر، 2019م. ع:01، م:11.

144. عبد الرّحمان بن يطّو: السّرد التّوثيقي في الرّواية العربيّة بين المرجعيّة والواقعيّة والمُتخيّل التّاريخي مقاربة توثيقيّة لرواية (مصائر) لربعي المدهون، دفاتر مخبر الشّعريّة الجزائريّة، قسم الأدب العربي، جامعة محمّد بوضياف، المسيلة، الجزائر، أكتوبر2019م.ع:10، م:03.

145. عزّ الدّين بن حليمة: مصادر الرّمز وتجلّياته في الرّواية العربيّة المعاصرة رواية(رمل الماية) لواسيني الأعرج أنموذجا، إحالات، جامعة الجزائر02- أبو القاسم سعد اللّه، الجزائر، ع:03، 2019م.

146. كريمة نطور، مالكيّة بلقاسم: ثيمة الجسد في رواية أنثى السّراب لواسيني الأعرج، مجلّة العلامة، جامعة قاصدي مرباح، ورقلة، الجزائر، ديسمبر 2016م. ع:03.

147. مصطفى الكيلاني: نحن وراهن المواطنة والدّولة والعولمة؟، مقدّمات مجلّة فصليّة محكمة، مخبر الفلسفة وتاريخها، جامعة وهران2، الجزائر، 2017م. ع:02.

148. مصطفاوي محمّد: حجيّة اللّغة العربيّة في سياق تجذير الهُويّة، مجلّة فصل الخطاب، جامعة تلمسان- الجزائر، 2017م.ع:19،م:05.

149. مليكة بن غومار: التّراث الأدبي وأهميّته في الأدب العربي الحديث ونقده، حوليّات الآداب واللّغات، مجلّة علميّة دوليّة محكمة، كليّة الآداب واللّغات، جامعة محمّد بوضياف، المسيلة- الجزائر، م:09، ع:02، جوان 2021م.

150. نادية خاوة: إشكاليّة الهُويّة والتّاريخ في الخطابات الإصلاحيّة الوطنيّة بمنظور نسوي، مجلّة رؤى فكريّة، مخبر الدّراسات اللّغويّة والأدبيّة (عدد خاصّ بالمؤتمر الدّولي: أسئلة الهويّة والمقاومة في الأدب العربي)، 2021م.

151. نور الدّين جويني: الهُويّة الثّقافيّة واستراتيجيّة التّموقع في الرّواية الجزائريّة المعاصرة دراسة في الأنساق الثّقافيّة (نماذج مختارة)، مجلّة الباحث، جامعة أبو القاسم سعد اللّه، الجزائر02، الجزائر، ع:03، م:10، 2018م.

7- المواقع الالكترونيّة:

152. بشرى بوخالفي ومنال بوخزنة: مراجعة: رواية كيف ترضع من الذّئبة دون أن تعضّك لعمارة لخوص، موقع النّقطة الزّرقاء، نشر في: 28 مارس 2020م، على الرابط:https://bluenoqta.com

تم الاطلاع عليه يوم: 2022/12/29م، على السّاعة: 19:20.

153. حياة بن هلال: لأوّل مرّة..الرّواية التّونسيّة تمثّل اللّغة العربيّة في جائزة الاتّحاد الأوروبّي للآداب عام 2011م، الجزيرة نت موقع إلكتروني، نشر المقال في: 2021/05/06م، على الرابط: https://www.alaquds.co.uk

تم الاطلاع عليه يوم:2022/09/12م، على السّاعة: 19:35.

154. ريم العبيدلي: رمزيّة الأرض والهويّة، الوطن صوت المواطن العربي، موقع إلكتروني، نشر المقال في:2017/11/19م، على الرابط: https://www.al-watan.com

تم الاطلاع عليه يوم: 2022/10/16م، على السّاعة: 15:11.

155. فاطمة محمّد: أسماء روايات عربيّة 2022م (فكرة موسوعة عربيّة تهتمّ بجميع المجالات)، على الرابط: https://www.Fekra.com
تم الاطلاع عليه يوم:2022/12/08م، على السّاعة:20:29.
156. عزيز حسين علي الموسوي: صناعة الهُويّة الثّقافيّة أثر الثّقافات الرّاهنة في روايات علي بدر، مؤسّسة الهدى للدّراسات الاستراتيجيّة، موقع إلكتروني، نشر بتاريخ: 04جوان 2022م. على السّاعة: 17:09، على الرابط: http://www.alhudamissan.com
تم الاطلاع عليه يوم:2022/12/29م، على السّاعة:15:30.
157. https://encyclopedia.ushmm
تاريخ وتوقيت زيارة الموقع: 2023/01/10م، 11:38.
158. https://www.aljazeera.net
تاريخ وتوقيت زيارة الموقع: 2023/01/10م، 12:03.
159. https://remix.aljazeera.com
تاريخ وتوقيت زيارة الموقع:2023/01/10م، 15:39.
160.modyabdry15.blagspot.com
تاريخ وتوقيت زيارة الموقع:2022/06/30م، 10:40.
161. https://encyclopedia.ushmm.org
تاريخ وتوقيت زيارة الموقع: 2023/01/26م، 19:30.

فهرس المحتويات

المحتوى ..... الصّفحة

مقدّمة.....01- 07.

الفصل الأوّل: الذّات والهُويّة: الماهية والتّمظهُرات في الخطاب الرّوائي العربي.....08-94.

تمهيد:.....10.

أوّلا: التّأصيل المصطلحي للذّات والهُوية.....10

1/ حَوْلَ الذَّات.....10

1-1/ ماهِية الذَّات.....10-15.

1-2/ ماهِيَة الآخر.....15-18.

1-3/ العلاقة بين الذّات والآخر.....18-22.

2/ حول الهويّة:.....23.

2-1/ ماهِية الهويّة.....23-30.

2-2/ عناصِر الهويّة.....31.

-أ/ اللّغة العربيّة.....31-34.

-ب/ الدّين.....34-37.

-ج/ الأرض.....37-40.

2-3/ أنواع الهُويّة.....40.

3-2-1/ الهُويّة القوميّة.....43-40.

3-2-2/ الهُويّة العِرقيّة.....46-43.

3-2-3/ الهُويّة الإثنيّة.....48-46.

4-2/ تشكّلات الهويّة.....48

4-2-1/ الهويّة الفرديّة.....51-49.

4-2-2/ الهويّة الاجتماعيّة.....54-51.

4-2-3/ الهويّة الوطنيّة.....58-54.

4-2-4/ الهويّة الثّقافيّة.....61-58.

4-2-5/ الهويّة الافتراضِيّة.....64-61.

ثانيا: أسئلة الذّات وتمثّلاتها في الرّواية العربيّة.....65-64.

1/ الأنا المُهمّشة.....70-65.

2/ تشيّؤ الأنا.....74-70.

ثالثا: أسئلة الهُويّة وتمثّلاتها في الرّواية العربيّة.....75.

1/ الهُويّة ورحلة البحث عن الذّات.....80-75.

2/ الهُويّة في مواجهة الآخر.....87-80.

3/ تشكّلات الهوُيّة في الرّواية العربيّة المعاصر.....93-87.

خاتِمة الفصل.....94

الفصل الثّاني: البحث عن الذّات في رواية أولاد الغيتو اسمي آدم لإلياس خوري.....95-167.

تمهيد:.....96.

أوّلًا/ صُورة الذّات في الرّواية:.....96-100.

1/ الصُّورة الجَسَدِيّة.....100-109.

2/ الصّورة النّفسيّة.....109-119.

3/ الصُّورة الاجتماعيّة.....119-126.

ثَانِيًا/ مِحْنَةُ الشّتات.....126-136.

ثالِثًا/ ثنائيّة الأنا والآخر.....136-146.

رابِعًا/ الأنا عبر ضمائر السّرد.....146-156.

خَامِسًا/ السّرد والذّات.....156-166.

خاتِمة الفصل.....166-167.

الفصل الثّالث: الهُويّة في رواية أولاد الغيتو اسمي آدم لإلياس خوري.....142-241.

تمهيد:.....169.

أوّلًا/ تشكّل الهُويّة في الرّواية:.....169-171.

1/ الهُويّة الفرديّة:.....171-176.

2/ الهُويّة الاجتماعيّة.....176-181.

3/ الهُويّة الوطنيّة.....181-187.

4/ الهُويّة الثّقافيّة.....187-194.

5/ الهُويّة الافتراضيّة.....194-201.

ثانِيًا/ بروز عناصر الهُويّة في الرّواية.....201-202.

1/ اللّغة العربيّة.....202-208.

2/ الدّين.....209-216.

3/ الوطن.....216-223.

4/ توظيف التّراث.....223-229.

ثالِثًا/ السّرد والهُويّة.....229-240.

خاتِمة الفصل.....240-241.

خاتمة.....242-247.

قائمة المصادر والمراجع.....248-269.

فهرس الموضوعات.

ملخص

تَبَنَّى الكاتب العربي قضايا راهنه المُثيرة للجَدل من باب كَسْر المَألوف النَّصّي والخُروج بِجديد أكْثر واقعيّة، ومن بين القضايا الّتي تطرّق إليها قضيّتَيْ الذّات والهُويّة لِما تشْغَلانه من مكانة على السّاحة الأدبيّة، فموضوع أسئلة الذّات والهُويّة نابع عن جُملة المَشاكل الّتي يُعانيها الإنسان العربي ضِمن راهنه المَأزوم، ما يعكِسُ حقيقة تأثّر الذّات العربيّة الّتي باتت غائبة أمام نظيرها الآخر.

ومنه، حَمل مَتْنُ الدّراسة: أسئلة الذّات والهُويّة في الرّواية العربيّة(أولاد الغيتو اسمي آدم) لإلياس خوري، صُورة الإنسان العربي الفاقد لذاته وأرضه وهُويّته.

ومن بين أهمّ النّتائج المُتَوَصَّلِ إليها نَذْكُر:

- أسئلة الذّات من بين المواضيع الّتي تبنّاها الكُتّاب العرب، انطلاقا من مُعاناة الإنسان العربي ضمن راهنه المَأزوم.

- للسّرد علاقة وثيقة بالهُويّة، هذا ما لاحظناه من خلال رواية أولاد الغيتو اسمي آدم لإلياس خوري.

الكلمات المفتاحيّة: أسْئلة الذّات، الهُويّة، الذّات العربيّة، الآخر، الحُضور، الغِياب.

Abstract

The Arabian writer adopted several current unfamiliar cases in order to give different texts and to expose new reel topics.

My case, which is one of them, talks about subjectivity and identity because of their important place in the litterer field.

The topic of subjectivity and identity is extracted from many problems making the Arabian people suffer during their difficult reality, thus, it reflects the reality of the Arabian subjectivity that lost its brilliance in front of the other counterpart.

So, the essential of the study put a spot light on: questions of subjectivity and identity in the Arabian novel (**The Children of the Ghetto: My Name is Adam)** written by Elias Khoury, which talks about the Arabian person who lost his subjectivity, land and identity.

Among the results that we reached for, we mention the following:

-Questions of subjectivity are among the topics adopted by the Arabian novelists, starting from the sufferance of the Arabian human during his difficult reality.

Abstract

-The narration has a strong relationship with the identity, and that is the thing that we noticed in the novel called "**The Children of the Ghetto: My Name is Adam**" written by Elias Khoury.

Glossary: Questions of Subjectivity – Identity – Arabian Subjectivity – Others – Presence – Absence.